ليلة لا تُنسى

والتر لورد

- Author : Walter Lord
- Title: The Night Lives On
- Translated by: Housien Al Qabany
- Afaq's first edition: 2019
- Cover Design by: Hossam Al Sawah
- Publishing Consultant: Sawsan Bashier
- General Manager: Mostafa Alsheikh

- المؤلف: والتر لورد
- العنوان : ليلة لا تُنسى
- ترجمة : حسين القباني
- طبعة آفاق الأولى 2019
- تصميم الغلاف: حسام السواح
- مستشار النشر: سوسن بشير
- المدير العام: مصطفى الشيخ

رقم الإيداع:
٢٠١٨/٨٠٠٦
الترقيم الدولي : ISBN
978-977-765-157-8

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

والتر لورد

ليلة لا تُنسى

قصة غرق الباخرة تيتانيك

ترجمة

حسين القباني

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

لورد، والتر.
والتر لورد : ليلة لا تُنسى – ترجمة: حسين القباني
ط1 القاهرة – دار آفاق للنشر والتوزيع – 2019
272 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 8006 / 2018
الترقيم الدولي 978 – 977 – 765 – 157 – 8
1 – الأدباء (قصص)
2 – لورد، والتر

والتر لورد(*)

بدأ المؤلف يهتم بمأساة الباخرة «تيتانيك» وهو، بعد، صبي صغير، واستمر في أبحاث شاملة استغرقت ثماني وعشرين سنة. ولا شك أنه أكثر الناس علمًا بتفاصيل هذه الفاجعة. ولقد راسل الذين نجوا، وأولئك الذين عملوا على إنقاذ الركَّاب، وموظفي الباخرة، وأقارب المفقودين في هذه الفاجعة. كما أنه فحص جميع الرسومات الهندسية لتشييد الباخرة ومواصفات تأسيسها وكشوف البضائع. هذا إلى جانب آلاف الصفحات التي تضم شهادة الشهود أمام المحققين الرسميين في لندن وواشنطن. ظهرت مهارته الفائقة في ضم الحقائق والربط بينها، فقدم لنا هذه القصة الرائعة.

(*) تلميح من المترجم.

مقدمة

في سنة ١٨٩٨ ألف أديب ناشئ، يُدعى مورجان روبرتسون(*)، رواية عن عابرة محيط خيالية، أكبر من أي عابرة سبق بناؤها. وشحن روبرتسون باخرته بركَّاب أغنياء سعداء، ثم حطمها على جبل ثلج عائم في ليلة باردة من ليالي شهر أبريل. وقد تم هذا، على نحو ما، عن تفاهة كل شيء. والواقع أن اسم الرواية كان «بلا جدوى» عندما نشرتها في ذلك العام مؤسسة م. ف. مانسفيلد.

وبعد ذلك بأربعة عشر عامًا، أنشأت شركة البواخر البريطانية المعروفة باسم «شركة هوايت ستار» الملاحية، باخرةً تشبه إلى حد كبير باخرة روبرتسون الخيالية. إذ كانت حمولة الباخرة الجديدة ٦٦ ألف طن، وكانت حمولة باخرة روبرتسون ٧٠ ألف طن. وكان طول الباخرة الحقيقية ٨٨٢,٥ قدمًا، وطول الأخرى الخيالية ٨٠٠ قدم، وكان لكل منهما ثلاثة رفاصات، وفي مقدورها أن تسير بسرعة ٢٤ –٢٥ عقدة في الساعة، وأن تحمل ثلاثة آلاف راكب، كما لم يكن في كل منهما من

(*) وُلد ٣٠ سبتمبر ١٩٦١، بنيويورك، كان يُعاني من مرض الصرع، وكان يتناول محلول Paraldehyde الذي يُستخدم لعلاج الصرع، ويبدو أنه قد تناول الكثير منه، فمات بسبب ذلك في ٢٤ مارس ١٩١٥. (المحرر).

قوارب النجاة ما يكفي لإنقاذ نسبة ضئيلة جدًّا من هذا العدد. غير أن هذا الأمر -كما بدا يوم ذاك- لم يكن كبير الأهمية؛ لأن كلًّا منهما، كانت من نوع «غير قابل للغرق».

وفي اليوم العاشر من شهر أبريل عام ١٩١٢ أبحرت الباخرة الحقيقية في رحلتها الأولى إلى نيويورك، وكانت تحمل معها نسخة لا تقدر بثمن من رباعيات الخيام، وعددًا من الركَّاب تقدر ثرواتهم في جملتها بمائتين وخمسين مليونًا من الدولارات. وفيما هي تمضي في طريقها، اصطدمت بجبل ثلج عائم، وغرقت في ذات ليلة باردة من ليالي شهر أبريل.

وكان روبرتسون قد أطلق على باخرته اسم تيتان، أما شركة «هوايت ستار» الملاحية، فقد أطلقت على باخرتها اسم «تيتانيك» وهذه هي قصة ليلتها الأخيرة.

* * *

الفصل الأول

«رحلة أخرى إلى بلفاست»

هناك، في برج المراقبة المرتفع بالباخرة الجديدة تيتانيك. التابعة لشركة «هوايت ستار» الملاحية، كان الرقيب فريدريك فليت، يحملق في ظلام الليل المحير؛ وكانت ليلة هادئة، صافية، قارسة البرد. ولم يكن ثمة قمر، وإنما كانت السماء الصافية تتوهج بالنجوم. وكان المحيط الأطلسي كأديم مرآة مصقولة، وقد قال الناس فيما بعد إنهم لم يروا سطحه على مثل هذا الهدوء والصفاء.

وكانت تلك الليلة الخامسة لأول رحلة تقوم بها التيتانيك إلى نيويورك. وكان من الواضح فعلًا أنها لم تكن أكبر باخرة في العالم وحسب، وإنما كانت أيضًا أفخرها جميعًا. حتى كلاب الركَّاب كانت فاخرة. فقد كان مع الراكب جون جاكوب استور كلبته الأرديل[1] كيتي، ومع هنرى سليبرهاربر -أحد العاملين في ميدان النشر- كلبته البكيني الثمين سن يات سين، وكان روبرت. و. دانييل -المالي الفلاديلفي- قد أحضر معه كلبه البولدوج الفرنسي الممتاز الذي اشتراه من بريطانيا،

(١) **Airedale**: نوع من الكلاب.

وكذلك كان كلارنس مور –من واشنطن– قد اشترى عددًا من الكلاب. ولكنَّ الخمسين زوجًا من الكلاب «الفوكسهاوند» الإنجليزية التي اشتراها لحساب جمعية الصيد «لودون هنت» لم تكن معه في هذه الرحلة.

ولكن هذا كله كان عالمًا آخر بالنسبة لفريدريك فليت، الذي كان واحدًا من ستة رقباء على الباخرة تيتانيك، ومن المعتاد ألا يشغل الرقباء خواطرهم بأمور الركَّاب؛ ذلك لأنهم كانوا «عيون السفينة». وفي هذه الليلة بالذات كان قد طلب من فليت أن يحذر بصفة خاصة من جبال الجليد العائمة.

وإلى هنا والأمر على ما ينبغي أن يكون. إنه يقوم بنوبة الساعة العاشرة.. وإنه ليتبادل كلمات قليلة عن العوائق الثلجية مع زميله الرقيب ريجينالد لي الذي كان يشترك معه في هذه النوبة، ثم كلمات أخرى قليلة عن البرد. وفي معظم الوقت كان الصمت يخيم على الاثنين وهما يحملقان في طيات الظلام.

ورغم أن نوبة المراقبة كادت تنتهي، فإن أحدهما لم يرَ ثمة شيئًا غير عادي، وإنما هو الليل.. والنجوم.. والبرد القارس.. والرياح التي تصفر بين الأدقال أثناء انطلاق التيتانيك على السطح المائي الأسود الهادئ بسرعة ٢٢,٥ عقدة في الساعة. وكان الوقت يكاد يقترب من الدقيقة الأربعين بعد الحادية عشرة من مساء يوم الأحد الرابع عشر من شهر أبريل عام ١٩١٢.

وفجأة رأى فليت أمامه مباشرة، شيئًا بدأ أشد قتامة من الليل نفسه.

وكان في أول الأمر صغيرًا «في حجم مائدتين موضوعتين جنبًا إلى جنب» كما خطر له. إلا أنه كان في كل لحظة يزداد كبرًا وقربًا. وبادر فليت فصلصل جرس برج المراقبة ثلاث مرات إنذارًا بالخطر الماثل أمامه، وفي الوقت نفسه رفع مسماع التليفون واتصل بمركز المراقبة.

وقال له صوت هادئ في الطرف الآخر من الخط:

- ماذا ترى؟

فأجاب فليت:

- جبل ثلج عائمًا أمامي مباشرة.

فرد عليه الصوت في لهجة عجيبة خالية من المجاملة:

- شكرًا.

ثم لا كلمة بعد ذلك.

وفي السبع والثلاثين من الثواني التالية، ظل فليت وزميله لي واقفين في سكون يرقبان جبل الثلج يزداد اقترابًا. إن الباخرة توشك أن تصطدم به دون أن تنحرف عنه، وإن الجبل ليبدو عاليًا رطيبًا لامعًا، فوق السطح الأمامي للباخرة. وإن الرقيبين ليعدَّان نفسيهما لتلقي الصدمة. ثم إذا بمقدمة الباخرة تبدأ، بما يشبه المعجزة، في الانحراف يسارًا. وفي اللحظة الأخيرة انفلت رأس السفينة بعيدًا، وانساب جبل الثلج العائم بسرعة على جانبها الأيمن؛ وبدا لفليت أنها نجت من الاصطدام بمعجزة.

وفي هذه اللحظة كان ضابط المراقبة جورج توماس راو واقفًا في

نوبته بمركز المراقبة الخلفي –وكان كل شيء يبدو في نظره أيضًا طبيعيًّا في تلك الليلة، إنه البحر.. والنجوم.. والبرد القارس؛ وفيما هو يذرع السطح، لاحظ ما كان هو وزملاؤه يسمونها «الراقصات حول الضوء»؛ أي ندفًا صغيرة من الثلج في الهواء، دقيقة ناعمة كالغبار، تعكس أطيافًا من الألوان المتلألئة حيثما تسقط عليها الأضواء من مصابيح السطح.

وعلى حين غرة شعر بحركة غريبة تقطع الزفيف المنتظم الصادر عن المحركات، وكان الأمر يبدو إلى حد ما حركة ارتطام جانب السفينة أكثر مما ينبغي بجدار مرساة. وتطلع إلى الأمام، ثم أنعم النظر، فبدا له كأنما ثمة سفينة شراعية، مطلقة الشراع، تمر بالجانب الأيمن من الباخرة؛ ثم تبين أنه جبل ثلج عائم يرتفع زهاء مائة قدم فوق سطح الماء. وفي اللحظة التالية، اختفى منسابًا إلى الوراء نحو الظلام.

وفي الوقت نفسه، كان أربعة من طاقم الباخرة تيتانيك جالسين حول إحدى الموائد في قاعة الطعام بالدرجة الأولى بالسطح رقم «د»، وكان آخر من تناول طعام العشاء من الركَّاب قد انصرف، وأمست القاعة الجِيمسية[1] الطراز البيضاء الكبيرة خالية إلا من هذه الجماعة وحسب. وكانوا من الخدم القائمين على الخدمة في وجبة العشاء بالباخرة، فرغوا من أعمالهم، وراحوا يستمتعون بوقت فراغهم، ويتبادلون الأحاديث عن الركَّاب، كما يفعل جميع خدم السفن عادةً.

وفيما هم جالسون يتحدثون، بدا لهم أن ثمة صوتًا خفيفًا كالصرير

(١) نسبة إلى طراز الزخرفة الذي كان سائدًا في عصر الملك جيمس الأول بإنجلترا في أوائل القرن السابع عشر.

مصحوبًا بهزة قد صدر من مكان ما في أعماق الباخرة. ورغم أن الأمر لم يكن شيئًا ذا بال، فإنه كان كافيًا لأن يبتر المحادثة، ويصلصل أدوات الطعام الفضية المُعدَّة لطعام الفطور في الصباح التالي.

وشعر النادل «خادم المائدة» جيمس جونسون أنه أدرك ما حدث. أدرك أن ما حدث يشبه الرجفة التي تعتري الباخرة عندما تسقط ريشة من إحدى رفاصاتها. وكان يعلم أن مثل هذا الحدث يعني العودة إلى حوض شركة هارلاند وولف لإصلاح السفن في بلفاست- أي الشيء الكثير من وقت الفراغ والاستمتاع بمباهج الميناء. ووافقه أحد زملائه القريبين منه وراح يغني مستبشرًا أغنية: «رحلة أخرى إلى بلفاست».

وفي المطبخ، عند رأس السفينة تقريبًا، كان كبير الطهاة الليلي وولتر بيلفورد يعد الكعك لليوم التالي؛ «لأنه كان يحتفظ بشرف صنع الفطائر الفاخرة للنوبة النهارية»، وقد تأثر بيلفورد بالهزة -عند حدوثها- أكثر من النادل جونسون؛ ربما لأن وعاء من الكعكات الجديدة قد سقط مصلصلًا من فوق الفرن، وتناثرت محتوياته على الأرضية.

وأحس الركَّاب في مقصوراتهم بالهزة أيضًا، وحاولوا أن يربطوها بشيء مألوف. لقد نهضت مارجريت فروليكر -وكانت شابة سويسرية تصحب أباها في رحلة خاصة ببعض الشؤون العملية- من نومها مجفلةً، ولم يسعها، وهي بين اليقظة والوسن، إلا أن تذكر زوارق التعدية الصغيرة البيضاء ببحيرة زيورخ عندما ترتطم بالمرساة عند وصولها إليها. وقد قالت لنفسها بصوت خافت:

«عجبًا! لقد وصلنا!».

وظن الميجور آرثر جودفري بوتشين -الذي كان قد بدأ يستعد للنوم- أن الأمر يشبه ارتطام موجة كبيرة بالسفينة. وكانت المسز ج. ستيوارت هوايت جالسة على حافة فراشها وقد مدت يدها لتطفئ النور، عندما بدا لها أن الباخرة «تتدحرج فوق ألف حصاة صغيرة». وظنت المسز جون جاكوب استور أن ثمة شيئًا ما قد حدث في المطبخ.

وبدا أن الإحساس بالهزة كان أقوى عند البعض منه عند البعض الآخر، فالمسز ألبرت كالدريل مثلًا تصورتها مثل كلب كبير يمسك بقطعة صغيرة بين أسنانه ويخضخضها. وتذكرت المسز والتر ب. ستيفنسون الهزة المشؤومة الأولى عندما كانت في فرانسيسكو أثناء وقوع زلزالها الرهيب، ثم قررت في النهاية أن الأمر ليس بمثل هذه الخطورة. ولم تشعر المسز أ. د. أبلتون بأي اهتزازات على الإطلاق، ولكنها سمعت ذلك الصوت البغيض الذي يشبه صوت إنسان ما يمزق شريطًا طويلًا من قماش القطن.

ولكن كان للهزة معنى أكبر في نظر ج. بروس اسماي المدير الإداري لشركة «هوايت ستار» الملاحية، الذي دفعه الشعور بالبهجة إلى مصاحبة التيتانيك في رحلتها الأولى، لقد استيقظ اسماي مجفلًا في مقصورته الفاخرة على السطح رقم «ب»، وقد خامره إحساس أكيد بأن الباخرة صدمت شيئًا، ولكنه لم يكن يدري ما هو.

وكان بعض الركَّاب قد عرفوا، عندئذ، الإجابة. فقد كان المستر والمسز جورج أ. هاردر. «وهما زوجان شابان في شهر العسل -لا يزالان مستيقظين في مقصورتهما «أ -٥٠» عندما سمعا الارتطام الثقيل. ثم إذا

هما يشعران بالباخرة ترتجف، ثم يسمعان صوتًا مثل صرير الاحتكاك ينساب على طول جانبها. ووثب المستر هاردر من فراشه وأسرع إلى كوة المقصورة، وفيما هو ينظر من خلال زجاجها رأى جدار الجبل الثلجي ينساب إلى الخلف.

وحدث نفس الشيء لجيمس ماكو -أحد التجار من ولاية فيلادلفيا- إلا أن الأمر معه كان أدعى إلى الانزعاج؛ لأن كوته كانت مفتوحة، فاندفعت منها قطع الثلج وسقطت في مقصورته أثناء احتكاك جبل الثلج العائم بجانب الباخرة.

وكان معظم ركَّاب التيتانيك -كالمستر ماكاو- في أسرَّتهم عندما حدثت الهزة. ففي مثل ليلة الأحد هذه البادرة الهادئة كان الفراش الوثير يبدو خير مكان. ولكن بعض معتادي السفر والسهر كانوا لا يزالون ساهرين، وكان معظمهم كالمعتاد، جالسين في قاعة التدخين بالدرجة الأولى في السطح رقم «أ».

وكانوا كالمعتاد أيضًا، جماعة شديدة التباين. فحول إحدى الموائد جلس آرشي بات الياور العسكري للرئيس تافت، وكلارنس مور تاجر الكلاب الجوال، وهارى ويدنر ابن أحد أقطاب صناعة مركبات النقل في فيلادلفيا، وويليام كارتر أحد رجال الشركة الملاحية. وكانوا قد تخلفوا بعد الفراغ من مأدبة عشاء صغيرة أقامها والد ويدنر تكريمًا للكابتن إدوارد ج. سميث ربان الباخرة.

وكان الربَّان قد انصرف في وقت مبكر، وأرسلت السيدات إلى مخادعهن؛ وتبقى الآن هؤلاء الرجال ليستمتعوا بتدخين السيجار الأخير

قبل أن يأووا أيضًا إلى المضاجع. وتطرق الحديث من السياسة إلى مغامرات كلارنس مور في فرجينيا الغربية، في الوقت الذي ساعد فيه على إجراء المحادثات الرسمية مع الإقطاعي الجبلي العجوز إنز هانفيلد.

وفي مقعد جلدي وثير قريب، كان سبنسر ف. سليفر ثورن المندوب الشاب لمتاجر فيوجنت بولاية سانت لويز، متراخيًا يقرأ أروج كتاب جديد ظهر يومذاك وهو «ابن فرجينيا». وعلى مسافة غير بعيدة كان لوسيان ب. سميث (وهو فيلادلفي كذلك) يعالج ببسالة مشكلات التفاهم باللغة الفرنسية وهو يلعب البريدج مع ثلاثة فرنسيين.

وعلى مائدة أخرى جلس مجموعة من الركَّاب الشبان يلعبون البريدج في شيء من الضجة والصخب، وكان طبيعيًّا أن يفضل الشباب من الجنسين الجلوس في القهوة الفرنسية «كافيه بارسيين» الأبهج الموجودة في السطح رقم «ب» الذي يلي السطح الأعلى، وقد فعلوا هذا في تلك الليلة أولًا. ولكن عندما اشتد البرد في نحو الساعة الحادية عشرة والنصف، مضت الفتيات إلى مخادعهن، وصعد الشبان إلى قاعة التدخين لتناول كأس الشراب الأخيرة. وقرر معظمهم أن يشربوا كؤوس الويسكي. وتناول هيو وولنر -ابن المثَّال الإنجليزي- كأس ويسكي دافئ بالماء. وآثر اللفتنانت هوكان بونستروم ستيفانسون -وهو ملحق عسكري سويدي شاب كان في طريقه إلى واشنطن- كأسًا من شراب الليمون الدافئ.

وأبرز أحدهم مجموعة من أوراق اللعب. وفيما هم جالسون يلعبون ويضحكون، إذا بالهزة ذات الصرير تحدث. ورغم أنه لم يكن لها وقع

الصدمة، فإنها جعلت كلًّا منهم يجفل قليلًا، بل إن المستر سيلفر ثورن لا يزال ينتصب في جلسته بارتجاف كلما تحدَّث عنها. وفي لحظة كان النادل الخاص بقاعة التدخين والمستر سيلفر ثورن واقفين ثم مهرعين من الباب الخلفي.. وبعد أن تجاوزا ردهة النخيل، وصلا إلى السطح في وقت أتاح لهما رؤية جبل الثلج الذي كان أكثر ارتفاعًا بقليل من سطح الباخرة يحتك بطول جانبها الأيمن، وفيما هو ينساب إلى الوراء، أخذا يرقبان قطع الجليد وهي تنفصل وتتدحرج إلى الماء. وفي لحظة أخرى كان الجبل قد اختفى إلى الوراء في جوف الظلام.

وكان الآخرون في قاعة التدخين قد اندفعوا أيضًا إلى الخارج، حتى إذا وصل ميو وولنر إلى السطح، سمعا رجلًا يهتف قائلًا:

– لقد اصطدمنا بجبل ثلج عائم –ها هو ذا.

ومد وولنر البصر في جوف الظلام، فاستطاع أن يتبين على مسافة ١٥٠ ياردة تقريبًا، إلى الخلف، جبلًا من الثلج يرتفع مظلمًا تحت السماء المرصعة بالنجوم، ثم إذا هو يختفي في الظلام.

وكذلك اختفت موجة الانفعال، فقد بدت التيتانيك صامدة كشأنها دائمًا. كما أن شدة البرد لم تكن تسمح بالبقاء خارج الغرفات مدة أطول، ومن ثم عادت الجماعة، الواحد بعد الآخر، إلى قاعة التدخين، وتناول وولنر أوراق اللعب، واستأنفوا لعبة البريدج. ولكن آخر رجل دخل القاعة خُيِّل إليه، وهو يغلق الباب، أنه سمع المحركات تتوقف.

وكان على حق. فهناك، في مركز المراقبة، كان الضابط الأول ويليام. م. مردوخ قد أخطر بالإشارات البرقية غرفة المحركات لكي

تتوقف. وكان مردوخ يقوم بنوبته في مركز المراقبة عندئذ، وكان عليه أن يعالج الموقف بعد أن أخطره فليت بالأمر تليفونيًّا. وكانت قد مرت منذ ذلك الحين لحظات عصيبة –صدرت خلالها الأوامر إلى ماسك عجلة التوجيه هتشنز لكي يدير العجلة بعنف إلى اليسار، ثم صيحة عالية إلى غرفة المحركات مع الأمر بالتقهقر إلى الخلف بأقصى سرعة ممكنة، ثم ضغطة عنيفة على زر إغلاق الأبواب المانعة للماء. وأخيرًا هذه الثواني السبع والثلاثون من الانتظار المؤلم.

وانتهت فترة الانتظار، وبدا بوضوح أن الأوامر جاءت متأخرة، فبعد أن تلاشى الصوت ذو الصرير، اندفع الكابتن سميث من مقصورته المجاورة لغرفة عجلة التوجيه، إلى مركز المراقبة، وهناك تبادل هذه العبارات القليلة مع الضابط مردوخ، قال:

– مستر مردوخ. ما هذا؟!

– جبل ثلجي عائم يا سيدي، لقد انحرفت عنه، ورجعت بالباخرة إلى الوراء، وكنت أنوي أن أدور حوله، ولكنه كان جد قريب فلم أستطع أن أفعل أكثر مما فعلت.

– أغلقْ أبواب الطوارئ.

– لقد أُغلقتْ فعلًا.

وكانت الأبواب المانعة للماء قد أغلقت تمامًا، وفي أسفل الباخرة حيث غرفة المراجل رقم ٦، كان الوقَّاد فريد باريت يتحدث مع المهندس الثاني المساعد جيمس هاسكيت عندما صلصل جرس الإنذار وتوهج

النور الأحمر فوق الباب المانع للماء المؤدي إلى مؤخرة السفينة. وارتفعت صيحة تحذير، ثم دوي يصم الآذان، ثم كان الجانب الأيمن للسفينة يبدو كأنه ينهار، واندفعت المياه كالسيل إلى الداخل، وراحت تدور حول الأنابيب والصمامات، ووثب الرجلان -الوقاد والمهندس- عبر الباب الذي انصفق وراءهما فورًا.

ووجد الوقَّاد باريت الأمور على هذا النحو من السوء حيث هو الآن في غرفة المراجل رقم ٥؛ ذلك أن الفجوة التي فُتحت في جانب الباخرة كانت قد وصلت إلى مسافة قدمين بعد الباب المانع للماء، وكان ثمة نافورة ضخمة من مياه البحر تندفع بقوة من خلال هذه الفجوة. وعلى مقربة منه كان المنسق جورج كافيل يحفر لنفسه مخرجًا من تيهور الفحم الذي انهال فوقه من مخزنه عند الارتطام. وكان ثمة وقَّاد آخر يتأمل باكتئاب وعاء حساء مقلوبًا كان يسخنه على إحدى الأنابيب.

ولم تندفع المياه إلى غرفات المراجل الأخرى الأمامية، ولكن الوضع كان متشابهًا إلى حدٍّ ما. فالرجال يجاهدون للخروج من أكوام الفحم المنهارة عليهم، وغيرهم يتساءلون بأصوات مرتفعة عما حدث، إذ كان من العسير عليهم أن يفطنوا إلى حقيقة الأمر؛ ذلك أن السفر على التيتانيك كان حتى هذه اللحظة أقرب شيء إلى النزهة. فقد كانوا يجدون -بحكم وجودهم في باخرة جديدة تقوم بأولى رحلاتها- كل شيء فيها جديدًا. بل إن الوقَّاد جورج كميش لا يزال يقول في معرض الذكرى: إنها «شيء جميل... وليست مثل البواخر القديمة التي اعتدنا

العمل عليها، حيث كنا نكاد تُقصم ظهورنا من فرط الإرهاق، وتُشوى أجسادنا من فرط الحرارة المنبعثة من الأفران».

لقد كان كل ما على الوقَّادين أن يفعلوه، أن يحافظوا على بقاء النار مضرمة في الأفران. فلم يكن ثمة حاجة تدعوهم إلى إرهاق أنفسهم باستعمال قضبان تحويل الوقود أو تجميعه أو تقليبه. ومن ثم فقد كانوا في ليلة الأحد هذه يقومون بأعمالهم في هوادة، ويجلسون على الدلاء، ويحركون آلات التنسيق والنفخ، منتظرين حلول النَّوبة التي تبدأ من منتصف الليل إلى الرابعة صباحًا.

ثم حدثت الهزة.. المصحوبة بذلك الصوت ذي الصرير.. وتعالت دقات التلغراف بشدة.. وانصفقت الأبواب المانعة للماء بعنف. ولم يستطع معظم الرجال أن يتصوروا ما حدث -وانتشرت الأقوال بأن التيتانيك قد احتك قاعها بالقرب من شواطئ جزيرة نيوفوند لاند. وقد ظل الكثيرون يظنون هذا، حتى بعد أن أقبل أحد المنسقين يجري من أعلى وهو يهتف:

- ويحنا! لقد اصطدمنا بجبل ثلجي عائم!

وعلى مسافة عشرة أميال من الباخرة تيتانيك، كان الضابط الثالث تشارلس فيكتور جروفز في مركز المراقبة بالباخرة «كاليفورنيان» التابعة لشركة ليلاند الملاحية، التي كانت في طريقها من لندن إلى بوسطن. وكانت باخرة بسيطة، حمولتها ستة آلاف طن، وبها أماكن تتسع لسبعة وأربعين راكبًا، ولكن لم يكن بها أحد الركَّاب عندئذ. وفي

ليلة الأحد هذه كانت قد توقفت منذ الساعة العاشرة والنصف مساء بسبب العوائق الجليدية.

وفي الحادية وعشر دقائق، لاحظ جروفز أضواء سفينة أخرى على الجانب الأيمن، تنطلق من ناحية الشرق. ولما أمست الباخرة الوافدة محاذية للباخرة «كاليفورنيان» المتوقفة، بدا من توهج الأضواء على سطوحها أنها باخرة ركاب كبيرة من عابرات المحيط. وفي الحادية عشرة والنصف؛ طرق الباب البندقي لغرفة الخرائط، وأخبر الكابتن ستانلي لورد بالأمر، واقترح لورد الاتصال بالباخرة الوافدة عن طريق إشارات مورس الضوئية، وتأهب جروفز لتنفيذ هذا الاقتراح.

ولكنه لم يلبث أن رأى الباخرة الكبيرة تتوقف فجأة، وتطفئ معظم أنوارها، وكان ذلك في الحادية عشرة والأربعين دقيقة تقريبًا. ولم يُدْهِشْ هذا الإجراء الضابط جروفز إلى حد كبير؛ ذلك أنه كان قد أمضى فترة من حياته عاملًا على الخطوط الملاحية التجارية بالشرق الأقصى، حيث كان من المعتاد أن تُطفأ الأنوار في منتصف الليل؛ لتشجيع الركَّاب على المضي إلى مخادعهم، ولم يخطر بباله قط أن الأنوار لم تطفأ. وإنما بدتْ له مطفأة لأنها لم تعد في مستوى نظره؛ وذلك لأن الباخرة كانت تميل بعنف على الجانب الأيسر.

* * *

الفصل الثاني

«هناك حديث يا سيدتي عن جبل ثلج عائم»

وعادت الأمور إلى مجراها الطبيعي، وكأنما لم يحدث شيء، فاستأنف الرقيب فليت عمله، وعادت المسز استور للرقاد في فراشها، وعاد الملازم ستيفانسون إلى شراب ليمونه الدافئ.

ونزولًا على رغبة عدد من ركاب الدرجة الثانية المجتمعين في قاعة التدخين مضى «النادل» جيمس ويتر ليتحرَّى سبب الهزة. ولكن الجالسين إلى مائدتين من موائد اللعب لم يحاولوا مجرد رفع رؤوسهم للسؤال عن شيء؛ ذلك لأن شركة «هوايت ستار» الملاحية لم تكن تسمح بلعب القمار في ليلة الأحد، ومن ثم أراد اللاعبون أن يستفيدوا إلى أقصى حد من تساهل كبير النُدُل معهم.

ولم يكن في قاعة الاستراحة التابعة للمكتبة بالدرجة الثانية أحد ليرسل أمين المكتبة ليتحرى الأمر، ومن ثم استمر هذا في مكانه إلى المائدة يحصر بهدوء عدد بطاقات استعارة الكتب في ذلك اليوم.

وفي الدهاليز الطويلة البيضاء المؤدية إلى المقصورات الفاخرة الرائعة، كانت غمغمة أصوات الركَّاب مسموعة وهم يتحدثون في مقصوراتهم، مصحوبة بانصفاق باب مخزن مؤن على السطح، أو بدقدقة حذاء بكعب عال لسيدة تسرع هنا أو هناك.. أو على الجملة كل الأصوات المألوفة في عابرة محيط أثناء الليل.

كان كل شيء يبدو عاديًّا، ولكن إلى حد ما. ففي إحدى مقصورات السطح «ب» كان الشاب البالغ من العمر سبعة عشر عامًا جاك ثاير قد فرغ لتوه من تبادل تحية المساء مع والديه المستر والمسز جون ب. ثاير، من فيلادلفيا. وكان لأسرة ثاير مقاصير فاخرة متصلة، وهو إجراء مناسب لمكانة المستر ثاير، باعتباره النائب الثاني لمدير عام سكة حديد بنسلفانيا. وفيما كان الشاب جاك واقفًا يزرر سترة منامته، إذ بزفيف الهواء المنتظم الذي كان ينساب من مصراع كوته نصف المفتوحة، يتوقف فجأة.

وعلى السطح الذي يلي هذا مباشرة، كان المستر والمسز هنري ب. هاريس جالسين في مقصورتهما يلعبان إحدى ألعاب التسلية. وكان المستر هاريس المخرج المسرحي في برودواي[1]، يشعر بالتعب الشديد، وكانت المسز هاريس قد كسرت ذراعها قبل ذلك بقليل، ولم يكن يجري بينهما غير حديث قليل أثناء تأمل المسز هاريس لتأرجح ملابسها المعلقة في مشاجبها بسبب اهتزازات السفينة. وفجأة لاحظت توقف الملابس عن التأرجح.

(١) شارع الملاهي في نيويورك.

وعلى سطح آخر يلي هذا، كان لورنس بيزلي -وهو مدرس علوم، شاب بكلية والدتش- راقدًا في فراشه بالدرجة الثانية، يقرأ ويستمتع باهتزازات الفراش الرتيبة. وفجأة توقف الاهتزاز.

وكان صرير البناء الخشبي بالباخرة، والزفيف الرتيب للمحركات، والصلصلة المنتظمة للقبة الزجاجية التي تعلو بهو السطح «أ» -أي كل الأصوات المألوفة في بناء الباخرة- تلاشت عندما بدأت التيتانيك في التوقف. وكان هذا السكون المطبق أشد وقعًا على أعصاب الركَّاب من أي هزة عنيفة.

وشرعت الأجراس تصلصل في استدعاء النُدُل، ولكن كان من العسير أن يعرف أحد شيئًا، فقد سأل لورنس بيزلي نادلًا يمر به، فقال:

- لماذا توقفنا؟

وسمع الإجابة التقليدية:

- لا أعرف يا سيدي. ولكني لا أظن الأمر خطيرًا.

ولكن المسز آرثر ريرسون -زوجة أحد رجال الصناعة الصلب- استطاعت على نحو ما أن تحصل على نتائج أحسن. إذ سمعت النادل بيشوب يوضح لها الأمر قائلًا:

- هناك حديث عن جبل ثلج عائم يا سيدتي، وقد توقفت الباخرة حتى لا تصطدم به.

وفيما كانت وصيفتها الفرنسية تحوم وراءها، أخذت المسز ريرسون تفكر فيما ينبغي أن تفعل. فقد كان المستر ريرسون مستغرقًا

لأول مرة في نوم مريح (منذ بدأت الباخرة رحلتها)، ومن ثم أشفقت أن توقظه. ومضت إلى النافذة المربعة ذات الزجاج السميك المطلة على البحر مباشرة، وهنا لم تجد غير الليل الساحر الجميل، وهكذا قررت أن تدعه نائمًا.

وأبى غيرها أن يدعوا الأمر هكذا ببساطة، وقد استبدت بهم عوامل الفضول التي تستبد عادة بركَّاب السفن، وشرعوا في البحث والتحري عن سبب التوقف.

ففي المقصورة رقم ٥١، أسرع الكولونيل أرشيبال جراسيا -أحد المؤرخين العسكريين الهواة بكلية وست بونيت العسكرية ومن ذوي الأملاك- إلى ارتداء ملابسه الداخلية، ثم جواربه الطويلة، ثم حذائه، ثم بنطلونه، وأخيرًا سترته الفورفولكين، ثم اندفع لاهثًا إلى السطح. واقتصر جاك ثاير على إلقاء معطفه فوق منامته، وانطلق قائلًا لوالديه إنه ذاهب «ليتفرج على ما حدث».

ولكن لم يكن على السطح شيء يستحق الفرجة، ولا ما ينم عن أي خطر. وهكذا أمضى المستكشفون معظم الوقت يتجولون على غير هدى هنا وهناك، أو يقفون عند السياج محملقين في جوف الظلام، متلمسين أي شيء ينم عما حدث. ولكنهم لم يجدوا غير التيتانيك مستمرة في الماء، وثلاثًا من مداخنها الأربع تنفث البخار بهدير يشتت سكون الليل المضيء بالأنجم. وفيما عدا هذا لم يكن ثمة شيء غير طبيعي. أما ناحية الجانب الخلفي من الباخرة فكان ثمة رجل وسيدة، يتمشيان وذراع أحدهما في ذراع الآخر، غير حافلين بهدير البخار،

ولا بمجموعات الركَّاب المتجولين هنا وهناك.

ولما كان البرد قارسًا جدًّا دون أن يكون هناك ما يستحق الفرجة، فقد عاد معظمهم إلى الداخل مرة أخرى. ولما وصلوا إلى البهو الفاخر للسطح «أ»، وجدوا ركابًا آخرين قد خرجوا من مقصوراتهم، ولكنهم آثروا البقاء في البهو الدافئ.

وكانوا باختلاطهم على هذا النحو يصنعون صورة غريبة؛ فملابسهم مزيج عجيب من أردية الاستحمام، وملابس السهرة، ومعاطف الفراء، والصداريات الجلدية، وكانت خلفية الصورة لا تقل غرابة ومفارقة: القبة البلّورية الهائلة في أعلى، وألواح الجدران الفاخرة، وحواجز السلم الرائعة ذات الحديد المشغول، وساعة الحائط المدهشة التي كانت تطل عليهم جميعًا وهي محلاة بتمثالين من البرونز لحوريتين، ترمزان على نحو ما لتاجي المجد والشرف اللذين يكللان جبين الزمن.

وقال نادل في شيء من الغموض لجورج هاردر أحد ركاب الدرجة الأولى:

– لن تمر ساعات قليلة حتى نستأنف الرحيل.

وقال هوارد كاس مدير فرع شركة فاكوم بلندن لفريد يوارد المحامي بنيويورك:

– يبدو أننا فقدنا مروحة رفاص، وسوف يتيح لنا هذا مزيدًا من الوقت للعب البريدج.

ولعل المستر كاس قد استقى هذه الفكرة من النادل جونسون

الذي كان مشغولًا بالتفكير في قضاء عطلة بميناء بلفاست. وعلى أي حال، فقد كان معظم الركَّاب قد وصلوا عندئذ إلى معلومات أقرب إلى الصواب.

وقد صاح هارفي كولليير لزوجته عند عودته إلى المقصورة بعد أن قام بجولة على السطح:

- ما رأيك؟ لقد اصطدمنا بجبل ثلج عائم -ومن النوع الكبير- ولكن ليس ثمة خطر. هكذا قال لي أحد الضباط.

وكان الزوجان كولليير من ركاب الدرجة الثانية في طريقهما من مقاطعة بريتانيا الفرنسية، إلى مزرعة فاكهة اشترياها حديثًا في وادي فاييت بولاية إيداهو، وكانا حديثا العهد بالمحيط الأطلسي، وربما أثار النبأ اهتمام المسز كولليير، لولا أن وجبة العشاء في تلك الليلة كانت دسمة جدًّا. ومن ثم سألت زوجها عما إذا كان الخوف يبدو على أحد، فلما أجاب بالنفي، عادت واستلقت في فراشها.

ولاح أن جون جاكوب استور كان أيضًا هادئًا. فعند عودته إلى جناحه الخاص بعد أن قام بالتحري، قال لزوجته المسز استور: إن الباخرة اصطدمت بجبل ثلجي عائم، ولكن الأمر لا يبدو خطيرًا. ومن ثم لم تنزعج المسز استور.

وسأل ويليام ت. ستيد، وكان من رواد العلوم الروحية، ومصلحًا اجتماعيًّا، ومبشرًا دينيًّا، ومحررًا صحفيًّا في آن واحد:

- ماذا يقولون عما حدث؟

وكان قد بدا -بحكم تفكيره الذاتي الخاص- كأنما دبر الأمر لكي يصل إلى السطح متأخرًا عن غيره.

وأجاب فرانك ميلليت الرسام الأمريكي المعروف باقتضاب:

- جبل ثلجي عائم.

فهز ستيد كتفيه وقال:

- حسنًا. أعتقد أن الأمر ليس خطيرًا. لسوف أعود إلى مقصورتي لأقرأ.

وكان هذا هو نفس شعور المستر والمسز ديكنسون بيشوب من مدينة روجياك بولاية متشيجان. وعندما أكد لهما أحد نُدُل سطح زوارق النجاة قائلًا: «إننا صدمنا فقط قطعة جليد صغيرة وتجاوزناها»، عاد الزوجان إلى مقصورتهما واستعدا للنوم مرة أخرى. والتقط المستر بيشوب كتابًا وبدأ يقرأ. ولكن سرعان ما قُطعت قراءته بطرقة على الباب، وكان الطارق هو المستر ألبرت ستيوارت، السيد النشط العجوز الذي كان يمتلك جانبًا كبيرًا من أسهم سيرك «بارنوم وبايلي»، وقد قال للمستر بيشوب:

- هلمَّ اخرج لنتسلى.

وكان لغيره من بعض الركَّاب مثل هذه الفكرة. فقد سمع بيتر دالي أحد ركاب الدرجة الأولى سيدة شابة تقول لأخرى:

- أوه، تعالي نتفرج على جبل الثلج، إننا لم نرَ مثله من قبل.

وتساءل واحد من ركاب الدرجة الثانية في قاعة التدخين مداعبًا عَمَّ

إذا كان من الممكن الحصول على بعض الثلج من جبل الثلج ليضعه في كأس الويسكي؟

وكان هذا في مقدوره حقًّا؛ فعندما احتكت التيتانيك بجبل الثلج العائم تساقط عدد كبير من أطنان الثلج في رحبة الجانب الأيمن مقابل السارية الأمامية مباشرة. كانت تلك الرحبة خاصة بتنزه ركاب الدرجة الثالثة. وسرعان ما رأى ركاب مؤخرة السفينة هذه الأطنان الثلجية عندما خرجوا ليتحروا الأمر. وقد راحت المسز ناتالي ويك من نافذة مقصورتها بالسطح رقم «ب» ترقبهم وهم يلعبون ويتقاذفون بقطع الجليد.

وسرعان ما أصبح الجليد ظاهرة سياحية مثيرة. فانتهز الميجر آرثر جودفري بوشتين –وكان رجلًا في منتصف العمر من رجال الصناعات الكيماوية، ومن مدينة تورنتو– هذه الفرصة ليتعرف بمواطن له أرفع مكانة، هو تشارلس م. هايز مدير شركة سكة حديد «جراند ترانك»، فقال له صائحًا:

– أرأيت الجليد؟

فلما قال المستز هايز إنه لم يره، استطرد بوشتين قائلًا:

– إذا كان يهمك أن تراه، فسوف أمضي بك إلى السطح لأطلعك عليه.

وهكذا مضيا على طول السطح رقم (أ) إلى المقدمة، حيث أخذا يطلان على اللاعبين بالثلج في أسفل.

ولم يعد امتلاك الثلج ميزة مقصورة على ركاب الدرجة الثالثة وحسب، لمدة طويلة... فبينما كان الكولونيل جراسي واقفًا في بهو السطح (أ)، ربت على كتفه كلينسن سميث أحد البارزين في مجتمعات نيويورك الراقية، كما كان من بين تجاربه في الحياة أنه أحد الذين كانوا جالسين إلى مائدة ستانفورد هوايت في الليلة التي قتل فيها هوايت برصاص هاري ك. ثاو، قال سميث هذا للكولونيل:

- أتحب أن تأخذ معك تذكارًا إلى نيويورك؟

ثم فتح قبضة يده وأطلعه على قطعة صغيرة مستديرة مفرطحة مثل ساعة الجيب.

واستبدت هذه الرغبة نفسها لجمع التذكارات بعدد آخر من الركَّاب. فالملاح الفاره جون بوندسر قد التقط قطعة جليد فضية، وراح يطلع عليها زملاءه في منتداهم. وقدَّم أحد ركاب المؤخرة إلى الضابط الرابع بوكسهول قطعة جليد في حجم طست صغير. وفيما كان الميكانيكي المساعد وولتر هيرست راقدًا بين الوسن واليقظة، أقبل عليه صهره -الذي كان يشاركه في نفس المقصورة، وألقى على فراشه قطعة جليد. ودخل رجل جناح النُدُل يعرض عليهم قطعة منه في حجم فنجان الشاي، وقال للنادل دنت راي:

- هناك أطنان من الثلج في مقدمة السفينة.

وتثاءب راي قائلًا وهو يتأهب لاستئناف النوم:

- آه.. حسنًا.

وبدافع من فضول أكثر، مضى نادل الدرجة الأولى هنري صمويل ايتشز –الذي كان خاليًا من العمل عند حدوث الاصطدام– قدمًا على طول الدهليز إلى السطح (أ) ليتحرى الأمر، فالتقى براكب من الدرجة الثالثة كان عائدًا. وقبل أن يقول ايتشز شيئًا، إذا بالراكب يلقي أمامه على السطح بكتلة جليد، كأنما يواجهه بدليل لا ينقض عن شيء كان مثار جدل بينهما، ويصيح قائلًا:

– هل تصدق الآن؟

وسرعان ما قامت الأدلة المزعجة إلى حد كبير على أن كل شيء ليس كما ينبغي، ففي الساعة الحادية عشرة وخمسين دقيقة، أي بعد عشر دقائق من حدوث الاصطدام، كان في الإمكان رؤية وسماع أشياء عجيبة تحدث في الستة أقسام الأولى المانعة للماء، من أقسام الباخرة البالغ عددها ستة عشر.

فبينما كان منسق الأضواء صمويل همنج راقدًا في فراشه بعد فراغه من نوبة العمل، إذا به يسمع صوت فحيح غريب يأتي من المقدمة، من أقرب قسم مانع للماء لرأس الباخرة. فوثب من فراشه، ومضى مسرعًا بقدر ما يستطيع، حيث أدرك أن الفحيح صادر عن هواء يندفع بعنف من المخزن الأمامي الذي تودع فيه سلاسل المراسي، وعلى مسافة بعيدة إلى أسفل كانت المياه تتدفق إلى الداخل بقوة طاردة، مما جعل الهواء يندفع أمامها بفعل الضغط الشديد.

وفي القسم الثاني العازل للماء في المقدمة، الذي يحتوي على جناح الوقَّادين ومخزن البضائع رقم «أ»، تنبه الوقَّاد الأول تشارلس

هنريكسون من نومه أيضًا على صوت عجيب. ولكن الأمر في هذه المرة لم يكن هواء، وإنما كان مياهًا. وعندما أطل من فوق السلم الحلزوني المؤدي إلى الممر الذي يربط بين جناح الوقَّادين ومستودعات الوقود، رأى مياه البحر الخضراء وهي تتدفق في دوامات حول الدرجات الأولى من السلم الحديدي الشبكي.

وعانى أحد ركاب المؤخرة، كارل جونسون، تجربة أشد إزعاجًا في القسم الثالث من مؤخرة الباخرة. وكان هذا القسم يحتوي على أرخص مقاصير الركَّاب بالباخرة وكان أشدها انخفاضًا، وأقربها إلى الوسط. فبينما كان جونسون ينهض ليرى سبب هذه الجلبة خارج مقصورته، إذا بالماء ينساب من تحت الباب ويدور حول قدميه. وقرر أن يرتدي ملابسه، حتى إذا فرغ من هذه العملية، كان الماء قد ارتفع إلى مستوى حذائه. وقد لاحظ في شيء من الاهتمام -الذي يشبه اهتمام الفاحص لشيء لا يثيره كثيرًا- أن ارتفاع الماء في أرضية المقصورة في مستوى واحد تقريبًا. ولم ينفعل راكب المؤخرة المجاورة له، دانييل باك، بما حدث بسرعة. وأخيرًا عندما نهض من فراشه، إذا هو يخوض في الماء حتى عقبيه.

ولكن خمسة من موظفي البريد العاملين في القسم الرابع كانوا، من هذه الناحية، أسوأ حالًا إلى حد كبير؛ ذلك أن مكتب بريد التيتانيك كان يقع في سطحين من أسطح الباخرة. البريد كان مكدسًا مع أمتعة ركاب الدرجة الأولى في سطح العنبر الأدنى، وكانت عملية فرزه تجري على السطح «ج»، وكان السطحان مرتبطين بسلم حديدي واسع يرتفع إلى

أعلى حتى السطح «ف» ومنه إلى بقية أسطح الباخرة. وفي خلال خمس دقائق من بدء الاصطدام، كانت المياه تجيش حول سيقان موظفي البريد وتبلغ الركب، وهم يجرجرون المائتي غرارة من البريد المسجل عبر السلم؛ ليضعوها في مكتب الفرز الخالي من الماء.

ولعله كان من الأفضل لو أنهم أعفوا أنفسهم من هذه المشقة؛ ذلك لأن المياه كانت في خلال خمس دقائق أخرى قد وصلت إلى قمة الدرجات، وأصبحت ترتطم بالسطح «ج»، وعندئذ هجر الموظفون إدارة البريد نهائيًّا، وأسرعوا صاعدين إلى السطح «ف».

وعندما بلغوا قمة السلالم، رأوا زوجين يطلان عليهم، ذلك أن المستر والمسز نورمان كامبل تشامبرز –من نيويورك– كان فضولهما قد أثير بسبب الجلبة الجارية تحتهما، وذلك أثناء عودتهما إلى مقصورتهما بعد رحلة غير مثمرة إلى السطح الخاص بالنزهة. وهنا وقف الزوجان مع موظفي البريد يرقبون المنظر معًا، ويتبادلون الفكاهات عن الغرائر، ويتساءلون عما قد يكون في الخطابات التي كانوا يرونها تدور طافية في مكتب البريد المهجور.

وأخذ غيرهم ينضمون إليهم بين الحين والآخر –الضابط الرابع بوكسهول ومساعد النادل الثاني هويت، بل وفي ذات مرة انضم إليهم الكابتن سميث، ولكن لم يكن ثمة شيء يمكن أن يجعل الزوجين تشامبرز يعتقدان أن أي شيء فيما يريانه يمكن أن ينطوي على خطر حقيقي.

وكان القسم الخامس المانع للماء، يحتوي على غرفة المراجل

رقم «٦»، وكانت نفس الغرفة التي وثب منها الوقَّاد باريت، ومساعد المهندس الثاني هاسكت عبر الباب المانع للماء، عندما اصطفق وراءهما مباشرة عقب الاصطدام. ولم يستطع غيرهما أن يخرج منه قبل اصطفاقه، فهرعوا يتسلقون سلم النجاة المؤدي إلى أعلى. ولكن قليلًا منهم صمد في الغرفة، ولم يلبث أن انضم عدد آخر إليهم عائدين.

وسمعت صيحات آمرة صادرة من مكان ما تهتف: «أغلقوا الصمامات» و«أخمدوا النيران»، واندفع الوقَّاد بوامب يعمل محمومًا والمياه تتدفق إلى الداخل من باب مستودع الفحم، وتصعد من خلال ألواح الأرضية. وفي خلال خمس دقائق، كانت المياه قد بلغت وسطه، محملة بالشحم والهباب اللذين علقا بها من الآلات. وتشبع الهواء بالبخار، ولم يستطع الوقَّاد بوامب قط أن يرى ذلك الذي أصدر هذا الأمر المريح:

– هذا يكفي.

لقد بلغ من شعوره بالارتياح، أنه لم يهتم بمصدر الأمر وهو يهرع صاعدًا السلم للمرة الأخيرة.

وإلى الخلف قليلًا، كان مساعد المهندس الثاني هاسكت قد وصل إلى الجانب الجاف من الباب المانع للماء، فراح يبذل جهده ليعيد الأمور في غرفة المراجل رقم «٥» إلى حالتها الطبيعية. وكانت المياه لا تزال تندفع من الفجوة التي كان اتساعها قدمين بالقرب من الباب المغلق. ولكن المهندسين المساعدين هارفي وويلسون كانا قد أدارا مضخة شافطة، وكانت المضخة أسرع في نزح الماء من تدفقه.

ووقف الوقَّادون لحظات حائرين يراقبون المهندسين وهما يديران المضخات، ثم صلصل التليفون يدعوهم للصعود إلى سطح الباخرة. فمضوا الواحد إثر الآخر يصعدون سلم النجاة، ولكن مركز المراقبة أمرهم بالهبوط مرة أخرى، وهكذا ظلوا فترة وهم يصعدون إلى السطح «أ» ثم يهبطون، حائرين إزاء تناقض الأوامر المركزية في باخرة كبيرة، لا يدرون ماذا عساهم يفعلون بعد ذلك.

وفي خلال هذا كانت الأنوار قد انطفأت في غرفة المراجل رقم «٥»، وهنا أمر المهندس هارفي الوقَّاد باريت الذي كان قد بقي متخلفًا للذهاب إلى المؤخرة حيث غرفة المحركات لإحضار بعض الفوانيس. ولما كانت الأبواب المؤدية من قسم إلى آخر كلها مغلقة، فقد اضطر باريت للصعود إلى أعلى سلم النجاة، ثم عبر الباخرة وهبط من الناحية الأخرى. وعندما عاد، كان المهندسان أثناء غيبته، قد أعادا الأنوار إلى ما كانت عليه، ولم يعد ثمة حاجة إلى فوانيس.

وطلب هارفي بعد ذلك من جاريت أن يغلق ضواغط المراجل التي كانت مفتوحة إلى أقصاها أثناء انطلاق الباخرة بكل سرعتها، والتي أمست الآن شديدة الضغط على صمامات الأمن، بحيث أخذت تحطم الموصلات. واندفع باريت عائدًا عبر السلم وجمع خمسة عشر أو عشرين من الوقَّادين الحائرين على السطح «أ»، ثم هبطوا جميعًا إلى غرفة المراجل وبدأوا يخمدون النيران. وكانت عملية تقصم الظهور، إذ كانوا يكافحون للسيطرة على المراجل، وإغلاق الصمامات المانعة لتصاعد البخار، ولا يزال الوقَّاد كيميش يتذكر هذه العملية بقوة ويقول:

«لقد عانينا في الحقيقة فترة قاسية جدًّا، ونحن نحاول إخماد نيران المراجل».

واندفعت سحائب من البخار من غرفة المراجل عند خروج الوقَّادين منها والعرق يتصبب عليهم بغزارة. ولكن النظام لم يلبث أن استتب تدريجيًّا. فراحت الأنوار تسطع متألقة، وبدا كل شيء في موضعه. وكانت ثمة موجة من الثقة المقرونة بالتفاؤل قد انتشرت عندما شاع أن رجال النَّوبة التي تبدأ من منتصف الليل إلى الرابعة صباحًا يسحبون أسرَّتهم إلى سطح النزهة؛ لأن غرفاتهم غرقت. وتوقف رجال نَوبة الثامنة إلى منتصف الليل عن أعمالهم برهة، وانفجروا ضاحكين، وقد ظنوا هذه الإشاعة دعابة كبرى.

وهناك في مركز المراقبة حاول الكابتن سميث أن يضع في ذهنه صورة كاملة للموقف. ولم يكن ثمة من هو أصلح منه لهذا العمل؛ ذلك أنه كان أكثر من مجرد ربَّان أول للخط الملاحي بعد أن خدم شركة «هوايت ستار» ثمانية وثلاثين عامًا، وكان رجلًا وقورًا ملتحيًا، وموضع التقديس من البحّارة والركّاب على السواء. كانوا يحبون كل شيء عنه -لا سيما قدرته العجيبة على الجمع بين الحزم والرأفة- وكانت هذه الطبيعة أوضح ما تكون في مسألة شغفه بتدخين السيجار. وتقول ابنته في هذا الشأن:

«إن السيجار كان متعته. وكان يسمح للزائر بالبقاء في غرفته بشرط ألا يتحرك من مكانه، وذلك حتى لا تختلج قط سحابة الدخان الأزرق المنعقدة فوق رأسه».

وكان الكابتن سميث قائدًا بالموهبة، وعندما ذهب إلى غرفة عجلة التوجيه عقب الاصطدام، لم يتوقف إلا فترة قصيرة، ذهب بعدها إلى الجانب الأيمن من مركز المراقبة؛ ليرى هل الجبل الثلجي العائم لا يزال على مرمى البصر أم لا. وسار وراءه الضابط الأول مردوخ، والضابط الرابع بوكسهول. وهناك وقف الضباط الثلاثة يحملقون في الظلام. وخطر لبوكسهول أنه رأى جرمًا أسود كبيرًا على مسافة بعيدة إلى الوراء، ولكنه لم يكن متأكدًا.

ومنذ ذلك الحين، والعمل يجري بهمة ونشاط؛ إذ طلب الكابتن سميث من الضابط بوكسهول أن يجري فحصًا دقيقًا للباخرة، وعاد بعد لحظات قليلة قائلًا إنه لم يرَ أي أثر للعطب على طول المسافة التي قطعها إلى مؤخرة الباخرة. وكان هذا آخر نبأ طيب يسمعه الكابتن سميث في تلك الليلة:

وقال الكابتن سميث وهو لا يزال قلقًا، للضابط بوكسهول:

- انزل واستدع النجّار ليفحص الباخرة.

ولم يكد بوكسهول يهبط من سلم مركز المراقبة، حتى اصطدم بالنجّار ج. هتشنسون مندفعًا إلى أعلى. وفيما هو يمر بجانب الضابط، قال لاهثًا:

- إن الماء يتدفق إلى الداخل بسرعة.

وفي أعقاب النجّار، أقبل موظف البريد أياجو سميث، وكان هو أيضًا مندفعًا نحو سلم مركز المراقبة قائلًا في طريقه:

- إن جناح البريد يمتلئ بسرعة.

وكان التالي في الوصول بروس اسماي. وكان قد ارتدى سترة على منامته، واكتفى في قدميه بالشبشب، وصعد إلى مركز المراقبة ليرى هل هناك من الأحداث ما ينبغي إبلاغه لمدير الخط الملاحي، وساق له الكابتن سميث نبأ جبل الثلج العائم، فسأله اسماي قائلًا:

- هل تعتقد أن الباخرة أصيبت بعطب خطير؟

وبعد برهة، أجاب الكابتن قائلًا ببطء:

- أعتقد أن الأمر كذلك.

وكان عليهم أن يتبينوا الأمر بسرعة، فأرسلوا يستدعون توماس أندروز المدير الإداري لشركة هارلاندو وولف لصناعة السفن. وكان أندروز -باعتباره أحد بناة التيتانيك- قد قرر مصاحبتها في رحلتها الأولى ليسوي أي أخطاء قد تتبين فيها. ومن ثم كان هو الرجل الوحيد الذي في مقدوره أن يحدد حقيقة الموقف.

وكان في الواقع شخصية ممتازة، فهو بصفته أحد بناة التيتانيك كان يعرف بطبيعة الحال كل صغيرة وكبيرة فيها. ولكن كان هناك ما هو أكثر من هذا في نظره. كان لا يرى في الباخرة شيئًا أكبر أو أصغر من أن يهتم به، بل لاح أن في مقدوره أن يعرف مقدمًا كيف يمكنها أن تتجاوب في أي ظروف. وعلى الجملة كان يفهم البواخر كما يفهم بعض الناس الخيول.

وبنفس هذه المقدرة كان يفهم أيضًا الأشخاص الذين يقودون

هذه البواخر، وكانوا جميعًا يأتون إلى أندروز بمشكلاتهم. ففي ليلة قد يكون صاحب المشكلة الضابط الأول مردوخ جاء يشكو؛ لأن كبير الضباط وايلد أسرف في نقض تعليماته. وفي الليلة التالية قد يكون الأمر خاصًّا باثنين متنازعين من النُدُل، ذهبا إليه باعتباره محكمة عليا. وفي هذه الليلة بالذات كان كبير الخبَّازين تشارلز جوجين قد صنع له رغيفًا خاصًّا من الخبز.

وكانت رحلة أندروز على الباخرة التيتانيك حتى تلك اللحظة، تمامًا كما توقع أن تكون. فهو طيلة اليوم يجوس خلال الباخرة مدونًا الشيء الكثير جدًّا من الملاحظات. حتى إذا كانت الساعة السادسة وخمسًا وأربعين دقيقة مساءً ارتدى ملابسه لتناول العشاء، وكان يتناوله عادة مع العجوز الدكتور أولولين، جرّاح السفينة، الذي كان لطيفًا أيضًا مع المضيفات بالباخرة. ثم يقفل عائدًا إلى مقصورته الفاخرة رقم (أ) ٣٦ المزدحمة بالخرائط والتصميمات والمشروعات. وهناك يجمع ملاحظته، ويصل إلى ما ينبغي من توصيات.

وفي هذه الليلة كانت المشاكل التي واجهها من النوع النموذجي المألوف. فكان منها مشكلة مع المطبخ ووجوب تقديم الطعام ساخنًا.. ومشكلة ناشئة من أن ألوان الخطوط المرسومة بالحصباء والتي تحدد معالم سطح النزهة الخاص أشد قتامة مما ينبغي.. وأن هناك من اللوالب أكثر من اللازم في جميع مشاجب القبعات بالمقاصير الفاخرة. وكان هناك أيضًا مشروع لتحويل جانب من غرفة الكتابة إلى مقصورتين فاخرتين؛ ذلك أن غرفة الكتابة كان المقصود بها في أول الأمر أن تكون

استراحة للسيدات بعد العشاء، ولكنا الآن في القرن العشرين الذي لا تحب نساؤه الاستراحة بعد العشاء. ومن ثم تبين أن الغرفة أصغر من أن تصلح.

ولشدة استغراق أندروز في فحص ما لديه من رسومات وتصميمات، لم يحس تقريبًا بالهزة، إلا عندما أرسل إليه الكابتن سميث يطلبه في مركز المراقبة.

وفي خلال لحظات قليلة كان أندروز والكابتن يقومان بجولتهما الخاصة عن طريق سلم البحارة، حتى لا يثيرا إلا القليل من الانتباه، وسارا في تيه من الممرات والدهاليز حتى نزلا إلى القاع، ثم عرجا على مكتب البريد الزاخر بالمياه، وعبرا ملعب الاسكواش حيث كانت المياه تلعق خط الخطأ على اللوحة الخلفية.

وفي أثناء عودتهما إلى مركز المراقبة، مرا في طريقهما ببهو السطح «أ»، حيث كان الركَّاب لا يزالون متجمعين في جوانبه، ورغم أن كل واحد منهم أخذ يفحص بنظراته وجهي الرجلين ليستدل على ما ينم من خير أو شر، فإن أحدًا لم يستطع أن يصل إلى شيء.

ولكن بعضًا من «طاقم» الباخرة لم يكونوا على هذا النحو من الحذر، فعندما طلبت المسز هنرى سليبر هاربر من الدكتور أولولين أن يقنع زوجها المريض بالبقاء في الفراش، رد الطبيب العجوز قائلًا:

– إنهم يقولون إن الحقائب تطفو في المستودعات الغارقة بالماء، ولهذا يحسن أن نصعد إلى سطح زوارق النجاة.

وفي المقصورة «٩١» كانت المثقفة الشابة إليزابيث شوتز جالسة مع تلميذتها مرجريت جراهام البالغة من العمر تسعة عشر عامًا، فلما رأت الآنسة شوتز ضابطًا يمر بباب المقصورة، سألته عما إذا كان ثمة خطر منتظر، فأجاب الضابط باسمًا بالنفي، ولكنها سمعته يقول بعد أن ابتعد قليلًا:

«يمكننا أن نقاوم المياه لمدة قصيرة فقط».

ونظرت الآنسة شوتز إلى مرجريت التي كانت تقضم، في قلق، شطيرة من لحم الدجاج، ولكن يدها كانت ترتجف بشدة، بحيث كانت شرائح اللحم تتساقط من الشطيرة وهي لا تدري.

ولم يكن ثمة من يلقي أي أسئلة في ممر التشغيل على السطح (أ)، وكان ذلك الممر العريض أسرع طريق من أحد طرفي الباخرة إلى الطرف الآخر. وكان الضبّاط يسمونه «بارك لين» والبحّارة يسمونه طريق «سكوتلا ندرود»، إلا أنه الآن كان محتشدًا بالمتزاحمين والمتدافعين، وكان بعضهم من الوقَّادين الذين أُرغموا على الخروج من غرفة المراجل رقم «٦»، ولكن معظمهم كانوا من ركاب الدرجات الدنيا الذين راحوا يشقون طريقهم إلى أعلى، حاملين صناديقهم وحقائبهم، بل وخزانات سفرهم الكبيرة.

ولم يكن هؤلاء بحاجة لمن يقول لهم إن هناك خطرًا ما. فالذين كانوا يقيمون في مقاصير تحتية بعيدة في الجانب الأيمن للباخرة شعروا بالهزة، لا على أنها «ارتطام خفيف مصحوب بصري»، وإنما على أنها «دويٌّ هائل» قذف بهم من فوق أسرَّتهم.

وهرعت المسز سيليني بزبك -وكانت عروسًا في يومها الخمسين بعد الزفاف- إلى الدهليز الخارجي مع زوجها، وقد رأيا أنه أسهل عليهما النظر إلى أسفل لرؤية ما حدث بدلًا من السير الطويل إلى السطح «ف». ومن ثم سارا، بملابس النوم، نحو الباب المؤدي إلى غرف المراجل، وشرعا يطلان من خلاله، حيث رأيا المهندسين وهما يكافحان لإصلاح العطب وإدارة المضخات النازحة، ولم يحتاجا إلى إلقاء نظرة أخرى، وإنما اندفعا عائدين إلى مقصورتهما لارتداء ملابسهما الخارجية.

وهناك بعيدًا إلى أعلى، على السطح «أ»، لاحظ لورنس بيزلي -أحد ركاب الدرجة الثانية- شيئًا غريبًا. وفيما هو يهمُّ بالهبوط ليطمئن على مقصورته، أحس عن يقين بأن السلالم ليست كما ينبغي أن تكون. فرغم أنها بدت مستوية السطح، فإنه شعر بقدميه لا تقعان حيث ينبغي أن تقعا، وإنما كانتا تتعثران نحو الأمام بسرعة وكأنما درجات السلم كانت مائلة نحو جانب السفينة.

ولاحظ الميجور بوتشين هذه الظاهرة أيضًا. فبينما كان واقفًا مع المستر هايز عند الطرف الأمامي للسطح «أ»، أخذ يطل على ركاب الدرجات الدنيا وهم يلعبون لعبة «كرة القدم» بقطع الجليد، ثم إذا به يشعر بميل في السطح، فهتف قائلًا لهايز:

- لماذا تميل الباخرة؟ لا ينبغي أن يحدث هذا. فإن المياه ساكنة تمامًا، كما أن الباخرة متوقفة عن السير.

فرد المستر هايز قائلًا بلا اهتمام:

- أوه! لست أدري.. ولكن هذه الباخرة غير قابلة للغرق.

ولاحظ آخرون هذا الميل إلى أسفل، ولكن بدا لهم أنه ليس من اللياقة أن يتحدثوا عنه. وفي غرفة المراجل رقم «٥»، قرر الوقَّاد باريت ألا يقول شيئًا للمهندسين العاملين على إدارة المضخات. وهناك في أعلى، في بهو السطح «أ»، خامر كل من الكولونيل جراسي وكلينسن سميث مثل هذا الإحساس. وسجل جهاز الرادار على مركز المراقبة أن الباخرة تيتانيك هابطة قليلًا من الأمام، ومائلة نحو خمس درجات على جانبها الأيمن.

وعلى مقربة من هذا المركز كان الكابتن سميث وأندروز يقومان بعمليات إحصائية سريعة: المياه في مقدمة السفينة.. في المستودع رقم «أ» وفي المستودع رقم «٢».. وفي غرفة البريد.. وفي غرفة المراجل رقم «٦» وفي غرفة المراجل رقم «٥».. المياه فوق مستوى القاع بأربع عشرة قدمًا في الدقائق العشر الأولى، وقد انتشرت فوق هذا المستوى في كل مكان، فيما عدا غرفة المراجل رقم «٥». وبتجميع هذه الحقائق تبين أن طول الخرق يبلغ ثلاثمائة قدم مع امتلاء الأقسام الخمسة الأولى المانعة للماء، امتلاء لا يُرجى علاجه.

فما معنى هذا؟ لقد راح أندروز يشرح الأمر بهدوء: لقد كان في مقدور التيتانيك أن تطفو رغم امتلاء أي قسمين من أقسامها المانعة للماء الستة عشر بالماء. ويمكنها أن تطفو رغم امتلاء أي ثلاثة من أقسامها الخمسة الأولى المانعة للماء، بالماء، بل إنها تستطيع أن تطفو حتى لو امتلأت بالماء أقسامها الأربعة الأولى المانعة للماء. ولكن أيًّا كانت الظروف والأحوال، فإنها لا تستطيع أن تطفو إذا امتلأت بالماء

أقسامها الخمسة الأولى المانعة للماء كلها.

وكان الحاجز الواقي بين القسمين الخامس والسادس يرتفع حتى السطح «أ»، ومعنى هذا أنه إذا امتلأت بالماء هذه الأقسام الخمسة الأولى، فإن السفينة تميل على جانبها ميلًا شديدًا، يجعل المياه تتدفق من فوق الحاجز الواقي إلى القسم المانع للمياه رقم «٦». فإذا امتلأ هذا، تدفقت المياه منه إلى القسم السابع، وهكذا. أي كان الأمر عملية حسابية مؤكدة، بسيطة وواضحة، ولا سبيل إلى النفاذ منها.

ولكن هذه الحقيقة كانت -في الوقت نفسه- صدمة. ذلك أن التيتانيك رغم كل شيء كانت تعتبر غير قابلة للغرق. ولم يرد هذا الرأي في البحوث القصيرة الخاصة بالسفر فقط، بل إن المجلة العلمية الرفيعة المستوى المسماة «بناة السفن» وصفت نظام الأقسام المانعة للماء في التيتانيك في عدد خاص صدر عام ١٩١١ قائلة: «يستطيع الكابتن بحركة بسيطة من زر كهربي أن يغلق فورًا جميع هذه الأقسام ويجعل الباخرة غير قابلة للغرق عمليًّا».

وها هي ذي جميع الأزرار الكهربية قد تحركت، ومع ذلك يقول أندروز: إن هذا لا يجدي.

وكان من العسير مواجهة هذه الحقيقة، لا سيما بالنسبة للكابتن سميث، لقد كان ينوي -بعد أن تجاوز التاسعة والخمسين من عمره- أن يتقاعد بعد هذه الرحلة، بل كاد يتقاعد فعلًا قبلها، لولا أنه بحكم التقاليد يقود كل باخرة جديدة للشركة «هوايت ستار» في أول رحلة لها. وقبل ذلك بستة أعوام فقط قال حين عاد بالباخرة الجديدة تمامًا «الأدريانيك»:

- إنني لا أستطيع أن أتصور أي حالة يمكن أن تؤدي إلى غرق إحدى البواخر. إنني لا أستطيع أن أتصور أي كارثة يمكن أن تقع لهذه الباخرة. إن صناعة السفن الحديثة قد انتصرت على مثل هذه الأحداث.

وها هو ذا الآن يقف على مركز المراقبة في باخرة أكبر مرتين، وآمن مرتين من «الأدريانيك»، ومع ذلك فإن أحد بناتها يقول له إنها لن تستطيع أن تطفو.

وفي الدقيقة الخامسة بعد منتصف الليل -أي بعد خمس وعشرين دقيقة من ذلك الاصطدام الذي أحدث هذه الهزة ذات الصرير-، أمر الكابتن سميث كبير الضباط وايلد بإعداد زوارق النجاة، والضابط الأول مردوخ بالسيطرة على الركَّاب، والضابط السادس مودي بإخراج قائمة سجلات الباخرة.. والضابط الرابع بوكسهول بإيقاظ الضابط الثاني لايتوللر والضابط الثالث بيتمان. ثم سار الكابتن سميث نفسه نحو عشرين ياردة على سطح في الجانب الأيسر من الباخرة نحو غرفة اللاسلكي.

وفي داخل هذه الغرفة كان عامل اللاسلكي الأول جون جورج فيليبس وعامل اللاسلكي الثاني هارولد برايد لا يبدو عليهما ما ينم عن إدراكهما لشيء مما حدث، وكانا قد أمضيا يومًا مرهقًا. ففي عام ١٩١٢ كانت الأجهزة اللاسلكية اختراعًا جديدًا غير محكم، وكان مدى إرساله قصيرًا، كما كان عمّاله غير مدربين، والتقاط الإشارات عسيرًا بعض الشيء. ومن ثم كان هناك كثير من التأخير، وكثير من التكرار وكثير من الاتصالات الخاصة التافهة، وكان الركَّاب يتغنون بهذه المعجزة الجديدة، ولا يستطيعون أن يقاوموا الرغبة في إرسال الرسائل إلى

الأصدقاء في الوطن أو في البواخر الأخرى.

وكانت الرسائل طيلة يوم الأحد ذاك تتراكم بسرعة، وكان يكفي لإرهاق أعصاب أي إنسان أن يعمل أربع عشرة ساعة في اليوم مقابل ثلاثين دولارًا في الشهر، ولم يكن فيليبس استثناء من هذا. وجاء المساء دون أن تقل أكوام الرسائل، ودون أن يقل تدخل الركَّاب في شؤون العمل. وقبل ساعة فقط -أي عندما تم الاتصال اللاسلكي بطريقة جيدة مع راس ريس- أرسلت الباخرة كاليفورنيان إشارة سريعة عن وجود جبال ثلج عائمة بالمنطقة. وبسبب قرب المسافة كادت دقات الإرسال تخرق أذن عامل اللاسلكي، فلا عجب إذا رد بعنف قائلًا: «اسكت. اسكت. إنني على اتصال براس ريس».

وقد بلغ به الإرهاق في ذلك اليوم حدًّا جعل عامل اللاسلكي الثاني برايد يقرر أن يريح فيليبس في منتصف الليل، وذلك رغم أن نوبته لم تكن لتبدأ قبل الثانية صباحًا. واستيقظ في نحو الحادية عشرة وخمس وخمسين دقيقة وعبر الستائر الخضراء التي تفصل مثابة النوم عن إدارة العمل، وسأل فيليبس عن الأحوال، فرد هذا قائلًا إنه فرغ من فوره من الاتصال بخط راس ريس، وعاد برايد إلى مخدعه وخلع منامته. وهتف فيليبس عليه قائلًا: إن السفينة عطبت على نحو ما، وإنه تقررت العودة إلى بلفاست.

وفي خلال دقيقتين كان برايد قد فرغ من ارتداء ملابسه ووضع السماعات على أذنيه، وما كاد فيليبس يدخل المخدع حتى ظهر الكابتن سميث قائلًا:

– لقد اصطدمنا بجبل ثلجي عائم. وأنا أقوم الآن بجولة تفتيشية للفحص ولمعرفة ماذا حدث لنا. ويحسن أن نستعد لإرسال إشارة في طلب العون. ولكن لا ترسلها إلا حين أخبرك.

ثم انصرف، ولم يلبث أن عاد مرة أخرى بعد لحظات. وفي هذه اكتفى بأن أطل برأسه من الباب، وقال:

– أرسل الإشارة.

وكان فيليبس قد عاد الآن إلى مكتب العمل، فسأل الكابتن، هل يرسل إشارة الاستغاثة المعروفة، فرد الكابتن قائلًا:

– نعم، فورًا.

ثم سلم فيليبس ورقة مسجلة فيها تحديد مكان التيتانيك، وتناول فيليبس السماعات من برايد، وبدأ في الساعة الثانية عشرة والربع بعد منتصف الليل في إرسال إشارة الاستغاثة التقليدية «س ك د» المعروفة في ذلك الحين، وأردفها بالأحرف «م. ج واي» وهي التي ترمز للباخرة تيتانيك، وظل يكرر هاتين الإشارتين المرة بعد الأخرى ست مرات، وراحت الأحرف الأثيرية تنطلق في ليل المحيط الأطلسي الأزرق البارد.

وعلى مسافة عشرة أميال، كان الضابط الثالث جروفز بالباخرة كاليفورنيان جالسًا على مقعد عامل اللاسلكي سيريل ف. إيفانز. وكان جروفز ضابطًا شابًّا نشطًا، دائم الاهتمام بما يجري حوله في العالم، وكان بعد فراغه من العمل يحب أن يجلس مع إيفانز في غرفة اللاسلكي

ويلتقط آخر الأنباء، بل كان أحيانًا يجرب استعمال الأجهزة اللاسلكية.

ولم يكن ثمة بأس في هذا بالنسبة لإيفانز؛ لأنه لم يكن هناك ضباط بحريون كثيرون في بواخر الدرجة الثالثة الملاحية يهتمون بالعالم الخارجي، فما بالك بالعالم اللاسلكي. والواقع أنه لم يكن على الباخرة كاليفورنيان ضابط آخر يهتم باللاسلكي، ومن ثم اعتاد إيفانز أن يرحب بزيارات الضابط جروفز.

ولكن الأمر لم يكن هكذا الليلة؛ فقد أمضى إيفانز يومًا في العمل المرهق، ولم يكن ثمة من يحل محله. وعدا هذا فقد عُومل بخشونة في نحو الساعة الحادية عشرة مساء عندما حاول أن يبلغ التيتانيك أن الكتل الجليدية عاقت سير الكاليفورنيان. ومن ثم بادر في هذه الليلة إلى إغلاق أجهزته في الحادية عشرة والنصف، وهو الموعد المحدد لانتهائه من العمل. ولأنه كان مرهقًا جدًّا، فإنه لم يشعر بالرغبة في التجاوب مع أحد. ولكن الضابط جروفز تجرأ وقال له:

– أي بواخر في محيط اتصالك يا إيفانز؟

فقال إيفانز وهو لا يكاد يهتم برفع عينيه عن المجلة التي بين يديه:

– الباخرة تيتانيك فقط.

ولم يكن هذا النبأ الجديد على جروفز، لقد تذكر هذا عندما حدث الكابتن لورد عن الباخرة العجيبة التي توقفت عن الإبحار بالقرب منهم، وقد قال له الكابتن عندئذ:

– إنها الباخرة تيتانيك في رحلتها الأولى.

وفيما هو يبحث عن شيء يتسلى به، تناول جروفز السماعات ووضعها على أذنيه، وشعر أنه في الطريق لأن يتعلم فن الإرسال اللاسلكي إذا كانت الرسالة التي سيستقبلها بسيطة وواضحة، ولكنه لم يكن يعرف الشيء الكثير عن الأجهزة، وكان لأجهزة الباخرة كاليفورنيان كشاف مغناطيسي يعمل على نمط الساعة، ولم يملأه جروفز كما يملأ الإنسان الساعة، ومن ثم لم يسمع شيئًا.

ولما يئس، أعاد السماعات إلى المائدة، وهبط إلى داخل الباخرة التماسًا لتسلية أفضل. وكان ذلك بعد الساعة الثانية عشرة والربع بقليل.

❊ ❊ ❊

الفصل الثالث

«باخرة لا يمكن أن تغرق!»

فتح باب جناح الطهاة بقوة، حتى اصطدم بسرير الخبَّاز المساعد تشارلز بيرجز، فاستيقظ مجفلًا وحملق في وجه النادل الثاني جورج وود، الذي وقف بالمدخل. وكان وود، المرح البشوش عادة، يبدو جادًّا وهو يهتف قائلًا:

– استيقظوا يا أولاد، فإننا نغرق.

ومضى وود بعد ذلك إلى جناح النوم حيث كان نادل الصالون ويليام موس يحاول أن يثير اهتمام من فيه. وكان معظمهم يضحكون ويتفكهون عندما اقتحم وود عليهم المكان هاتفًا:

– ليستعد كل واحد منكم، وعليه ألا يبقى هنا لحظة.

وسار مع موس إلى جناح النُّدُل، الواقع أمام جناح الخدم مباشرة، وهناك كان نادل قاعة التدخين قد تلقى بعض الأنباء المزعجة من النجّار هتشنسون. وقد أضاف موس إلى هذه الأنباء قوله:

– إن غرفة البريد اللعينة غارقة بالمياه، وإن الأمر جد خطير يا جيم.

وتلاشت في الحال عبارات التندر التي استقبلت الأنباء المزعجة الأولى، وتواثب البحارة من أسرتهم وهم لا يزالون بين النوم واليقظة، وارتدى الخبّاز بيرجس بنطلونه وقميصه، ونسي طوق النجاة، وارتدى وولتر بلفورد سترة العمل في المخبز البيضاء، والبنطلون ولم ينتظر حتى يرتدي ملابسه الداخلية. واستغرق النادل راي فترة أطول، إنه لم يكن منزعجًا –ومع ذلك فقد وجد نفسه يرتدي ملابس البر، ولما فرغ النادل ويتر من ارتداء ملابسه، فتح خزانة السفر وملأ جيوبه بالسجائر، ثم التقط كولة طفله الأول التي كان يحتفظ بها معه دائمًا، ثم انضم إلى حشد الرجال الذين كانوا يتدافعون في ممر العمل، ومنه صعد إلى مراكز قوارب النجاة.

وهناك في أقصى الجهة الأمامية، بعيدًا عن هذه الضجة، عاد المنسق صمويل همنج إلى فراشه مطمئنًا إلى أن ذلك الفحيح الذي سمعه عند حيزوم الباخرة لا يعني أمرًا خطيرًا، وفيما كان على وشك الاستغراق في النوم، إذ بأحد نجّاري الباخرة يطل برأسه ويقول له:

– لو كنت في موضعك لأسرعت بالخروج؛ لأن المياه تتدفق إلى الباخرة بسرعة رهيبة، حتى لقد غرقت ساحة الاسكواش راكيت.

وبعد لحظة أقبل رئيس النوتية قائلًا:

– هلموا اخرجوا أيها الزملاء. لم يعد أماكم في الحياة غير نصف ساعة، هكذا يقول المستر أندروز. ولكن احتفظوا بهذا النبأ لأنفسكم، ولا تذكروه لأحد.

والواقع أنه لم يكن ثمة أحد في قاعة التدخين بالدرجة الأولى قد عرف الحقيقة بعد. فكانت لعبة البريدج تجري بينهم على أشدها. وكان الملازم ستيفانسون لا يزال يرتشف كأس الليمون الساخن. وفيما كان اللاعبون يبدأون دورًا آخر، إذ بضابط الباخرة يظهر فجأة بالباب قائلًا:

– ليرتدِ الرجال أطواق النجاة؛ لأننا سنواجه خطرًا مرتقبًا.

وكانت المسز واشنطن دودج راقدة في سريرها بمقصورتها الفاخرة على السطح «أ» منتظرة الدكتور دودج –الخبير المثمن من سان فرانسيسكو– ليعود إليها ببعض الأنباء. وفتح الباب، وأقبل زوجها بهدوء وقال:

– روث، إن الحادث من النوع الخطير، ويحسن أن تصعدي إلى السطح.

وتحت هذا السطح بسطحين. كانت المسز لوسيان سميث قد عادت إلى فراشها لتنام بعد أن ملت انتظار عودة زوجها من تحرياته. وفجأة أضيئت الأنوار، ثم رأت زوجها واقفًا بجوارها يبتسم لها ثم يقول متسهلًا:

– إننا في المنطقة الشمالية، وقد اصطدمنا بجبل ثلجي عائم، ولكن الأمر ليس خطيرًا، وربما نتأخر يومًا أو نحوه في الوصول إلى نيويورك. ولكن الكابتن أمر –بحكم الرسميات– أن تصعد جميع السيدات إلى السطح.

وهكذا سارت الأمور، لا أجراس إنذار، ولا صفارات خطر،

ولا موجة عامة من الفزع.. وإنما راحت كلمات التحذير تنتشر على نحو ما في أنحاء التيتانيك.

وكان الأمر محيرًا جدًّا في نظر الصبي مارشال درو البالغ من العمر ثمانية أعوام؛ فعندما جاءت إليه عمته المسز جيمس درو لتوقظه وتقول له إن عليه أن يمضي معها إلى السطح؛ احتد قائلًا، والنوم يداعبه، إنه لا يريد أن ينهض. ولكن المسز درو لم تحفل باحتجاجاته.

ولم يكن الأمر أقل إثارة للحيرة في نظر الميجور آرثر بوتشين؛ فبرغم رحلته التي قام بها للفرجة على كتل الجليد التي سقطت على الباخرة، فقد سمع النبأ المزعج وهو على درجات السلم الكبير، فلم يكد يصدقه، وأخيرًا، وبعد أن ذهل تمامًا بالنبأ، اندفع نحو مقصورته متعثرًا ليستبدل بملابس السهرة التي كان يرتديها، أخرى أجلب للدفء.

وكان الكثيرون قد سمعوا أول عبارة عن النبأ المزعج من النُدُل. إذ أيقظ جون هاردي رئيس النُدُل بالدرجة الثانية الركَّاب في عشرين إلى أربع وعشرين مقصورة، وكان في كل مرة يفتح الباب على مصراعيه ويصيح قائلًا:

- إلى السطح جميعًا ومعكم أطواق النجاة.. بسرعة.

ولكن الأمر في الدرجة الأولى كان ألطف وأرق في هذه الناحية؛ إذ اكتفى النُدُل بالطرق المهذب على الأبواب. وقد جاءت أيام كان لكل ثماني أو تسع مقصورات نادل خاص يعامل ركابها بحنان الأم الرؤوم.

وكان النادل ألفريد كراوفورد نموذجيًّا في هذا الشأن. وكان قد

أمضى ٣١ عامًا يسوس الركَّاب المتعبين، وقد عرف الآن كيف يغري الكهل المستر ألبرت ستيوارت بارتداء سترة النجاة، ثم انحنى وربط حذاء السيد الكهل.

وفي المقصورة رقم ٨٩ ساعد النادل أندرو كاننجهام ويليام ت. ستيد على ارتداء طوق النجاة. هذا بينما كان المحرر الكبير يحتج قائلًا: إن الأمر كله لغو وهراء. وفي المقصورة رقم ٨٤ أخذ النادل هنري صمويل إيتشر يعمل كترزي دقيق ليساعد بنيامين جاجنايم على إحكام طوق النجاة حول عنقه.

وكان جاجنايم -ملك استخراج وصهر الحديد- يقول:

- إن هذا الطوق مؤلم.

ونزع إيتشر الطوق عنه تمامًا، ثم قام ببعض التعديلات فيه، ثم أعاده إليه. وأراد جاجنايم بعد ذلك أن يمضي إلى السطح كما هو، ولكن إيتشر عارض بإصرار قائلًا إن الجو شديد البرودة. وفي النهاية خضع جاجنايم، فألبسه إيتشر صدارة صوفية، ثم أرسله كامل الإعداد إلى السطح.

بل إن بعض الركَّاب كانوا أصعب حالًا منه، فقد وجد إيتشر باب المقصورة رقم ٧٨ مغلقًا من الداخل بالمفتاح. فلما طرق عليه بكلتا يديه، سمع من الداخل من يسأل في ارتياب:

- ما هذا؟

ثم أردفت سيدة قائلة:

- أخبرنا ماذا حدث؟

فأوضح إيتشر لها الأمر، ثم حاول مرة أخرى أن يجعلهما يفتحان الباب، ولكنهما لم يستجيبا إليه. وبعد لحظات من التوسل والرجاء، مضى أخيرًا إلى المقصورة التالية.

وفي جانب آخر من الباخرة، أثار باب مغلق مشكلة من نوع مختلف، ذلك أنه كان «مزنوقًا»، واضطر بعض الركَّاب إلى تحطيمه لإنقاذ ساكن المقصورة، وفي تلك اللحظة وصل النادل وهدد الجميع باحتمال القبض عليهم بتهمة تخريب ممتلكات الشركة، عند وصول التيتانيك إلى نيويورك.

وفي الساعة الثانية عشرة والربع لم يكن في وسع أحد أن يعرف على وجه التحديد ما إذا كان الأمر يدعو للضحك أم للجد، وهل ينبغي تحطيم باب من الأبواب ويغدو المخرب بطلًا، أم يحطمه ويتعرض للقبض عليه! وبدا أنه لم يكن ثمة اثنان متفقين على رأي واحد في هذا كله.

وأحست المسز ريرسون أنه ليس ثمة دقيقة يمكن إضاعتها، وكانت قد تخلت منذ مدة طويلة عن فكرة ترك زوجها ليستغرق في النوم، ومن ثم هرعت هنا وهناك لتبقي أسرتها في نطاق واحد -وكانوا ستة أفراد، عليها أن تعدهم جميعًا: زوجها وثلاثة أطفال والمربية والخادمة. وكان الأطفال شديدي البطء، وأخيرًا يئست من إعداد صغرى أطفالها، وألبستها معطفًا من الفراء فوق قميص نومها، وطلبت منها أن تخرج إلى السطح هكذا.

وفي الوقت نفسه بدا أن الوقت جد منفسح أمام المسز لوسيان سميث، فقد راحت في بطء وعناية بالغة ترتدي ملابسها استعدادًا لما قد يأتي به الليل –فارتدت ثوبًا من الصوف الثقيل، وحذاء بكعب عال، ومعطفين، وغطاء للرأس من الصوف المشغول. وطيلة هذه الفترة كان المستر سميث لا يكف الحديث عن الهبوط في نيويورك حيث يستقل القطار إلى الجنوب، دون أن يشير قط إلى جبل الثلج العائم. وفيما هما يهمان بالصعود إلى السطح، قررت المسز سميث أن تعود لتأتي بحليها. وهنا أعرب المستر سميث عن حقيقة إدراكه للخطر. إذ قال إنه لا ينبغي أن يشغل الإنسان نفسه في هذه الظروف «بالتفاهات»، ولكن المسز سميث ترضية لذاتها، أخذت خاتمين عزيزين عليها، وبعد أن أغلقت باب المقصورة بعناية وراءها، مضت مع زوجها نحو سطح قوارب الإنقاذ.

وكانت الأشياء التي أخذها الركَّاب معهم تكشف عن حقيقة مشاعرهم في تلك اللحظات. فمثلًا سلم أدولف ويكر زوجته كيسًا صغيرًا يحتوي على ساعتين من الذهب، وخاتمين من الماس، وقلادة من الياقوت الأزرق، ومائتين من الجنيهات السويدية. وحملت الآنسة أيديث راسل دمية موسيقية على شكل خنزير «كانت تعزف مقطوعة ما كسكس». وأخذ ستيوارت كولليت –وكان طالب علوم لاهوتية وهو شاب من ركاب الدرجة الثانية– معه الكتاب المقدس الذي وعد أخاه بحمله معه دائمًا حتى يلتقيا مرة أخرى. وملأ لورنس بيزلي جيوب سترته النورفولكية بالكتب التي كان يقرأ فيها وهو في الفراش. ودس

نورمان كامبل تشامبرز في جيبه مسدسًا وبوصلة. أما النادل جونسون الذي رأى أن الأمر أخطر كثيرًا من مجرد العودة إلى بلفاست؛ فقد دس أربع برتقالات تحت صديريته. ونسيت المسز ديكنسون بيشوب علبة فيها من الحلي ما قيمته أحد عشر ألف دولار، ثم أرسلت زوجها ليأتي إليها بموفتها[1].

ونظر الميجور آرثر بوتشين إلى علبة معدنية على المائدة بالمقصورة رقم ١٠٤، وكان بداخلها سندات قيمتها مائتا ألف دولار، وما قيمته مائة ألف دولار من الأسهم الممتازة. وراح يفكر في هذه الثروة طويلًا وهو يخلع ملابس السهرة، ويرتدي طاقمين من الملابس الداخلية الطويلة، وفوقهما ملابس خارجية ثقيلة.

وألقى بعد ذلك نظرة أخيرة على جوانب المقصورة الصغيرة، على السرير النحاسي، والشبكة الخضراء الممتدة على طول الجدار لوضع الأشياء الثمينة فيها أثناء الليل.. والحوض الرخامي.. والمقعد الوثير المضفور.. والأريكة المصنوعة من شعر الخيل.. والمروحة في السقف.. وأزرار الأجراس والتركيبات الكهربية التي كانت دائمًا تبدو في البواخر الكبيرة كأنما وضعت عفو الخاطر.

وانتهى أخيرًا إلى قرار، فخرج وأغلق الباب وراءه بعنف، تاركًا العلبة المعدنية على المائدة. وبعد لحظة عاد إلى المقصورة، وأخذ دبوسًا جالبًا للحظ وثلاث برتقالات. ولما غادر المقصورة لآخر مرة، كانت العلبة المعدنية لا تزال على المائدة.

---

(١) الموفة كلمة معربة عن كلمة **Muff**، وهي قطعة أسطوانية من الصوف لتدفئة اليدين.

وفي بهو السطح «س»، كان الصراف هربرت ماكلوري يطالب الجميع أن يتوقفوا عن الاحتشاد حوله. وفيما كانت الكونتيسة روزيس تمر أمامه قال لها:

– أسرعي يا سيدتي الصغيرة، فليس هناك وقت.. إنني سعيد لأنك لا تطالبيني بجواهرك كما تفعل بعض السيدات هنا.

وتدفق الركَّاب إلى الصالات، يدفعهم إليها البحارة في رفق وهوادة. وتبادل أحد النُدُل النظر مع الآنسة مرجريت فروليكر وهي تسير في الدهليز؛ ذلك لأنها كانت قبل أربعة أيام قد داعبته ساخرة من وضعه طوق النجاة في مقصورتها الفاخرة ما دام المفروض أن الباخرة غير قابلة للغرق. وقد أجابها ضاحكًا عندئذ بقوله إن الأمر مجرد رسميات.. وإنها لن تضطر أبدًا إلى استعماله. ولما تذكر هذا كله، ابتسم لها الآن وقال لها مطمئنًا:

– لا داعي للفزع. إن الأمر ليس خطيرًا.

فردت قائلة:

– إنني لست مفزعة، وإنما أعاني فقط من دوار البحر.

وراحوا يصعدون الدرجات متتابعين –وكانوا حشدًا خيم عليه الصمت وشيء من النظام المشوش، وكان جاك ثاير قد ارتدى تحت معطفه سترة وصديرية من القماش التويد المائل للاخضرار مع صديرية أخرى تحتها من القماش الموهير، ولم يرتدِ المستر روبرت دانييل المالي الفيلاديلفي غير منامته الصوفية. واتشحت المسز توريل

كافنديش بمطرف، مع معطف زوجها المستر توريل. وارتدت المسز جون ج. هوجبون معطفًا من الفراء فوق قميص نومها. ولم ترتدِ المسز آدا كلارك غير قميص نوم، أما المسز واشنطن دودج فلم تهتم بارتداء جواربها تحت حذائها ذي الرقبة والأزرار الذي كان يبدو مفتوحًا؛ لأنها لم تتوقف حتى تزرره. إلا أن المسز آستور بدت على جانب كبير من الأناقة وهي في ثوبها الرقيق الفاتن، وكذلك كانت المسز جيمس ج. براون –المليونيرة المرحة من مدينة ديفر– مهتمة بمظهرها الأنيق وهي ترتدي ثوبًا من قطعتين من المخمل الأسود المحلى بقلابات بيضاء وسوداء.

وكان لانتشار السيارات في أول عهدها يومذاك أثره في أزياء عدد كبير من السيدات؛ فمثلًا كانت المسز ج. أ. هنري تضع على وجهها نقابًا ينسدل من قبعتها المزينة بالأزهار، كما ارتدت مدام دي فيلليير سترة قيادة طويلة من الصوف فوق قميص نومها وشبشبها.

واكتفى الشاب ألفريد دراشتد –من كولونيا– بصديرية صوفية وبنطلون، تاركًا وراءه في المقصورة ملابس قيمتها ٢١٣٣ دولارًا، فضلًا عن مجموعة من العصي وقلم حبر كان يرى أنه من ضروريات الأناقة والأبهة.

وكان ركّاب الدرجة الثانية أقل اهتمامًا بأناقة مظهرهم، فرغم أن المستر والمسز ألبرت كالدويل –العائدين من سيام حيث كانا يدرسان بالكلية المسيحية في بانجوك– قد اشتريا ملابس جديدة تمامًا من لندن، فإنهما في هذه الليلة كانا يرتديان أقدم ملابس لديهما. أما طفلهما آلدن

فقد دثراه ببطانية، وارتدت الآنسة إليزابيث ناي ملابس بسيطة مكونة من سترة وجونلة وشبشب، ولم تحفل المسز شارلوت كوللبير بعقص شعرها، وإنما اكتفت بربطه من الخلف بشريط. أما ابنتها مارجوري ذات الثمانية أعوام فقد وضعت على كتفيها غطاء خفيفًا من الصوف، ولم يحفل المستر كوللبير كثيرًا بمسألة الملابس؛ لأنه كان يتوقع العودة بسرعة إلى مقصورته، بل إنه ترك ساعة جيبه على وسادة الفراش.

وفي الدرجة الثالثة كان الارتباك واضحًا بصفة خاصة؛ لأن شركة هوايت ستار الملاحية عنيت بوضع الرجال والنساء غير المتزوجين في طرفين متقابلين من الباخرة تيتانيك. ومن هنا أسرع كثير من الرجال المقيمين بالقرب من المقدمة نحو الفتيات والسيدات المقيمات بالقرب من المؤخرة.

وسمعت الغادة المدللة كاترين جبيلناي التي لم تبلغ بعد السادسة عشرة طرقًا على باب مقصورتها. وكان الطارق هو الشاب الذي لفت نظرها في وقت آخر من ذلك اليوم، عندما كان يعزف على إحدى آلات موسيقى القرب في سطح الباخرة. واستيقظت حنة جويلرم –وكانت فتاة فنلندية في الثامنة عشرة من عمرها، وفي طريقها إلى إحدى المناطق الشمالية الغربية من المحيط الهادي عندما أقبل شاب من الريف الدانمركي ليوقظ زميلتها في المقصورة. وقد أعطى حنة أيضًا طوق نجاة، وطلب منها أن تصعد إلى السطح، إلا أنها من فرط ضيقها بدوار البحر لم تهتم بالأمر. ولكن لم يسعها وهي تسمع هذه الجلبة الكثيرة حولها إلا أن تصعد أخيرًا رغم شدة ما كانت تعانيه. وقد ساعدها على

ارتداء طوق النجاة بسرعة الشاب ألفريد ويكلاند، زميلها في الدراسة بالوطن.

وكان أولوس أبلزيس أكثر هؤلاء الشبان جميعًا قلقًا واضطرابًا. كان شابًا نرويجيًّا في السادسة والعشرين من عمره، متجهًا إلى ضيعته في جنوب ولاية داكوتا، وكان أحد أصدقاء الأسرة قد عهد إليه برعاية ابنته البالغة من العمر ستة عشر عامًا، حتى تصل إلى مدينة مينا بوليس. وفيما هو يشق طريقه نحو المؤخرة عبر ممر التشغيل على السطح «أ»، شعر أن مدينة مينا بوليس قد أصبحت بعيدة إلى حد كبير.

ووجد أبلزيس الفتاة في الردهة المركزية على السطح «أ» من المؤخرة. وبعد أن انضم إليها زوج أخته وابنة له وفتاة أخرى، أخذوا جميعًا يصعدون السلم العريض الشديد الانحدار المؤدي من الدرجة الثالثة إلى السطح الخلفي في أقصى المؤخرة.

واحتشد الركَّاب جميعًا في برد الليل القارس وقد التزم كل ركاب درجةِ الأسطحَ الخاصة بهم بطريقة آلية. فركاب الدرجة الأولى وقفوا في وسط الباخرة، وركاب الدرجة الثانية نحو الخلف قليلًا، وركاب الدرجة الثالثة في المؤخرة، أو في السطح الأدنى بالقرب من الناحية الأمامية. وفي هدوء وقفوا جميعًا ينتظرون الأوامر التالية، يسودهم شعور بالثقة له ما يبرره، رغم ما يخامرهم من قلق مبهم. وأخذ كل منهم، في هذا القلق المبهم، يتسلى بالنظر إلى ما يبدو عليه غيره من الركَّاب في أطواق النجاة. ولم يخل الأمر من بضع فكاهات صدرت في شيء من التكلف والاصطناع.

قال كلينسن سميث عندما مرت فتاة تحمل كلبًا صغيرًا بوميراني السلالة:

– أعتقد أنه ينبغي تزويد الكلاب الصغيرة بأحزمة نجاة أيضًا.

وقال رجل للمسز فيراديك وهو يشد لها سترة نجاتها:

– جربي هذا الزي الجديد. إنه آخر طراز في هذا الموسم، الجميع يرتدونه الآن.

وقال الكابتن سميث في مرح للمسز ألكسندر ت. كومتون، من ألبانز:

– إن هذه السترات تزودك بالدفء ما دمت لا تحتاجين إلى استعمالها فعلًا.

وفي نحو الساعة الثانية عشرة والنصف، التقى الكولونيل جراسي بفريد رايت مدرب الاسكواش في الباخرة تيتانيك، ولما تذكر أنه حجز الملعب لنفسه في الساعة السابعة والنصف من صباح اليوم التالي، رأى أن يتفكه قليلًا، فقال للمدرب:

– ألا يحسن أن نلغي موعد الغد؟

فرد رايت قائلًا:

– نعم.

وكان صوته فاترًا خاليًا من كل حرارة، بل العجيب أنه رد على فكاهة الكولونيل، وهو يعلم أن ملعب الاسكواش قد امتلأ بالماء حتى السقف.

وفي ملعب ألعاب القوى الساطع بالضوء، والواقع وراء سطح زوارق النجاة مباشرة، كان المستر والمسز آستور جالسين جنبًا إلى جنب على جوادين آليين ساكنين من جياد التسلية. وكان كل منهما مرتديًا طوق النجاة، وفي حجرة المستر آستور طوق آخر إضافي. وكان يحاول أن يفتحه بمبراته إزجاء للوقت، وليطلع زوجته على ما بداخله.

وفيما كان الركَّاب يتفكهون ويتحدثون وينتظرون، كان طاقم الباخرة يتحرك بسرعة نحو المراكز المختلفة. وهكذا أمسى سطح زوارق النجاة محتشدًا بالبحارة والنُدُل والوقَّادين والطهاة، الذين صدرت إليهم الأوامر بالصعود من الأسطح السفلى.

وقد تأخر في الوصول إلى حد عجيب الضابط الخامس هارولد جودفري لاو، وكان شابًّا حاد المزاج من إقليم ويلز، لا تسهل تهدئة ثائرته. وقد حاول أبوه –وهو في الرابعة عشرة– أن يلحقه للتدريب لدى أحد رجال الأعمال في ليفربول، ولكن الفتى قال عندئذ:

– إنني لن أعمل لدى أحد بلا أجر.

ثم فر إلى البحر.. إلى الحياة التي كان يصبو إليها: الحياة على ظهر السفن بكافة أنواعها، الشراعية، ثم البخارية، وقد أمضى خمسة أعوام من عمره وهو يبحر فوق ظهورها على طول الشواطئ الغربية الأفريقية.

وكان الآن وهو في الثامنة والعشرين من عمره، يقوم برحلته الأولى عبر المحيط الأطلسي. وفي مساء يوم الأحد هذا، كان خاليًا من العمل، ولم يشعر بالاصطدام لاستغراقه في النوم، وأخيرًا أيقظته جلبة الأصوات خارج مقصورته على سطح زوارق النجاة. ولما أطل من كوة المقصورة

ورأى الجميع مرتدين أطواق النجاة، وثب من فراشه وارتدى ملابسه، واندفع إلى السطح ليقدم معونته. ولم تكن هذه بداية طيبة لرجل استيقظ فورًا من نومه. ولكن لاو قال فيما بعد للسناتور الأمريكي سميث:

– ينبغي أن نذكر أننا لم نكن ننعم بوقت طويل للنوم، ولهذا فعندما ننام، نكون كالموتى.

وكذلك تأخر في الوصول الضابط الثاني تشارلز هربرت لايتوللر، ولكن لسبب مختلف تمامًا. فرغم أنه كان –مثل لاو– خاليًا من العمل، ونائمًا في مقصورته، إلا أنه استيقظ فورًا عند وقوع الاصطدام، وانطلق يعدو حافيًا إلى سطح زوارق النجاة ليرى ماذا حدث. ولم يستطع أن يتبين شيئًا على جانبي الباخرة إلا رؤيته من بعيد للكابتن سميث والضابط الأول مردوخ واقفين في الجانب الأيمن لمركز المراقبة، وكانا أيضًا يحملقان في جوف الظلام.

وعاد لايتوللر إلى مقصورته، وراح يفكر في الأمر. وأدرك أن شيئًا ما قد حدث للباخرة –فالهزة أولًا، ثم توقف المحركات الآن. ولما كان خاليًا من نوبته للعمل، فقد رأى أن الأمر لا يعنيه ما لم يستدعه أحد. فإذا حدث هذا، كان عليه أن يكون في الموضع الذي ينبغي أن يكون فيه، وعاد لايتوللر إلى فراشه ورقد عليه متيقظًا منتظرًا.

ومرت خمس دقائق، ثم خمس عشرة دقيقة، ثم ثلاثون. وأمسى في مقدوره عندئذ أن يسمع هدير المداخن وهي تطلق البخار المحبوس والأصوات التي كانت تزداد ارتفاعًا، وصلصلة الآلات. ولكنه مع هذا ظل يرى أن واجبه يحتم عليه أن يكون حيث يُنتظر منه أن يكون.

وفي الثانية عشرة وعشر دقائق اقتحم المقصورة عليه أخيرًا الضابط الرابع بوكسهول، وقال:

- ألم تعلم أننا اصطدمنا بجبل ثلج عائم؟

فقال لايتوللر وهو ينهض ويشرع في ارتداء ملابسه:

- أنا أعرف أننا اصطدمنا بشيء ما.

فقال بوكسهول مستطردًا ومحاولًا أن يثيره قليلًا:

- لقد وصلت المياه إلى السطح «ف» ومكتب البريد.

ولكن لايتوللر لم يكن بحاجة إلى إثارة؛ لأنه كان قد مضى في طريقه لأداء واجبه على الوجه الأكمل بما عرف عنه من هدوء ودقة وثبات. والواقع أنه كان الأنموذج للضابط الثاني.

وعلى سطح الزوارق، بدأ النوتية يرفعون زوارق النجاة الخشبية الستة عشر. وكان على كل جانب من جانبي الباخرة ثمانية، مجموعة من أربعة نحو المقدمة.. ثم مساحة خالية طولها ١٩٠ قدمًا؛ ثم مجموعة أخرى من أربعة نحو المؤخرة، وكان لزوارق الجانب الأيسر أرقام زوجية؛ ولزوارق الجانب الأيمن أرقام فردية، وكان الترقيم على التوالي، ويبدأ من المقدمة. وبالإضافة إلى هذا كان على السطح أربعة من الزوارق المصنوعة من القماش السميك، والقابلة للطي وهي المعروفة باسم -انجلهارت- وكان يمكن وضعها في المطراحين[1] اللذين يخلوان بعد إنزال الزورقين الأماميين. وكانت هذه الزوارق

(١) مثنى مطراح: وهو الجهاز الذي يرفع ويهبط زوارق النجاة والمراسي.

الأربعة مرقمة بالأحرف أ، ب، س، د.

وكانت الزوارق، في مجموعها، تتسع لحمل ١١٧٨. وكان على سطح الباخرة التيتانيك في مساء يوم الأحد ذاك ٢٢٠٧ ركاب.

كانت هذه الحقيقة الرقمية غير معروفة لأحد من الركَّاب، والقليل من النوتية. ولكن معظم هؤلاء وهؤلاء ما كان ليهمهم الأمر كثيرًا حتى لو عرفوا الحقيقة؛ لأن كل من على الباخرة التيتانيك كان يقول إنها غير قابلة للغرق. وقد حدث في ميناء ساوثمبتون، عندما كانت المسز ألبرت كالدويل ترقب العمال وهم يحملون الأمتعة إليها أن سألت أحدهم قائلة:

– هل هذه الباخرة غير قابلة للغرق حقًّا؟

فأجابها قائلًا:

– نعم يا سيدتي. إنها باخرة لا يمكن أن تغرق.

وهكذا وقف الركَّاب الآن هادئين على سطح زوارق النجاة وغير منزعجين، ولكنهم كانوا على جانب كبير من الارتباك. ولم يكن ثمة تدريبات على استعمال زوارق النجاة، كما لم يكن لدى الركَّاب تعليمات معينة ينبغي اتباعها، ولكن كان على كل نوتي وملَّاح مهمة خاصة ينبغي أداؤها في هذه الظروف. إلا أن أحدهم لم يهتم بالاطلاع على مهمته في القائمة الخاصة، وإنما اعتمد الجميع على آذانهم في التقاط الأوامر الصادرة إليهم، وقد بدا عليهم أنهم يعرفون أين ينبغي أن يكونوا ليؤدي كل منهم واجبه على الوجه الأكمل. ويبدو أن تدريبات

الأعوام الطويلة كانت قد أثمرت في النهاية.

وتحلقت جماعات صغيرة من الرجال حول كل زورق ليرفعوا عنه الأغطية القماشية ويفكوا الأشرعة، ويزيلوا عنه ما لا حاجة بهم إليه، ثم يضعوا الفوانيس وعلب البسكويت، ووقف غيرهم عند مطارح الزوارق يضعون المحاور في أماكنها ويفكون الأربطة، وراحت المحاور تدور الواحدة بعد الأخرى، وصرت المطارح، وصلصلت البكرات؛ وهكذا أخذت زوارق النجاة تنفصل ببطء عن جوانب الباخرة. وأخيرًا أعدت الزوارق لتكون في محاذاة السطح الخاص بها. أو في بعض الظروف، في محاذاة السطح «أ» الذي يقع مباشرة تحت الأول.

ولكن هذه العملية كانت تتم ببطء، ذلك أن الضابط الثاني لايتوللر المشرف على زوارق الجانب الأيسر كان يميل إلى تيسير العملية بقدر المستطاع، بينما كان الضابط الأول وايلد يميل إلى تعقيد الأمور. فعندما طلب لايتوللر الإذن بإخراج الزوارق من أماكنها، قال له الضابط الأول وايلد: «لا.. انتظر»، وأخيرًا ذهب لايتوللر إلى مركز المراقبة، وحصل على التعليمات من الكابتن سميث مباشرة، ثم طلب لايتوللر الإذن من وايلد لكي يبدأ إنزال الركَّاب في زوارق النجاة، ولكن وايلد رفض مرة أخرى. ومرة أخرى ذهب لايتوللر إلى مركز المراقبة حيث أومأ له الكابتن سميث برأسه قائلًا:

- أجل.. ضع النساء والأطفال، ثم أنزل الزوارق إلى الماء.

وبدأ لايتوللر عندئذ في إنزال رقم ٤ المحاذي للسطح «أ»، وأمر أن يوضع فيه النساء والأطفال الموجودون في ذلك. وبدا أن هذا الإجراء

أدعى إلى الأمن، كما أن احتمالات سقوط أحد إلى الماء تكون أقل؛ وحتى لو سقط أحد يكون الارتفاع أقصر. وعدا هذا، فقد ساعد هذا الإجراء على التخفيف بعض الشيء من العمل الشاق الذي كان يجري في سطح الزوارق. إلا أنه تذكر بعد فوات الأوان أن الأبواب المؤدية إلى السطح «أ» مغلقة كلها، وكذلك النوافذ، وبعد أن أرسل أحدهم ليفتح النوافذ بسرعة، مضى إلى الزورق رقم ٦.

ووضع لايتوللر قدمًا في الزورق رقم ٦، والأخرى على السطح، وطلب من النساء والأطفال الركوب. ولم يستجب أحد بحماسة إلى طلبه هذا. وكأنما كانوا يتساءلون: لماذا نهجر أسطح الباخرة المضيئة البهيجة لنقضي بضع ساعات مظلمة في زورق تجديف؟ حتى جون جاكوب آستور استغرب هذه الفكرة وقال:

– إننا هنا أكثر أمنًا منا في ذلك الزورق الصغير؟

وفيما كانت المسز ج. ستيوارت تستقل الزورق رقم ٨ قال لها صديق:

– عندما تعودين سوف تحتاجين إلى جواز جديد لركوب الباخرة؛ لأنك لن تستطيعي العودة غدًا صباحًا من دون هذا الجواز.

ولما أبت المسز كونستانس ويللارد بصراحة أن تركب الزورق، هز ضابط كتفيه بعد أن ضاق صدره وقال:

– لا تضيعوا أوقاتكم.. دعوها تغرق ما دامت ترفض الركوب.

وكانت هناك فرقة موسيقية أيضًا لتهدئة أعصابهم. فقد جمع

رئيس الفرقة الموسيقية والاس هنرى هارتلي رجاله، وراحت الفرقة تعزف الرجتيم[1]. وكان أفراد الفرقة واقفين عندئذ في استراحة الدرجة الأولى، حيث احتشد كثير من الركَّاب قبل صدور الأوامر بإنزال زوارق النجاة. ثم تحركت الفرقة فيما بعد إلى الجانب الأمامي من سطح زوارق النجاة بالقرب من السلم الكبير. وكان مظهرهم مشوشًا بعض الشيء.. فمنهم من كان يرتدي السترة الرسمية الزرقاء، ومنهم من ارتدى السترة البيضاء. ولكن لم يكن في عزفهم أي عيب.

وكان المسؤولون قد بذلوا كل في وسعهم ليزودوا الباخرة تيتانيك بأحسن فرق موسيقية في المحيط الأطلسي، بل لقد أغارت شركة هوايت ستار على الباخرة موريتانيا التابعة لشركة كوثاردر وانتزعت منها رئيس فرقتها الموسيقية هارتلي، وأمكن اجتذاب عازف البيانو تيودور برايلي وعازف الكمان الجهير روجر يريكو من الباخرة كارباتيا بسهولة.

وقد قالا للنادل روبرت فوان الذي كان يقوم على خدمتهما في الباخرة الصغيرة يومذاك:

– لسوف نكون قريبًا على ظهر باخرة محترمة حيث الطعام المحترم.

ولم يسبق لعازف «كمان الباص» فريد كلارك أن ركب البحر، ولكنه كان مشهورًا في دوائر الموسيقى الإسكتلندية. فألحقته الشركة الملاحية بخدمتها أيضًا. ولم يكن عازف القيثارة الأول جوك هيوم

(١) كلمة معربة عن الأصل الإنجليزي.

قد عزف من قبل مع فرق موسيقية. ولكن كان لقيثارته نغمات مرحة، كان الركَّاب -كما بدا- يحبونها، وهكذا سارت الأمور حتى اجتمع للفرقة ثمانية من العازفين البارعين. وفي هذه الليلة كان الإيقاع سريعًا، والنغمات عالية بهيجة.

وكانت الأمور على الجانب الأيمن للباخرة تجري بسرعة، ولكنها لم تكن بالسرعة التي تُرضي المدير اسماي، الذي كان ينطلق هنا وهناك طالبًا من الرجال المزيد من السرعة. وقد قال للضابط الثالث بيتمان الذي كان يشرف على الزورق رقم ٥:

- ليس لدينا وقت نضيعه.

وهز بيتمان كتفيه في غير مبالاة -ولم يكن يعرف من هو اسماي، ومن ثم أظهر أنه لا وقت لديه لتلقي الأوامر من شخص غير مسؤول كان يضع في قدميه الشبشب. ولما طلب منه اسماي أن يملأ الزورق بالنساء والأطفال، وجد بيتمان أن الأمر قد جاوز الحد فقال له:

- إنني في انتظار أمر الربَّان.

وفجأة أدرك من قد يكون ذلك الرجل الغريب، فهبط إلى السطح، وتحدث مع الكابتن سميث عن ظنونه، وسأله هل يفعل ما يطلب منه اسماي. فرد الكابتن عليه بحدة قائلًا: «استمر في عملك»، وعاد بيتمان إلى الزورق رقم ٥ ووثب فيه وقال:

- هلم أيتها السيدات.

ودفع الكابتن كروسبي، في حزم، زوجته كاترين وابنته هاربيت إلى

الزورق، وكان الكابتن إدوارد جينورد كروسبي من رجال البحرية في ولاية ميلووكي وربانًا كبيرًا للسفن التي كانت تمخر عباب البحيرات الكبيرة بها. وكانت له طريقة في النفاذ إلى حقائق الأوضاع، فبعد الصدمة مباشرة، عنف زوجته قائلًا:

– لسوف تظلين راقدة في مكانك حتى تغرقي.

ثم قال لها فيما بعد:

– لقد أصيبت هذه الباخرة بعطب شديد. ولكنني أعتقد أن أقسامها المانعة للماء ستحميها من الغرق.

ولكنه كان عندئذ لا يعتمد على المصادفات.

وأخذ آخرون يستقلون الزوارق ببطء. الآنسة هيلين أوستبي... المسز ف. م. وارين... المسز واشنطن دودج وابنها البالغ خمسة أعوام... ومضيفة بالباخرة شابة. ولما أبت النساء الأخريات أن يركبن الزورق بلا رجالهن، سمح بركوب بعض الأزواج معهن، وبعد هؤلاء سمح بركوب بعض الرجال غير المتزوجين، وقد سرت هذه القاعدة طيلة الليل على الجانب الأيمن من الباخرة: النساء أولًا، ثم الرجال إذا كان لهم مكان.

وإلى الوراء قليلًا، كان الضابط الأول مردوخ، المشرف على الجانب الأيمن يعاني نفس المشكلة في ملء الزورق رقم ٧، فقد وثبت إليه أولًا نجمة المسلسلات السينمائية دوروثي جيبسون، وتبعتها أمها. ثم أقنعتا زميلهما في لعب البريدج في ذلك المساء بالركوب، فركب

ويليام سلوبر وفريد سيوارد، وتبعهما آخرون بعد ذلك، حتى أمسى عدد الركَّاب تسعة عشر أو عشرين. ورأى مردوخ أنه لا يستطيع أن ينتظر أكثر من هذا، فأصدر الإشارة بيده، وهبط إلى الماء أول زورق للنجاة، وهو الزورق رقم ٧، وكان ذلك في تمام الساعة الثانية عشرة وخمس وأربعين دقيقة.

ثم أمر بيتمان ليتولى الإشراف على الزورق رقم ٥. وطلب منه أن يبقى في الممر الخلفي، وصافحه وقال باسمًا:

- وداعًا، وحظًّا سعيدًا.

وفيما كان الزورق رقم ٥ يصر أثناء الهبوط، فَقَدَ بروس اسماي السيطرة على أعصابه، وراح يهتف مكررًا:

- اهبطوا بالزورق.. اهبطوا بالزورق.

هذا بينما كان يلوح بذراعه في دوائر كبيرة، ويتعلق بذراعه الأخرى في مطراح الزورق. ومن ثم انفجر الضابط الخامس لاو -الذي كان يدير محركات المطارح- قائلًا:

- لو أنك ابتعدت بحق الجحيم عن الطريق، لأمكنني أن أفعل شيئًا. إنك تريد مني أن أهبط بالزورق بسرعة! ولكنك ستجعلني أغرق ركابه جميعًا بسبب هذه التصرفات.

وخجل اسماي أشد الخجل، ودون أن يلفظ بكلمة استدار ومضى نحو الزورق رقم ٣.

وفغر النوتية القدامى أفواههم من فرط الدهشة، لقد شعروا أن

انفجار لاو هو أعجب حدث مثير في تلك الليلة. إذ لم يكن من المألوف أن يهين ضابط خامس مدير شركة ملاحية وينجو بجلده. ولا شك أن يوم الحساب سيكون عند وصولهم إلى نيويورك.

وكان كل واحد منهم، تقريبًا، لا يزال يتوقع الوصول إلى نيويورك، ولو بعد الانتقال إلى باخرة أخرى على أسوأ الاحتمالات.

وقال تشارلز م. هايز عندما رأى الميجور بوتشين يساعد في عملية إعداد زوارق النجاة.

– إن أمام هذه الباخرة ثماني ساعات يا بوتشين. لقد حصلت على هذه المعلومات من واحد من أبرع وأقدم الملاحين، وهو المستر كروسبي من ميلووكي.

وكذلك كان المسيو جاتي –رئيس ندل المطعم الفرنسي بالباخرة– هادئ الأعصاب، وكان يبدو –وهو واقف بمفرده على سطح زوارق النجاة – صورة للمهابة والوقار، القبعة العالية ثابتة في مكانها على رأسه، والعصا في يده، ومطرف السفر مطوي بأناقة على ذراعه.

وجلس المستر والمسز لوسيان سميث، والمستر والمسز سليبر هاربر يتحدثون بهدوء في قاعة ألعاب القوى على مسافة يسيرة من سطح زوارق النجاة. ولم يعد ثمة من يركب الجياد الميكانيكية الآن؛ لأن المستر والمسز آستور كانا قد انتقلا إلى مكان آخر. وللمرة الأولى لم يعد هناك من يركب الدراجات الثابتة التي كان الركَّاب يحبون ركوبها ويديرون بأرجلهم مجموعات من الأسهم الحمراء والبيضاء التي كانت تنطلق حول ساعة حائط كبيرة بيضاء. ولكن القاعة بأرضيتها المضيئة

المكسوة بالمشمعات الفاخرة ومقاعدها المضفرة المريحة كانت أدعى إلى الراحة من سطح الزوارق. ولم يكن ثمة شك في أنها أدفأ؛ كما بدا أنه لم يكن هناك ما يدعو إلى التعجل.

وفي قاعة التدخين التي خلت في ساعة مبكرة من المساء، والتي كانت تقع في السطح «أ»، جلس أربعة رجال حول مائدة، أرشي بات، وكلارنس مور، وفرانك ميليت، وآرثر ريرسون وقد بدا عليهم أنهم تعمدوا محاولة الابتعاد عن جلبة الارتباك القائم على سطح الزوارق.

وعلى مسافة بعيدة في أسفل الباخرة؛ كان الميكانيكي توماس رانجر قد بدأ يغلق المراوح الكهربية الخمس والأربعين المستعملة في غرفة المحركات، وأخذ يفكر في المراوح التي كان عليه أن يصلحها في اليوم التالي. وصنع الكهربي ألفريد هوايت -الذي كان يعمل على المولدات الكهربية- بعض القهوة في مكان عمله.

وفى أقصى مؤخرة الباخرة، كان رئيس النوتية نوماس راو لا يزال يذرع مكان مراقبته وحيدًا. إنه لم يكن قد رأى أحدًا، أو سمع شيئًا منذ انسياب جبل الثلج العائم بجانب الباخرة قبل ساعة خلت. ومن ثم خامره العجب فجأة حين رأى زورق نجاة يطفو بالقرب من الجانب الأيمن للباخرة. واتصل تليفونيًّا بمركز المراقبة متسائلًا: هل يعلمون هناك عن وجود زورق نجاة يطفو؟ وسأله صوت بلهجة غريبة: من يكون؟ فرد راو عليه موضحًا، وعندئذ أدرك القائمون في مركز المراقبة أنهم نسوا رئيس النوتية. ومن ثم طلبوا منه أن يسرع إلى مركز المراقبة فورًا، وأن يحضر معه بعض الصواريخ. وهبط راو إلى مستودع في

سطح تحتي، وتناول علبة معدنية بها ١٢ صاروخًا، وصعد إلى مركز المراقبة –وكان آخر إنسان يعلم بما دار من أحداث.

وكان آخرون قد عرفوا حقيقة الأمر تمامًا الآن. فقد همس الدكتور العجوز أولولين في أذن المضيفة ماري سلون قائلًا:

– يا طفلتي، إن الأمر شديد السوء.

ووقفت المضيفة آني روبنسون بجوار غرفة البريد ترقب المياه وهي ترتفع على السطح «ف»، وفيما كانت تنظر بدهشة إلى حقيبة سفر مهجورة في الممر، أقبل النجَّار هتشنسون يحمل حبلًا من الرصاص، وقد بدا في حالة شديدة من الارتباك والذهول والانزعاج.

وبعد فترة وجيزة التقت المسز روبنسون بتوماس أندروز على السطح «أ»، وحياها أندروز كوالد غاضبًا قائلًا:

– أظن أني طلبت منك أن ترتدي طوق النجاة.

فأجابت قائلة:

– نعم، ولكنني ظننت أنه من الحقارة ارتداؤه.

– لا عليكِ من هذا. ارتديه. وسيري به. واجعلي الركَّاب يرونكِ.

– ولكن منظره يبدو حقيرًا.

– لا. يجب أن ترتديه. إذا كنتِ تعتزين بحياتكِ فارتديه.

وكان أندروز يفهم الناس جيدًا. وكان رجلًا جذابًا موفور النشاط، ينتقل إلى كل مكان، ويساعد كل إنسان، وكان طبيعيًّا أن يلجأ الركَّاب إليه، وكان هو يعاملهم بطريقة مختلفة، معتمدًا في ذلك على رأيه فيهم،

لقد أخبر النادل المتذمر جونسون أن كل شيء سوف يصبح على ما يرام. وقال للمستر والمسز ألبرت ديك زميليه المعتادين على مائدة العشاء:

– لقد تمزقت الباخرة تمامًا من أسفل. ولكنها لن تغرق إذا تماسكت البدنات الخلفية فيها.

وقال للمضيفة القديرة ماري سلون:

– إن الأمر خطير جدًّا. ولكن عليك أن تكتمي هذه الأنباء السيئة، حتى لا ينتشر الفزع بين الركَّاب.

وقال لجون ب. ثاير، الذي كان يثق فيه كل الثقة، إنه لا يضمن بقاء الباخرة طافية أكثر من ساعة.

ولم يكن ثمة حاجة لإطلاع بعض النوتية على الأمر. ففي نحو الساعة الثانية عشرة وخمس وأربعين دقيقة ترك الملَّاح الفاره جون براند ستر سطح الزوارق ليأتي بحذائه المطاطي. وقد وجده في منارة الباخرة بمقدمة السطح «أ» وفيما هو يهم بالعودة، إذا بالجدار الخشبي القائم بين جناح البحارة وبين بعض مقصورات الدرجة الثالثة على الجانب الأيمن من الباخرة ينهار –فجأة– وإذا بالمياه تتدفق، وإذا هو يكافح للنجاة وقد ارتفعت المياه إلى وسطه.

وعلى مسافة أخرى إلى الوراء، كان نادل قاعة العشاء قد ذهب إلى مقصورته على السطح «أ» ليأتي بمعطف أجلب للدفء. وفي أثناء عودته سار قدمًا إلى «طريق سكوتلاند» في اتجاه السلم الرئيس. وكان

تزاحم الوقادين وركاب الدرجة الثالثة قد زال الآن. ومن ثم كان كل شيء يبدو هادئًا في «طريق التشغيل» الواسع، فيما عدا ارتطام المياه في بعض الممرات الأمامية.

وعلى مسافة أبعد إلى الوراء، هبط مساعد النادل الثاني جوزيف توماس هوايت ستار ليلتقط بعض حاجياته الثمينة من مقصورته في السطح «ف» على الجانب الأيسر، وكانت قريبة جدًّا من جناح الحمام التركي. وكان عبارة عن مجموعة من الغرفات الباهرة الفاخرة، كانت تعتبر قنطرة بين الطراز الفكتوري والطراز العصري جدًّا في فنون الزخرفة الداخلية. وكانت الأرضيات الفسيفساء، والجدران المصقولة ذات اللون الأزرق المائل إلى الخضرة، والدعامات الخشبية المذهبة في السقف الأحمر القاتم، والسندات المكسوة بخشب الساج المنقوش –كان كل هذا لا يزال جافًّا لم تصل إليه المياه.

ولكن عندما سار هوايت بضع ياردات في الممر، وبدأ في طريق العودة عبر السلم، إذا به يرى منظرًا عجبًا: رأى خيطًا من الماء ينحدر على السلالم من السطح «أ» الأعلى.. وكان ارتفاع الماء لا يزيد عن ربع بوصة، ولا يكاد يصل إلى كعب حذائه، وهو يصعد الدرجات. ولما وصل إلى السطح «أ» رأى المياه آتية من مقدمة الجانب الأيمن للباخرة.

وأدرك ما حدث؛ أدرك أن المياه في مقدمة السطح «ف» عندما صدت أمام باب القسم المانع للمياه، ارتفعت إلى السطح «أ» الخالي من الأبواب المانعة، وراحت الآن تنحدر إلى القسم التالي الواقع إلى الخلف.

وكانت غرفة المراجل رقم ٥ هي المكان الوحيد الذي بدا كل شيء فيه مملوك الزمام. فبعد أن أخمدت النيران، أرسل الوقَّاد الأول باريت معظم الوقَّادين المساعدين إلى مراكزهم عند قوارب النجاة. وتخلف هو مع عدد قليل لمساعدة المهندسين هارفي وشبرد في إدارة المضخات.

وبناء على تعليمات هارفي، رُفع الغطاء الحديدي عن فجوة الأرضية بالجانب الأيمن، ليتمكن هارفي من الوصول إلى الصمامات التي يضبط بها المضخات.

وكانت غرفة المراجل قد امتلأت الآن بسحب البخار الذي تصاعد من المياه المستعملة في إخماد النيران. وفي هذا الضوء المعتم في الغرفة التي بدت كحمام تركي، أخذ الرجال يعملون وكأنهم أشباح غامضة تتحرك في طيات من الغمام.

وفيما كان شبرد يعبر الغرفة بسرعة، سقط في فجوة الأرضية وكسرت ساقه، فاندفع إليه هارفي وباريت والوقَّاد جورج كيميسن، وحملوه إلى غرفة المضخات، وكانت مكانًا مغلقًا في طرف قاعة المراجل. ولم يكن ثمة وقت لديهم يتسع لأكثر من إرقاده في وضع مريح، ثم اندفعوا عائدين إلى سحائب البخار، وسرعان ما صدرت إليهم الأوامر من مركز المراقبة طالبة من جميع العمال الحضور إلى مراكزهم عند سطح الزوارق. وظل شبرد راقدًا في غرقة المضخات أثناء صعود العمال. وبقي هارفي وباريت للعمل في الصمامات.. وبعد ربع ساعة بدأ الرجلان يستبشران؛ لأن الغرفة ظلت خالية من المياه،

وكان أزيز المضخات الرتيب سريعًا ناعمًا.

وفجأة تدفقت المياه في هديرٍ مدوٍّ من بين المراجل في الطرف الأمامي من القاعة، وبدا أن بدنة الباخرة كلها، الواقعة بين القسمين الخامس والسادس، قد انهارت تمامًا.

وهتف هارفي لباريت طالبًا منه الإسراع إلى سلم النجاة. وأسرع باريت صاعدًا والمياه الهادرة تدور حول قدميه. أما هارفي فقد استدار نحو غرفة المضخات حيث رقد شبرد. وكان مستمرًا في اتجاهه إليها عندما اختفى تحت تدفق المياه المرتفعة.

ولم يكن يقطع الصمت المخيم في مكتب اللاسلكي إلا صرير دقات الجهاز أثناء إرسال فيليبس إشارات الاستغاثة، واستقبال الإجابات المرسلة إليه. وكان زميله برايد لا يزال مشغولًا بارتداء ملابسه وهو يروح ويجيء بين المكتب ومركز المراقبة.

وكانت الأنباء حتى ذلك الحين مشجعة. فالباخرة فرانكفورت التابعة لفرع شركة لويد بشمالي ألمانيا كانت أولى البواخر التي ردت. إذ أرسلت في الساعة الثانية عشرة ردها الموجز «حسنًا.. اصمدوا»، ولكنها لم تذكر موقعها، وبعد لحظة أخرى تدفقت الردود من عابرة الباسفيكي الكندية «تمبل».. ومن الباخرة فرجينيان التابعة لشركة «آلان» الملاحية؛ ومن باخرة الركَّاب الروسية بيريا.

وامتلأ الليل بصرير الإشارات اللاسلكية، والتقطت السفن البعيدة عن مدى الإرسال، الإشارات من الأخرى القريبة من هذا المدى. وهكذا أخذت دوائر الأنباء تتسع بسرعة. والتقت محطة اللاسلكي في راس

ريس هذه الأنباء وحولتها إلى داخلية البلاد. وكان على سقف مخازن وانا ميكر في نيويورك عامل لاسلكي شاب يُدعى دافيد سارنوف. وقد استطاع أن يلتقط بعض هذه الإشارات، وأن يحولها إلى غيره. وهكذا أمسى العالم كله في حالة شديدة من الانتظار والترقب المؤلم.

وعلى مسافة قريبة، كانت الباخرة كارباتيا التابعة لشركة كوناردر تنطلق نحو الجنوب وهي غافلة تمامًا عن هذا الموضع. ذلك أن عامل اللاسلكي الوحيد فيها هارولد توماس كوتام كان في مركز المراقبة عندما أرسل فيليبس إشارة الاستغاثة، ولما عاد إلى أجهزته، رأى أن يقوم ببعض الخدمات للباخرة «تيتانيك»، فسألها عرضًا عما إذا كانت تعلم أن هناك رسائل لاسلكية خاصة تنتظرها في راس ريس؟

وكانت الساعة الثانية عشرة وخمسًا وعشرين دقيقة عندما رد فيليبس متجاهلًا إشارات المجاملة من كارباتيا؛ قائلًا:

– هلم أسرعوا إلينا فورًا. لقد اصطدمنا بجبل ثلجي، إنها استغاثة أيها العجوز، الموقع ٤٦ , ٤١ شمالًا و ٤١ , ٥٠ غربًا.

وبعد لحظة من الصمت الثقيل، سأل كوتام هل يخبر ربان باخرته؟ فقال فيليبس: «نعم بسرعة»، وبعد خمس دقائق وردت الأنباء الطيبة: إن الباخرة كارباتيا لا تبعد أكثر من ٥٨ ميلًا وهي «آتية بسرعة».

وأعادت الباخرة فرانكفورت الاتصال مرة أخرى في الساعة الثانية عشرة والدقيقة الرابعة والثلاثين –وقالت إنها على مسافة ١٥٠ ميلًا، وسأل فيليبس:

- هل أنتم آتون لمساعدتنا؟

فقالت الفرانكفورت:

- ماذا حدث لكم؟

فقال فيليبس:

- قل للربان أن يأتي لمساعدتنا، إننا على الجليد.

وهنا هبط الكابتن سميث إلى مكتب اللاسلكي ليعرف سير الأمور أولًا فأولًا، إن الأولمبيك أخت التيتانيك الفخمة كانت ترسل إشارات استجابتها في تلك اللحظة، إنها على بعد خمسمائة ميل، ولكن محركاتها قوية، وفي مقدورها أن تقوم بعملية إنقاذ من الدرجة الأولى، كما أنه كان هناك رابطة قوية بين الباخرتين، ومن ثم استمر فيليبس على اتصال دائم بها، بينما لم يكف عن استعجال البواخر الأخرى التي كانت أقرب.

وسأله سميث قائلًا:

- ما هي إشارات الاستغاثة التي ترسلها؟

فقال فيليبس بلا اهتمام:

- س. ك. د.

وومضت في ذهن زميله برايد فكرة طيبة. فبينما كانت الأحرف س. ك. د. هي إشارات الاستغاثة التقليدية، فقد كان ثمة اتفاق دولي حدث أخيرًا، لاستعمال أحرف أخرى غيرها، هي «س. و. س» إذ كان يمكن لأي هاو لاسلكي أن يلتقطها بسهولة. وهكذا قال برايد مقترحًا:

– أرسل س. و. س. إنها إشارات الاستغاثة الجديدة، ولعل هذه هي آخر فرصة لك لإرسالها.

وضحك فيليبس للفكاهة، وبدأ يرسل الإشارة الجديدة. وكانت ساعة الحائط في مكتب اللاسلكي تعلن الثانية عشرة والدقيقة الخامسة والأربعين بعد منتصف الليل عندما أرسلت التيتانيك هذه الإشارة الجديدة لأول مرة في التاريخ.

ولم يكن بين البواخر التي تم الاتصال بها باخرة تبشر بالأمل مثل هذه الباخرة التي كانت أضواؤها تومض على مسافة عشرة أميال من الجانب الأيسر للباخرة تيتانيك. وبالمنظار المقرب استطاع الضابط الرابع بوكسهول أن يرى بوضوح أنها باخرة، وقد خطر له، مرة، وهو يحاول الاتصال بها عن طريق إشارات مورس الضوئية أن يرى الإجابة، إلا أنه لم يستطع أن يفهم شيئًا منها، فقرر أخيرًا أن الأضواء المنبعثة لا بد أن تكون صادرة من وميض الفانوس المعلق في أعلى سارية فيها.

وكان لا بد من اتخاذ إجراءات أشد حزمًا. فما إن ظهر رئيس النوتية راو على مركز المراقبة، حتى سأله الكابتن سميث عما إذا كان أحضر الصواريخ معه، فلما قدمها راو إليه، أصدر الكابتن تعليماته قائلًا:

– أطلق واحدًا الآن، ثم واحدًا في كل خمس أو ست دقائق.

وفي الساعة الثانية عشرة والدقيقة الخامسة والأربعين شق ظلام الليل وهج يبهر الأنظار، لقد انطلق الصاروخ الأول من الجانب الأيمن لمركز المراقبة.. وظل يحلق عاليًا.. عاليًا فوق زخارف السواريات والأدغال.. وأخيرًا، وعلى ارتفاع شاهق انفجر بصوت بعيد مكتوم،

وانطلقت منه حشود من الأنجم المضيئة اللامعة التي تطفو هابطة ببطء إلى سطح البحر، ويتذكر الضابط الخامس لو أنه رأى، في ذلك الضوء الأزرق اللامع، لمحة من وجه بروس اسماي المنزعج.

وعلى بعد عشرة أميال، كان الضابط تحت التدريب جيمس جبسون واقفًا على مركز المراقبة في الباخرة كاليفورنيان. وكان قد لاحظ أن تلك الباخرة العجيبة التي جاءت من الناحية الشرقية لم تتحرك من مكانها منذ ساعة، ومن ثم راح جبسون يتأملها باهتمام. وكان بمنظاره المقرب يستطيع أن يرى أضواءها الجانبية وبريق الأضواء على سطحها الخلفي. وقد خطر له حينًا أنها تحاول أن تتصل بالباخرة كاليفورنيان عن طريق إشارات مورس الضوئية. وحاول أن يرد بمصباحه الخاص. ولكنه سرعان ما توقف بعد أن قرر أن فانوس السارية في هذه الباخرة الغريبة هو الذي يومض من بعيد.

وظل الضابط الثاني هربرت ستون، الذي كان يذرع مركز المراقبة جيئة وذهابًا على الباخرة كاليفورنيان، معنيًا بمراقبة هذه الباخرة الغريبة، وفي الساعة الثانية عشرة والدقيقة الخامسة والأربعين رأى وميضًا من الضوء ينبثق فوقها فجأة، وخطر له أنه من العجيب أن ترسل باخرة ما الصواريخ الضوئية في بهيم الليل!

* * *

الفصل الرابع

«اذهبي أنتِ وسأبقى هنا قليلًا»

كان راكب الدرجة الثانية لورنس بيزلي يعتبر نفسه أقل الناس علمًا بشؤون البحر، إلا أنه مع ذلك قد فطن إلى معنى إطلاق الصواريخ من باخرة –أي فطن إلى أن التيتانيك في حاجة إلى غوث– في حاجة شديدة إليه، بحيث راحت تستغيث بأي سفينة يمكنها أن ترى هذه الصواريخ.

وفطن إلى هذا أيضًا غيره من الواقفين على سطح زوارق النجاة. ومن ثم لم يعد هناك مجال لمزيد من الفكاهات أو التلكؤ، بل لم يكن ثمة وقت لأن يودع بعضهم البعض.

وقال دان مارتين لعروسه:

– إن الأمر على ما يرام يا فتاتي الصغيرة. اذهبي أنتِ، وسأبقي هنا قليلًا.

ثم أرسل إليها قبلة في الهواء وهي تستقل زورق النجاة.

وابتسم أدولف دايكر لزوجته وهو يساعدها على المرور فوق

المعبر إلى زورق النجاة قائلًا:

- سأراكِ فيما بعد.

وقال الدكتور و. ت. لزوجته وهو يتراجع عن الزورق مع غيره من الرجال:

- تشجعي.. مهما حدث، تشجعي.

ولم يقل المستر توريل كافنديش شيئًا لزوجته وإنما اكتفى بقبلة، ثم نظرة طويلة، ثم قبلة ثانية، ثم اختفى في الزحام.

وتناول مارك فورشون مقتنيات زوجته الثمينة عندما راح هو وابنه تشارلز يودعها مع بناتها الثلاث إلى الزورق، قائلًا:

- لسوف أرعاهن؛ لأني سأستقل الزورق التالي مباشرة.

وقالت إحدى البنات لأخيها:

- تشارلز، حافظ على أبيك.

وتوسلت المسز وولتر د. دوجلاس إلى زوجها قائلة:

- وولتر.. يجب أن تأتي معي.

فقال المستر دوجلاس وهو يستدير لينصرف:

- لا. يجب أن أتصرف كسيد مهذب.

وأخيرًا نصحته زوجته قائلة:

- حاول أن تركب زورقًا واحدًا مع الميجور بات والمستر مور. إنهما رجلان كبيران قويان، ولا شك أنهما سيعرفان كيف يخرجان بكم

من هذه المحنة.

ولكن بعض الزوجات ظللن على رفضهن في ركوب زوارق النجاة بمفردهن. وقد أدرك المستر والمسز أدوارد ماير –من نيويورك– أنهما أثارا الانتباه إليهما وهما يتجادلان في هذا الشأن علانية، فاضطرا إلى الهبوط إلى مقصورتهما. وهناك قررا الافتراق من أجل طفلتهما.

وكان على آرثر ريرسون أن يوضح الجانب القانوني في الأمر لزوجته، فقال:

– يجب أن تطيعي الأوامر. فعندما يقولون: «النساء والأطفال إلى الزوارق. ينبغي أن تذهبي حين يأتي دورك. ولسوف أبقى هنا مع جاك تاير. وسوف نكون بخير».

وكذلك كان ألكسندر ت. كومبتون بنفس هذا الحزم مع والدته حين أعلنت أنها تفضل البقاء معه على الافتراق عنه. وقد قال لها:

– لا تكوني حمقاء يا أماه، يجب أن تركبي الزورق أنتِ وأختي، ولسوف أحافظ على نفسي.

واشتبك المستر والمسز لوسيان سميث في مثل هذا النوع من الجدل، فعندما رأيا الكابتن سميث واقفًا بجوار مركز المراقبة أمام بوق الصوت، ومضت فكرة في ذهن المسز لوسيان سميث. ومن ثم قصدت الكابتن وشرحت له الأمر قائلة إنها وحيدة في العالم، والتمست منه أن يسمح لزوجها بمصاحبتها وتجاهلها الربَّان العجوز ورفع بوق الصوت هاتفًا:

- النساء والأطفال أولًا.

وهنا انفجر المستر لوسيان سميث قائلًا:

- لا عليك يا كابتن من هذا الأمر. لسوف أعرف كيف أجعلها تركب الزورق.

ثم استدار إلى زوجته، وتحدث ببطء شديد:

- إنني لن أنتظر يومًا أن تطيعيني. ولكنكِ في هذه المرة يجب أن تفعلي، والمسألة مجرد تقاليد رسمية تحتم ركوب النساء والأطفال أولًا. والباخرة حسنة الإعداد، وسوف ينجو كل من عليها.

فسألته زوجته عما إذا كان صادقًا في هذا كل الصدق؟ فرد عليها بالإيجاب في صوت كله الحزم والتأكيد. وهكذا تبادلا قبلة التوديع، وفيما كان الزورق يهبط إلى الماء، هتف هو من سطح الباخرة:

- ضعي يدكِ في جيبك؛ لأن الجو شديد البرودة.

وكان الأمر في بعض الأحيان يحتاج إلى أكثر من الخداع الرقيق. فمثلًا كانت المسز إييل توسينج متعلقة بزوجها عندما بدأ الزورق رقم ٨ في الهبوط بابنتها. وقد استدارت المسز توسينج وهتفت بابنتها قائلة:

- روث!

وكانت تلك فرصة سانحة انتهزها رجلان في تخليص زوجها منها، وإلقائها في الزورق الهابط.

وأمسك بحار بذراع المسز شارلوت كوللبير، وأمسك آخر بوسطها وانتزعها الاثنان من زوجها هارفي. وفيما كانت تحاول التخلص منهما،

سمعت زوجها يقول:

– اذهبي يا لوشي.. أناشدكِ الله أن تتذرعي بالشجاعة وتذهبي. ولسوف أجد لي مكانًا في زورق آخر.

ولما أدركت المسز سيليني يزبك أن عليها أن تذهب من دون زوجها، راحت تصيح وتصخب مطالبة بالعودة إليه. ولكن الزورق هبط بها إلى الماء وهي لا تزال تحاول الوثوب منه.

ولم يستطع أحد بالإقناع أو بالقوة أن يحرك المسز هدسون ج. أليسون من مونتريال. فقد كانت بعيدة بعض الشيء عن الباقين، وملتصقة بزوجها المستر أليسون، وقد تعلقت ابنتها الصغيرة لورين بذيل ثوبها.

وكذلك رفضت المسز أيزيدور ستروس أن تمضي بمفردها، قائلة:

– لقد عشت دائمًا مع زوجي. فلماذا يجب أن أتركه الآن؟

وكانا في الواقع قد صنعا في حياتهما الشيء الكثير معًا: فكانا المثل على قوة الاتحاد الزوجي. لقد اشتركا في إقامة مشروع صغير لصناعة الأدوات الخزفية في فيلادلفيا.. وتحويل مشروع ماكي إلى مؤسسة أهلية.. ثم عضوية البرلمان الأمريكي.. وأخيرًا إشراقة الراحة والمتعة التي توجت جهادهما، فضلًا عن تقديم استشاراتهما للجمعيات، ومساهمتهما في أعمال الخير، ثم الهوايات والرحلات. وقد رحلا في هذا الشتاء إلى راس مارتن، وبدا لهما أن العودة على الباخرة تيتانيك في رحلتها الأولى هي ألطف ما يختتمان به أسفارهما.

وقد جاء الزوجان في هذه الليلة إلى سطح الباخرة مع غيرهما. وبدا على المسز ستروس في أول الأمر أنها لا تعرف على وجه التحديد ماذا تفعل. فهي أحيانًا تسلم بعض حليها إلى خادمتها ألين بيرد، ثم تستردها. وعبرت فيما بعد سطح الزوارق، وأوشكت أن تستقل الزورق رقم ٨. ثم استدارت وعادت إلى زوجها وها هي الآن قد استقر عزمها، فقالت:

– لقد عشنا معًا أعوامًا طوالًا.. فحيثما تذهب، أذهب.

وحاول أرشبولد جراس، وهيو وولتر، وغيرهما من الأصدقاء أن يقنعوها بالذهاب. ولكن على غير جدوى. وأخيرًا قال وولتر للمستر ستروس:

– إنني واثق أنه لا يوجد من يعترض على ركوب سيد عجوز مثلك مع زوجته.

فقال المستر ستروس بلهجة قاطعة:

– إنني لن أمضي قبل غيري من الرجال.

ثم جلس مع زوجته على مقعدين متجاورين من مقاعد السطح.

ولكن معظم السيدات ركبن الزوارق –الزوجات بمساعدة أزواجهن، وغير المتزوجات بمساعدة الرجال الذين تطوعوا برعايتهن. فقد كان ذلك هو المجال الذي يعرض فيه السادة المهذبون خدماتهم على السيدات الوحيدات عند بدء الرحلة لعبور الأطلسي. وفي هذه الليلة كان لهذه المجاملة شأنها الكبير.

وهكذا هبطت المسز ويليام ت. جراهام، ومرجريت ابنة التاسعة

عشرة ومُدرِّستها الخاصة الآنسة شوتز إلى الزورق رقم ٨ بمعاونة هوارد كاس مدير فرع شركة فاكوم بلندن، والشاب واشنطن أوجستاس رويبلنج ابن ملك الصلب الذي كان يشق طريقه في الحياة بنفسه كمدير لمصانع سيارات مير كوري في مدينة ترنتون بنيو جرسي. وفيما كان الزورق يهبط إلى الماء، راحت المسز جراهام ترقب المستر كاس وهو معتمد على سياج السطح يشعل سيجارته، ثم لوحت بيدها أخيرًا تحييه.

وكانت المسز أ. د. آبلتون، والمسز ر. س. كورنل، والمسز ج. موري براون، والآنسة إديث إيفانز عائدات من جناز عائلي في بريتانيا الفرنسية، وكن جميعًا في رعاية الكولونيل جرسي. ولكنه انفصل عنهن في الزحام على نحو ما، ولم يلتقِ بهن مرة أخرى إلا فيما بعد.

ولعل الكولونيل قد شغل عن مهمته بسبب رعايته الخاصة للمسز تشرتشل كاندي، زميلته على مائدة العشاء في قاعة الطعام. وكانت المسز كاندي عائدة من باريس لترى ابنها الذي أصيب في حادثة طيران، ولا بد أنها كانت جذابة حقًّا؛ لأن كل رجل كان يريد أن يبسط عليها جناح رعايته.

وعندما عثر عليها إدوارد أ. كنت –وكان زميلًا لها أيضًا على مائدة العشاء– بعد الاصطدام، أعطته صورة لأمها منقوشة على قطعة من العاج، لتكون تذكارًا. ولما وصل كل من هيو وولتر والملازم جورنو ستروم ستيفانسون لمعاونتها على ركوب الزورق رقم ٦، لوح لها وولتر مودعًا ومؤكدًا أنهما سوف يساعدانها مرة أخرى عند عودتها إلى سطح الباخرة تيتانيك عندما «ينصلح حالها». وبعد لحظة وجيزة أقبل

الكولونيل جراسي والمستر كلينسن سميث مندفعين، باحثين أيضًا عن المسز كاندي. ولكن المستر وولتر قال لهما –ربما في شيء من المكر– إنها كانت موضع الرعاية، وإنها ركبت الزورق في أمان.

وكانت هذه الإجراءات قد اتخذت في الوقت المناسب؛ لأن ميل الباخرة كان قد أمسى أشد انحدارًا، ومن ثم استبد القلق حتى بالمتهاونين. ورأى بعض الذين تركوا أشياء ثمينة في مقصوراتهم أنه من الأفضل أن يغامروا بالعودة إلى داخل الباخرة للحصول عليها. إلا أن المفاجآت غير السارة كانت في انتظارهم. فقد وجدت سيليني يزبك مقصورتها غارقة تمامًا بالمياه، واكتشف جاس كوهين الشيء نفسه مع مقصورته. وعانت فكتورين، الوصيفة الفرنسية للزوجين ريرسون، محنة أشد إزعاجًا في هذا السبيل. لقد وجدت مقصورتها لا تزال خالية من الماء. ولكن بينما كانت تبحث فيها عما تريده، سمعت بابها يغلق بالمفتاح من الخارج، فأدركت فجأة أن النادل راح يغلق أبواب المقصورات الفاخرة ليمنع السلب والنهب. واستطاعت أن تصرخ في الوقت المناسب لتمنعه من إغلاق الباب عليها وتركها سجينة في المقصورة. ودون أن تعتمد على حظها أكثر مما فعلت، اندفعت عائدة إلى السطح خالية الوفاض.

وكان الوقت، كما بدا بوضوح للجميع، يجري بسرعة. إذ كان توماس أندروز ينتقل من زورق إلى آخر ليستحث السيدات على الإسراع في الركوب قائلًا:

– أيتها السيدات، يجب أن تركبن الزوارق فورًا. ليس ثمة دقيقة

يمكن إضاعتها، ولا تستطيع إحداكن أن تختار الزورق الذي تريد، لا تترددن.. هلم.. هلم!! وكان لأندروز العذر في سخطه وضيق صدره. إذ لم يحدث قط أن كانت النساء غير معقولات كما كُنَّ عندئذ. فبينما كانت إحدى الفتيات تنتظر دورها لركوب الزورق رقم ٨، إذا بها تصيح فجأة قائلة:

- لقد نسيت صورة جاك، ويجب أن آتي بها.

ورغم اعتراض الجميع عليها، اندفعت إلى داخل الباخرة، ثم ظهرت بعد لحظة ومعها الصورة، ثم هرعت إلى الزورق.

وكان هذا كله يجري بسرعة -وفي ذات الوقت بهدوء- بحيث رأى الضابط الثاني لايتوللر أن كبير الضباط وايلد يضيع الوقت عبثًا حين طلب منه أن يساعد في البحث عن الأسلحة النارية. ولكنه أسرع ومضى مع الربَّان، وايلد، والضابط الأول مردوخ إلى المخزن الذي وضعت فيه هذه الأسلحة. ووضع وايلد مسدسًا في يد لايتوللر وقال له:

- ربما تحتاج إليه.

ودس لايتوللر المسدس في جيبه، وعاد مسرعًا إلى الزورق.

وراحت الزوارق تهبط بسرعة الآن إلى الماء، الواحد بعد الآخر. فهبط رقم ٦ في الثانية عشرة وخمس وخمسين دقيقة، ورقم ٣ في الواحدة بعد منتصف الليل.. ورقم ٨ بعد ذلك بعشر دقائق. وفيما كان راكب الدرجة الأولى ويليام كارتر يرقبها وهي تهبط، نصح هاري وايدنر بركوب واحد منها. ولكن وايدنر هز رأسه قائلًا:

- أرى أن أبقى في الباخرة يا بيللي وأغامر بحظي.

ولكن لم يكن جميع طاقم الباخرة على هذا النحو من التفاؤل. فعندما رأى مساعد النادل الثاني هويت كبير النُدُل لاتيمر مرتديًا طوق النجاة فوق معطفه، أخذ يستحثه ليرتديه تحت المعطف -لأن هذا يجعل السباحة أسهل.

وعلى مركز المراقبة، حيث كان الضابط الرابع بوكسهول ورئيس النوتية راو يطلقان المزيد من الصواريخ، ظل بوكسهول غير مؤمن بخطورة الأمر. ومن ثم كان يقول للربان:

- هل الأمر خطير حقًّا يا كابتن؟!

وأجاب الربَّان بهدوء قائلًا:

- لقد ذكر لي المستر أندروز أنها لن تمكث على سطح الماء أكثر من ساعة أو ساعة ونصف ساعة.

أما لايتوللر، فقد وقعت على عاتقه مهمة أشد تعقيدًا. كان مشرفًا على السلم الشديد الانحدار الخاص بالطوارئ، والذي كان يبتدئ من سطح الزوارق حتى السطح «إ»، وكانت المياه ترتفع ببطء على الدرجات، ومن حين إلى آخر كان لايتوللر يمضي إلى مدخل السلم ويحصي الدرجات التي ارتفعت إليها المياه، وكان في مقدوره أن يرى بوضوح؛ لأن الأضواء كانت لا تزال تلمع تحت المياه الخضراء الباهتة.

وأظهر له المسبار «مقياس الغطس» أن الوقت يجري مسرعًا، وكان السطح يزداد ميلًا بسرعة، وأدعى إلى الانزلاق عليه. وقد تعثرت

إحدى الفتيات وسقطت وهي تحاول ركوب الزورق رقم ٩. وأخطأت سيدة أكبر سنًّا، في ملابس سوداء، الخطو في ركوبها الزورق رقم ١٠، وسقطت على الجانب الخارجي للباخرة، وفيما كان الواقفون يشهقون فزعًا، استطاع أحدهم أن يمسكها من كعبها، ثم ساعده آخرون في وضعها على ممر النزهة بالسطح الأدنى. وهكذا صعدت أخيرًا إلى سطح الزورق لتعيد المحاولة، وقد نجحت في هذه المرة.

وفقد بعضهم السيطرة على أعصابهم. فإحدى السيدات العجائز أثارت ضجة كبيرة في الزورق رقم ٩، وأخيرًا تخلصت من الجميع وغادرت الزورق نهائيًّا. وراحت سيدة تندفع هنا وهناك في حالة اهتياج عصبي، وهي تحاول ركوب الزورق رقم ١١. ووقف النادل دتير عند السياج ليساعدها، ولكنها تعثرت وسقطت معه داخل الزورق. ووقفت سيدة بدينة ضخمة بجوار الزورق رقم ١٣ تبكي قائلة بصوت مرتفع:

– لا تضعوني في الزورق، إنني لا أريد ركوب الزورق. إنني لم أركب في حياتي قط زورقًا مكشوفًا.

وتجاهل النادل راي صيحات احتجاجها قائلًا:

– عليكِ أن تركبي، ويحسن أن تلتزمي الهدوء.

وفشلت تمامًا فكرة شحن بعض الزوارق بالركَّاب في الممرات السفلى. فالأبواب التي كان ينبغي استعمالها استعصت على الفتح تمامًا. والزوارق التي كان ينبغي أن تبقى، انطلقت بعيدًا. والركَّاب الذين كان عليهم أن يركبوها تركوا في أماكنهم مهجورين. وعندما هبط الزوجان كالدويل وغيرهما إلى ممر مغلق على السطح «س» أغلق

أحدهم –دون أن يعرف شيئًا عن الخطة المقترحة– باب الممر عليهم. وفيما بعد اكتشف بعض الرجال في السطح الأعلى أمر هذه المجموعة، فأنزلوا إليهم سُلّمًا حيث زحفوا عليه جميعًا صاعدين.

وكان النقص في البحارة المدربين على هذه العملية قد زاد الارتباك سوءًا. لقد عهد إلى بعض البحارة ذوي الكفاية بالإشراف على الزوارق التي أبحرت أولًا. وعهد إلى بعض البحارة القدامى، المدربين، بأعمال أخرى: مثل جمع الفوانيس وفتح نوافذ السطح «أ» والمعاونة في إطلاق الصواريخ. وفقد ستة بحارة حياتهم عندما هبطوا إلى أحد الممرات السفلى دون أن يعودوا قط –لعل المياه حاصرتهم في أعماق الباخرة. ولم يسع لايتوللر إلا أن يحدد توزيع البحارة الباقين لديه، فيعهد بكل زورق إلى اثنين منهم فقط.

وفيما كان الزورق رقم ٦ في منتصف الطريق إلى الماء، هتفت سيدة فيه إلى الواقفين على سطح الزوارق قائلة:

– ليس لدينا هنا غير بحار واحد.

فقال لايتوللر موجهًا الحديث إلى الواقفين حوله من الرجال:

– هل بينكم بحار سابق؟

فقال أحد الواقفين:

– يمكنني أن أذهب إذا شئت.

– هل أنت بحار؟

– إنني قائد يخوت بحرية.

– إذا كنت بحارًا، فيمكنك أن تهبط إلى الزورق من هذا الارتفاع.

وكان المتحدث هو الميجور آرثر جودفري بوتشين نائب رئيس نادي اليخوت الملكي الكندي –وسرعان ما طوح بنفسه خارج السياج، ثم انزلق ببراعة إلى داخل الزورق. وكان أول راكب من الرجال سمح له لايتوللر بالركوب في زورق النجاة في تلك الليلة.

ولكن كان الرجال على الجانب الأيمن من الباخرة أسعد حظًّا. ذلك أن مردوخ استمر في سماحه لركوب الرجال إذا وُجِدَ لهم مجال. وهكذا ركب الطيار الفرنسي بيير ماريشال والمثَّال بول شيفري في الزورق رقم ٧. واستطاع اثنان من التجار أن يجدا مكانًا في الزورق رقم ٥، وعندما حان الوقت لإنزال الزورق رقم ٣ لم يركب فيه هنري سليبر هاربر مع زوجته فحسب، بل صحب معه كلبه البيكينز سن –يات– سن والترجمان المصري حامد حسن الذي صحبه معه من القاهرة.

وعلى نفس هذا الجانب، وقف الدكتور واشنطن دودج مترددًا في ظل الزورق رقم ٣، فلمحه نادل قاعة العشاء راي، وسأله هل ركبت زوجته وابنته، فرد الدكتور بالإيجاب، وشعر راي بالراحة، لأنه كان مهتمًّا بهما اهتمامًا خاصًّا. ذلك أنه كان يقوم على خدمتهما أثناء سفرهما إلى أوروبا على سطح الباخرة أولمبيك. وكان في الواقع هو الذي أقنعهما بركوب التيتانيك عند العودة –أي إنه على نحو ما، كان السبب في وجود آل دودج على الباخرة تيتانيك– ولكن لم يكن ثمت وقت للتفكير الفلسفي، ومن ثم هتف قائلًا للدكتور دودج وهو يدفع به إلى الزورق:

- يحسن أن تركب أنت أيضًا.

وكانت الأمور تجري بدقة بالغة عند الزورق رقم ١، فهناك سأل السير كوزمو داف جوردون وزوجته وسكرتيرتها الآنسة فرانكا نيلي، التي كانت الليدي داف تحب أن تسميها الآنسة فرانكس، الضابط مردوخ عما إذا كان في مقدورهم أن يركبوا، فرد الضابط قائلًا:

- أجل طبعًا. يسرني هذا جدًّا.

ولكن الرقيب جورج سيمونر، الذي كان واقفًا بالقرب من المكان ظن أن مردوخ قال فقط فيما يختص بالسير كوزمو: «نعم.. اقفز»، ثم أقبل أمريكيان، هما: إبراهام سولومون وس. ستنجل، فكانا أيضًا موضع الترحيب. شق على ستنجل أن يعبر السياج، ولكنه استطاع أخيرًا أن يعبره، وأن يتدحرج إلى داخل الزورق. ولم يستطع مردوخ، وكان شديد الميل إلى الدعابة والمرح، أن يملك نفسه من الضحك قائلًا:

- هذا أطرف شيء رأيته في هذه الليلة.

ولم يبقَ أحد في المكان كما لاح عندئذ. فقد أبحرت الزوارق وتحرك الباقون إلى الوراء. وبعد أن تم ركوب الركَّاب الخمسة في أمان، سمح مردوخ بركوب ستة من الوقَّادين، وعهد إلى الرقيب سيمونز بالإشراف على عملية إنزال الزوارق قائلًا له:

- قف بعيدًا عن جانب السفينة، ثم عد حين ندعوك.

ثم لوح بيده للرجال العاملين على المطارح فأداروا المقابض، وهبط الزورق الذي كان يتسع لأربعين راكبًا، باثني عشر فقط.

وفيما كان الزورق يصدر صريره وهو يهبط، كان الميكانيكي والتر هيرست يرقبه من رحبة مقدمة الباخرة، وهو يذكر أنه قال عرضًا على سبيل الملاحظة:

- إذا كانوا يرسلون بزوارق النجاة بعيدًا، أما كان يحسن أن يملأوها بالركَّاب؟!

وفي الدرجة الثالثة بأسفل الباخرة، كان هناك أولئك الذين لم يجدوا حتى الفرصة ليفوتهم الركوب في الزورق رقم ١. فقد احتشد عدد كبير من الرجال والنساء حول نهاية السلم الرئيس في المؤخرة، أي على مسافة بعيدة إلى الوراء عند السطح «إ» كانوا هناك منذ أن جمعهم الندل. وكانوا في أول الأمر يتكونون من السيدات والمتزوجين فقط، ثم أقبل الرجال بعد ذلك من المقدمة مندفعين عبر «طريق سكوتلند» حاملين أمتعتهم. وقد احتشدوا أخيرًا في جلبة وقلق، أقرب ما يكونون إلى سكان بيت واحد منهم إلى ركاب باخرة وهم واقفون تحت الأسقف الخفيضة، والأضواء الساطعة، وبين الجدران البيضاء النظيفة البسيطة.

وكافح نادل الدرجة الثالثة جون إدوارد هارت ليضعهم في أطواق النجاة. ولكن الحظ لم يحالفه كثيرًا؛ لأنه كان من ناحية يؤكد لهم أنه ليس ثمة خطر، ولأن عددًا كبيرًا منهم -من ناحية أخرى- لم يكونوا يفهمون الإنجليزية على نحو ما. ومن ثم راح المترجم موللر يبذل ما في وسعه ليشرح الأمر للأعداد الكبيرة من الفنلنديين والسويديين، ولكن هذا كله كان يمضي ببطء شديد.

وفي الساعة الثانية عشرة والنصف هبطت إليهم الأوامر بإرسال

السيدات والأطفال إلى سطح الزوارق. ولكن لم يكن من المنتظر قط أن يصلوا بمفردهم عبر هذا التيه من الممرات المحرمة بطبيعتها على ركاب الدرجة الثالثة. ومن ثم قرر هارت أن يصحبهم إلى أعلى في مجموعات صغيرة. ولكن هذا يستغرق وقتًا طويلًا، وأخيرًا تكونت منهم قافلة وبدأوا جميعًا في الصعود.

وكانت رحلة طويلة -عبر الدرجات العريضة إلى استراحة الدرجة الثالثة على السطح «س».. ثم عبر رحبة السطح المكشوفة.. ثم عن طريق مكتبة الدرجة الثانية إلى مقصورات الدرجة الأولى. ثم ساروا في الممر الطويل عبر مكتب طبيب الباخرة، ثم الصالون الخاص بخدم وخادمات ركاب الدرجة الأولى، وأخيرًا عبر السلم الكبير المؤدي إلى سطح الزوارق.

وقاد هارت مجموعته إلى الزورق رقم ٨، ولكن مهمته لم تنتهِ حتى في هذه الحالة، فقد كانوا بمجرد ركوبهم الزورق يثبون خارجه ليعودوا إلى أماكن أكثر دفئًا.

وكانت الساعة قد تجاوزت الواحد بعد منتصف الليل عندما عاد هارت إلى السطح «أ» ليعود بمجموعة أخرى. ولم يكن الأمر في هذه المرة أسهل حالًا. فقد ظل عدد من السيدات يرفضن الذهاب معه، هذا بينما أصر عدد من الرجال، من ناحية أخرى، على الذهاب معه. ولكن ذلك لم يكن ممكنًا طبقًا للأوامر الصادرة إليه.

وأخيرًا بدأ الرحلة الثانية في نفس الطريق. وكانت الساعة قد بلغت الواحدة وعشرين دقيقة عندما وصل إلى سطح الزوارق وقَّاد مجموعته

إلى الزورق رقم ١٥. ولم يعد ثمة وقت للعودة مرة أخرى. ومن ثم أمره مردوخ بركوب هذا الزورق مع مجموعته الثانية، ولما مضى به، كانت الساعة قد بلغت النصف بعد الواحدة.

ولم يكن الأمر يحتمل شيئًا من اللباقة والسياسة، وإنما كان على الركَّاب أن يتخذوا هذا القرار أو ذاك. وهكذا استطاع عدد كبير من ركاب المؤخرة أن يتجنبوا طريق الممرات والمنعطفات، وصعدوا مباشرة إلى أعلى الباخرة حيث وقفوا ينتظرون دون أن يجدوا من يرشدهم أو يقودهم. ومن ثم تحطمت بعض الحواجز التي كانت تقوم بين الدرجة الثالثة والدرجات الأخرى. وراح أولئك الذين دخلوا من هذه الثغرات يهيمون في جوانب الباخرة المختلفة. واستطاع بعضهم أن يجدوا الطريق إلى سطح الزوارق.

ولكن معظم الحواجز لم تتحطم. وهكذا راح ركاب المؤخرة الذين شعروا بالخطر وحاول الصعود إلى زوارق النجاة معتمدين تمامًا على أنفسهم.

وأخذوا يشقون طريقهم، كخط طويل من حشود النمل، عبر الممرات في رحبة السطح الخلفية، ومنها إلى أجنحة الدرجة الأولى، ثم عبر الحواجز إلى سطح الزورق.

وتعثر بعضهم وسقطوا تحت الحبال الممتدة عبر رحبة السطح الخلفية، فازدادوا ابتعادًا عن الهدف الذي كانوا يسعون إليه. إلا أنهم استطاعوا أن يجدوا الطريق إلى سلم الدرجة الثانية، فعبروه إلى سطح الزوارق.

ووصل آخرون إلى ممر النزهة على السطح «ب» في الدرجة، ثم عجزوا عن المضي إلى أبعد من هذا. ودفعهم اليأس للتحول إلى سلم الطوارئ الخاص باستعمال طاقم الباخرة. وكان هذا السلم بالقرب من النوافذ المضيئة للمطعم الفرنسي بالدرجة الأولى. وفيما كانت حنة جويلوم تتأهب مع فتاة أخرى للصعود، حانت منهما نظرة إلى الداخل. وقد أدهشتهما الموائد الجميلة المعدة بالأدوات الفضية والأواني الخزفية الثمينة لليوم التالي. وخطر للفتاة الأخرى أن تركل النافذة وتفتحها وتدخل، ولكن حنة أقنعتها بأن الشركة قد تجعلهما تدفعان ثمن ما تُحدثان من خسائر.

وصعد كثيرون من ركاب المؤخرة سلالم طوارئ أخرى من مقدمة رحبة السطح، ومنها إلى الممرات العادية للدرجة الأولى، ثم إلى سطح الزوارق.

وراح آخرون يضربون على الحواجز مطالبين بحق المرور. وفيما كان راكب الدرجة الثالثة دانييل باكلي يصعد بعض الدرجات المؤدية إلى بوابة تفضي للدرجة الأولى، إذا بالراكب الذي كان يسبقه يدفع إلى الوراء بعنف على يد ملّاح كان يقف للحراسة. ووثب الراكب واقفًا وهو أشد ما يكون اهتياجًا واندفع صاعدًا السلم مرة أخرى. وألقى البحار نظرة عليه، ثم أغلق الباب، وانطلق هاربًا. ولكن الراكب حطم القفل، واندفع إلى الداخل وهو يصيح بما سيفعله بالبحَّار إذا قُبض عليه. ومن البوابة المحطمة اندفع باكلي وعشرات آخرون إلى الدرجة الأولى.

وأوقف أحد البحارة، عند حاجز آخر، كاتي جلناي، وكيت

موللينز، وكيت مورفي. «وكان يبدو أن جميع الفتيات الإيرلنديات على الباخرة تيتانيك يسمين كاترين»، وفجأة اندفع راكب المؤخرة جيم فاريل، وكان عملاقًا إيرلنديًّا، من موطن الفتيات، وقال بصوت هادر:

– الله أكبر يا رجل. افتح البوابة وأدخل البنات.

وقد بلغ من التأثير الرائع للسيطرة الناشئة عن قوة الصوت، أن البحار –لدهشة البنات– أطاعه بخضوع وفتح البوابة.

ولكن كان مقابل كل واحد من ركاب المؤخرة يعرف طريقه إلى سطح الزوارق، مئات آخرون من زملائه يهيمون على غير هدى في رحبات وممرات الأسطح الأمامية والخلفية أو عند أسفل سلالم السطح «إ»، وسجن بعضهم داخل مقصوراتهم. وهذا ما حدث لماري آجاثاجلين وأربع من زميلاتها اليائسات عندما عثر عليهن الشاب مارتن جاللير، ثم أسرع يصحبهن إلى زورق رقم ١٣، ثم عاد إلى السطح مرة أخرى. ولجأ آخرون إلى الصلاة والابتهال. فعندما مر راكب المؤخرة جاس كوهين بقاعة طعام الدرجة الثالثة بعد نحو ساعة من الاصطدام، رأى عددًا كبيرًا من الركَّاب مجتمعين فيها وقد أمسك بعضهم بالمسابح.

وكان موظفو المطعم الفرنسي بالدرجة الأولى يمرون بأعصب فترة دون الجميع. ذلك أنهم كانوا في وضع مائع، فلا هم ركاب، ولا هم في الوقت نفسه من طاقم الباخرة رسميًّا؛ لأن المطعم لم يكن خاضعًا في إدارته لشركة هوايت ستار الملاحية، وإنما كان للمسيو جاتي امتياز إدارته.

وهكذا لم يكن لموظفيه صفة معينة على الإطلاق في هذا المجال،

كما كانوا من الفرنسيين والإيطاليين -أي كانوا موضع الريبة البالغة في دوائر الإنجلو- ساكسون في ذلك الوقت من عام ١٩١٢.

ولم يكن لديهم منذ اللحظة الأولى أي فرصة. وقد تذكر النادل جونسون أنه رآهم مجموعين معًا في جناحهم الخاص على السطح «إ» في المؤخرة. وكان المدير جاتي، وكبير الطهاة ومساعده بول موجيه هم الأفراد الوحيدون الذين استطاعوا الوصول إلى سطح الزوارق. وقد أمكنهم هذا؛ لأنهم كانوا يرتدون الملابس المدنية، ومن ثم ظن البحارة أنهم من الركَّاب.

أما في غرفة الآلات في أسفل الباخرة، فلم يفكر أحد، مجرد التفكير، في الخروج منها. لقد كان الرجال يكافحون في استماتة للمحافظة على بقاء الآلات دائرة، والأنوار مضاءة، والمضخات عاملة. وكان كبير المهندسين بيل قد أحكم إغلاق جميع الأبواب المانعة وراء غرفة المراجل رقم ٤ بحيث كانت المياه كلما وصلت إليها، أمكنه نزحها أولًا بأول. وفي الوقت نفسه كان من السهل عليه العمل فيه.

وبذل الميكانيكي فريد سكوت جهده لإنقاذ زميل له حوصر في ممر خلفي وراء الأبواب، وأغلق الميكانيكي توماس رانجر آخر مروحة من مراوح التهوية الخمس والأربعين توفيرًا للاستهلاك الكهربي. وساعد المنسق توماس باتريك ديلون في سحب أجزاء طويلة من أنابيب الأقسام الخلفية المانعة للماء لتقوية عمل المضخات النازحة في غرفة المراجل رقم ٤.

وفي نفس الغرفة كان المنسق جورج كافيل يعمل على إخماد

النيران، وكان هذا العمل مضعفًا للقوى المحركة، ولكنه لم يكن يريد أن يقع أي انفجار عندما تتدفق المياه إلى غرفة المراجل رقم ٤. وكانت الساعة قد بلغت الواحدة والدقيقة العشرين عندما أوشك أن يفرغ من هذه المهمة إلا أنه لاحظ عندئذ تسرب المياه بين فجوات الألواح المعدنية التي تكسو الأرضية. وضاعف الجهد في العمل. وعندما وصلت المياه إلى ركبتيه، رأى أن الوقت حان للخروج من الغرفة. حتى إذا وصل إلى قمة سلم النجاة، بدأ يشعر أنه يتخلى عن زملائه. فلما هبط مرة أخرى، وجد أنهم انصرفوا جميعًا. ومن ثم استراح ضميره، وصعد السلم ثانية للمرة الأخيرة.

وكان معظم زوارق النجاة قد أبحر عندئذ. إذ أخذ الواحد بعد الآخر يبتعد ببطء عن الباخرة تيتانيك، والمجاديف تضرب وتخوض في السطح الزجاجي الأملس للبحر.

وقال أحد النُدُل للمسزج. ستيوارت هوايت عندما بدأ الزورق رقم ٨ يتحرك:

– إنني لم أمسك في حياتي بمجداف. ولكنني أعتقد أن هذا في مقدوري الآن.

وكانت جميع الأنظار، في كل زورق، متعلقة بالباخرة تيتانيك، وكانت صواريها الشاهقة، ومداخنها الكبيرة ترتفع بقوة وقتامة في زرقة الليل الصافي. وكانت ممرات النزهة المضيئة. وصفوف النوافذ المستديرة ساطعة كلها بالأنوار. وكان في مقدور ركاب الزوارق أن يروا ركاب الباخرة وهم مصطفون على السياجات، بل كان في مقدورهم أن

يسمعوا عزف الفرقة الموسيقية في سكون الليل. وبدأ أنه من المستحيل أن يقع سوء لمثل هذه الباخرة الضخمة، ومع ذلك فها هم يهجرونها إلى البحر، وها هي ذي أمامهم، ساطعة بالأضواء من أقصاها إلى أقصاها، وكأنها كعكة عيد ميلاد مائلة.

وأخذت الزوارق تبتعد في تعثر وتثاقل. وتوقف عن التجديف أولئك الذين طلب منهم أن يتريثوا وشرع الذين طلب منهم أن يتجهوا نحو الباخرة المقتربة نحوهم، يكدحون بالتجديف للوصول إليها.

وكانت الباخرة تبدو جد قريبة، بحيث أمر الكابتن سميث ركاب الزورق رقم ٨ أن يسرعوا إليها، ثم يعيدوا الزورق خاليًا إلا من المجدفين ليحمل عددًا آخر من الركَّاب. وفي الوقت نفسه سأل رئيس النوتية راو المشرف على إطلاق الصواريخ، هل يعرف التخاطب بإشارات مورس. فلما أجاب راو أنه على إلمام يسير بها قال الكابتن له:

– اتصل بهذه الباخرة، فإذا استجابت، أخبرها بأننا على ظهر الباخرة تيتانيك، الموشكة على الغرق لكي يعدوا جميع زوارق النجاة التي لديهم.

وكان بوكسهول قد حاول فعلًا الاتصال بها. ولكن راو كان أكثر من متلهف ليجرب حظه معها. ومن ثم أخذ يحاول الاتصال بها بين كل طلقة صاروخ وآخر. ولكن على غير جدوى. وأخيرًا قال للكابتن سميث أنه ظن أنه رأى ضوء باخرة في الجانب الأيمن للتيتانيك. وتطلع الربَّان العجوز إلى الجو بوساطة منظاره المقرب، ثم قال لراو

بأدب إنه ضوء جرم سماوي. إلا أنه معجبًا بحماسة رئيس النوتية الشاب، فأعطاه المنظار ليرى بنفسه.

وفي الوقت نفسه، ظل بوكسهول يطلق الصواريخ، وهو يأمل أنها ستثير انتباه مَن في الباخرة القريبة إن عاجلًا أو آجلًا.

وراح الضابط الثاني ستون، ومساعده جيبسون على مركز المراقبة في الباخرة كاليفورنيان يحصيان الصواريخ –فإذا هي تبلغ في مجموعها خمسة عندما بلغت الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة والخمسين. وحاول جيبسون أن يتصل مرة أخرى بالتيتانيك عن طريق إشارات مورس الضوئية. وفي الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ألقى عليها بمنظاره المقرب نظرة أخرى في نفس الوقت الذي انطلق فيه الصاروخ السادس.

وفي الساعة الواحدة وعشر دقائق اتصل ستون بوساطة أنبوب نقل الصوت بغرفة الخرائط، وأخبر الكابتن لورد بما رأى، فقال له الكابتن:

– هل هي إشارات تدل على الشركة الملاحية؟

فأجاب ستون قائلًا:

– لا أدري. ولكنها تبدو لي صواريخ بيضاء.

ونصحه الكابتن بالاستمرار في إرسال إشارات مورس الضوئية.

وبعد فترة أخرى أعطى ستون المنظار المكبر إلى جيبسون، وقال:

– انظر إليها الآن. إنها تبدو في وضع غريب جدًّا على سطح الماء. وإن أضواءها لتبدو عجيبة أيضًا.

وتأمل جيبسون الباخرة بعناية. لقد بدت مائلة. أو على حد قوله «بدا جانب كبير منها خارج الماء». ولاحظ ستون، الواقف بجانبه، أن ضوءها الأحمر الجانبي قد اختفى.

* * *

الفصل الخامس

«أعتقد أنها انتهت يا هاردي»

وبدا أن البواخر الأخرى لم تفهم ما حدث. فقد تساءلت الباخرة أولمبيك في الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة والعشرين؟

– هل أنتم مبحرون جنوبًا لتلتقوا بنا؟

وراح فيليبس، في صبر، يشرح الأمر قائلًا:

– إننا نضع النساء في زوارق النجاة.

ثم تساءلت الباخرة فرانكفورت:

– هل توجد أي بواخر حولكم الآن؟

ولما تجاهل فيليبس هذا السؤال، عادت الفرانكفورت تسأل المزيد من التفاصيل، ولم يحتمل فيليبس أكثر من هذا، فراح يقول لزميله مهتاجًا وهو يثب:

– إن الأحمق يسألنا ماذا حدث أيها الزميل العجوز؟

ثم راح يرد على هذا الجهاز قائلًا بغضب:

- أيها الأحمق، ابتعد عن طريقنا.

وكان الكابتن سميث يهبط إلى مكتب اللاسلكي بين الحين والآخر. وقد قال ذات مرة: إن القوى الكهربية تضعف تدريجيًّا. وفي مرة أخرى قال إن الباخرة لن تصمد طويلًا. وبعد ذلك أعلن أن المياه وصلت إلى غرفة المحركات. وفي الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة والأربعين، توسل فيليبس إلى عامل اللاسلكي في الباخرة كارباتيا قائلًا:

- أقبلوا بأسرع ما يمكنكم أيها الزميل العجوز. إن المياه في غرف المحركات تكاد تملأ غرف المراجل.

وفي الوقت نفسه ألقى برايد معطفًا على كتفي فيليبس، ثم استطاع أن يشد إليه طوق النجاة. ولكن مشكلة وضع الحذاء في قدميه كانت أكثر تعقيدًا. وقد تساءل فيليبس عما إذا كانت هناك أحذية باقية -ولكن بدا أنه قد لا يكون ثمة حاجة إليها.

وفي ذات مرة سلم الجهاز لبرايد وخرج ليرى ماذا يجري. ولما عاد هز رأسه قائلًا:

- إن الأمور تبدو عجيبة جدًّا.

وكانت الأمور تبدو عجيبة حقًّا. ذلك أن مياه البحر كانت عندئذ قد أغرقت رحبة السطح الأمامي للباخرة، وراحت تجيش حول الروافع والعنابر، وأسفل الصاري الكبير، وترتطم بقاعدة الهيكل الأعلى الأبيض. وكان هدير البخار قد تلاشى، وصفير الصواريخ المزعج للأعصاب قد توقف، ولكن انحدار السطح كان أشد، كما كان الميل

على الجانب الأيسر يبدو رهيبًا.

وفي الساعة الواحدة والدقيقة الأربعين، صاح كبير الضباط قائلًا:

- ليقف الجميع على الجانب الأيمن حتى يمكن موازنتها.

وتحرك الركَّاب والبحارة إلى الجانب الأيمن، واعتدلت الباخرة قليلًا في وضع مستوٍ، واستمر العمل يجري في زوارق النجاة.

وبينما كان الزورق رقم ٢ يستعد للإبحار في الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة والأربعين، صاح النادل جونسون -ذو الجيوب الممتلئة بالبرتقال- يطلب من أحد الموجودين على سطح الزوارق شفرة حلاقة ليقطع بها البرتقال. وألقى إليه البحار ماكوليف بشفرة حلاقة قائلًا:

- تذكر أن تعيدها إليَّ في ساوثمبتون.

ولعل ماكوليف كان آخر رجل في الباخرة تيتانيك يشعر باليقين أنه عائد إلى ساوثمبتون.

وكان الضابط الأول مردوخ أدرى بحقيقة الموقف. فقد تنهد قائلًا لكبير ندل الدرجة الثانية هاردي وهو يسير معه على السطح:

- أعتقد أنها انتهت يا هاردي.

ولم يعد ثمة مشقة في إقناع الركَّاب بتركها، بل لقد وثب بول موجيه مساعد كبير الطهاة عشر أقدام إلى زورق نجاة كان في طريقه إلى البحر. ولما حاول أحد ركاب الأسطح السفلى أن يجذبه إلى الخارج، قاومه بعنف وبقي في الزورق ناجيًا.

ولم يحاول راكب الدرجة الثالثة دانييل باكلي -الذي استطاع أن يصل سالمًا عبر البوابة المحطمة إلى سطح الزوارق- أن يعتمد على مزيد من الحظ والاحتمالات، فوثب هو وعدد آخر من الركَّاب إلى زورق، وقبع فيه يبكي، وأمكن إخراج معظم الرجال من هذا الزورق، ولكنه استطاع أن يحصل على مطرف سيدة بطريقة ما. وقد قال فيما بعد إن المسز آستور هي التي وضعت المطرف عليه. وعلى أي حال، فقد أفلحت هذه الخدعة.

ولكن مثل هذا الحظ لم يحالف شابًّا آخر، لا يزيد عن كونه غلامًا. ذلك لأن الضابط الخامس لاو أمسك به وهو تحت مقعد الزورق رقم ١٤ متوسلًا بقوله إنه لا يحتل موضعًا كبيرًا. وأخرج لاو مسدسه، ولكن الغلام أمعن في التوسل. وعندئذ غير لاو معالجة الموقف، فراح يطلب من الغلام أن يكون رجلًا، وهكذا أخرجه من الزورق على نحو ما. وفي خلال هذا كانت المسز شارلوت كوللبير وغيرها من الراكبات في الزورق ينتحبن بالبكاء، في حين تعلقت ابنتها مارجوري البالغة من العمر ثمانية أعوام في ذراع لاو -بعد أن اشتركت في ضجة البكاء- وصاحت قائلة:

- أوه، يا سيدي، لا تطلق الرصاص أرجوك، لا تطلق الرصاص على هذا الرجل المسكين.

وتوقف لاو برهة، ريثما يبتسم لها ويومئ برأسه ليطمئنها، هذا بينما كان الغلام قد غادر الزورق ورقد بوجهه على السطح بجوار كومة من الحبال.

ولكن مشكلات الزورق رقم ١٤ لم تنتهِ عند هذا الحد، فقد اندفعت إليه موجة أخرى من الرجال. ولكن البحار سكاروت ردهم إلى الوراء بسوط مجدول من الحبال. وفي هذه المرة أخرج لاو مسدسه وصاح قائلًا:

- إذا حاول رجل آخر أن يفعل ذلك. فسوف يلقى هذا.

وأطلق المسدس ثلاث مرات في جانب الباخرة أثناء هبوط الزورق إلى الماء.

واستطاع مردوخ في آخر لحظة أن يوقف هجمة على الزورق رقم ١٥، فقد صاح في المهاجمين بصوت آمر:

- ارجعوا.. ارجعوا.. النساء أولًا.

وكانت المشكلات لا تنقطع عن زوارق النجاة القماشية التي وضعت في المطارح الآلية الخاصة بالزورق رقم ١. ذلك أن حشدًا كبيرًا من الركَّاب راحوا يتدافعون ويتزاحمون محاولين الوصول إليها والركوب فيها.

واستطاع رجلان أن يهبطا في أحدهما. وهنا أطلق الصراف هربرت ماكلروي رصاصتين في الهواء، بينما صاح مردوخ قائلًا:

- اخرجا من هذا.. ابتعدا عن هذا الزورق.

وأثار وميض الطلقات النارية انتباه كل من هيو وولتر وجورنو ستروم ستيفانسون، فهرعا لتقديم المساعدة. وهناك أمسكا المذنبين من الأذرع والأقدام وفي كل مكان وأخرجاهما من الزورق. ثم استمرت عملية شحن الزورق بالسيدات والأطفال.

ووقف جاك ثاير جانبًا مع ميلتون لونج، وكان صديقًا من مدينة سبرنجفيلد بولاية ماساشوستس تعرَّف بها على الباخرة. وكان قد التقيا لأول مرة في تلك الليلة أثناء شرب القهوة بعد العشاء. وبعد الصدمة، ربط لونج -الذي كان مسافرًا بمفرده- نفسه بأسرة ثاير. إلا أنه هو وجاك انفصلا عن كبار آل ثاير في الزحام على السطح أ، وها هما الآن بمفردهما يتبادلان الرأي فيما ينبغي أن يفعلا، على فرض أن بقية أفراد الأسرة قد استقلوا الزوارق وابتعدوا عن الباخرة. وقررا أخيرًا أن ينأيا عن الزورق القماش «س» المزدحم بعدد كبير من الركَّاب، مما يهدد بغرقه.

إلا أنهما كان مخطئين. فقد تحسنت الأمور تدريجيًّا، وهبط الزورق «س» إلى الماء وصاح كبير الضباط متسائلًا عمن يكون المشرف عليه. فلما سمعه الكابتن سميث، التفت إلى رئيس النوتية راو -الذي كان مستمرًّا في محاولاته إرسال إشارات مورس الضوئية- وطلب منه أن يتولى أمر الزورق. ووثب راو إليه، واستعد للتجديف.

وعلى مقربة من هذا كله، وقف الرئيس بروس اسماي يساعد على إعداد الزورق وإنزاله إلى الماء. وكان قد أمسى أكثر هدوءًا مما كان عليه في اللحظات الأولى عندما عنفه لاو، بل لقد بدا أن «طاقم» الباخرة قد اعتبروه في الواقع واحدًا لصيقًا بهم.

وكان اسماي يتخذ هذا الموقف أحيانًا. ولكنه لم يكن موقفه الوحيد بأي حال. ذلك أنه كان يفضل في بعض الأحيان أن يتخذ موقف الراكب، فكان أثناء الرحلة يتقلب بين الموقفين باستمرار.

ففي مدينة كوينز تاون كان يتخذ موقف الربَّان الأعلى. وقد ذكر لكبير المهندسين بيل درجات السرعة التي يريدها في مختلف المراحل أثناء الرحلة. وكان أيضًا قد حدد موعد الوصول إلى نيويورك في صباح يوم الأربعاء. بدلًا من مساء يوم الثلاثاء، ولم يكن قد استشار الربَّان سميث في كل هذا.

ولكن اسماي كان فيما بعد، أثناء الرحلة، أقرب ما يكون إلى راكب، مستمتعًا بأطايب المطبخ الفرنسي.. وبالنزهة على الأسطح.. وبلعب البريدج، وبالشاي، والحلوى على مقعده الخاص بالسطح «أ» في الجانب الأيسر من الباخرة.

وكان في يوم الأحد هذا قد اتخذ دوره كواحد من طاقم الباخرة، وعلم بالرسالة المنذرة بوجود جبال الثلج العائمة، والمرسلة من باخرة أخرى. ذلك أن الكابتن سميث أخبره بهذه الرسالة المنذرة التي تلقاها من الباخرة بالتيك حين كان اسماي جالسًا في قاعة النخيل المشرقة بضوء الشمس، وفي الوقت الذي أعلن فيه النفير عن حلول موعد طعام الغداء. وفي أثناء فترة ما بعد الظهر، كان اسماي «الذي كان يحب أن يذكر الناس بحقيقة مركزه» يتناول البرقية من جيبه، ويلوح بها أمام المسز ريرسون والمسز ثاير. ولكن الكابتن سميث عثر عليه في غرفة التدخين قبل العشاء المبكر، أي عندما كانت أضواء الشفق تنساب من النوافذ المكسوة بالنور الذهبي، واسترد البرقية منه، وعندئذ مضى اسماي إلى المطعم الفرنسي، متأنقًا في ملابس العشاء متخذًا كل سمات راكب الدرجة الأولى.

وبعد الاصطدام، عاد ليغدو واحدًا من «طاقم» الباخرة، فمضى إلى مركز المراقبة حيث وقف مع الربَّان سميث. وراح يتبادل الرأي مع كبير المهندسين، وها هو الآن رغم سلاطة لسان الضابط الخامس لاو -يصدر الأوامر والتعليمات بشأن زوارق النجاة.

ثم تغير الموقف مرة أخرى، فإذا هو، في اللحظة الأخيرة يركب الزورق «س» ويهبط معه. وكان بالزورق ٤٢ راكبًا، بينهم بروس اسماي.. كمجرد راكب من الركَّاب.

وكانت مواقف معظم الركَّاب مختلفة: فقد جلس ويليام ستيد الواثق من نفسه دائمًا، يقرأ بمفرده في قاعة التدخين بالدرجة الأولى. وقد بدا في نظر الوقَّاد كيمسن الذي مر بالقاعة، أنه بدا كمن قرر البقاء حيث هو، مهما حدث.

ووقف القس المحترم روبرت د. بيتمان -من مدينة جاكو نسفيل- بعيدًا عن زحمة الركَّاب يرقب أخت زوجته المسز آدابو آز، ثم يهتف لها قائلًا:

- إذا لم ألتقِ بكِ مرةً أخرى في هذا العالم، فسوف أفعل في العالم الآخر.

ولما بدأ الزورق في الهبوط، خلع عناقته، وألقى بها إليها على سبيل التذكار.

واعتمد جورج ويدنر وجون ثاير على سياج سطح الزوارق يتبادلان الحديث بهدوء في الموضوع. وعلى عكس ما كان يظن

الشاب جاك ثاير، لم يكن والده آمنًا في زورق النجاة، بل لم يكن لديه في الواقع أي تفكير في ركوب أحد الزوارق. وعلى مسافة غير بعيدة، كان آرشي بات وكلارنس مور، وآرثر ريرسون وولتر دوجلاس واقفين معًا. وكانا لميجور بات هادئ السمت جدًّا، بلا مسدس في يده، ودون أن يقوم بدور كبير، رغم ما قيل عنه بعد ذلك إنه تولى الأمور عمليًّا في الباخرة.

وعلى مسافة أبعد إلى الوراء، وقف جاي يانز –وقد وصف بأنه مقامر كان يهدف إلى مكاسب وفيرة في أول رحلة للباخرة– بمفرده، وبلا أصدقاء. وعند ركوب إحدى السيدات الزورق، سلمها ورقة منتزعة من مفكرة مواعيده، وموقعًا عليها بأحد أسمائه المستعارة الكثيرة بعد أن كتب فيها ما يلي:

«إذا نجوتِ فأخبري أختي المسز ف. ج. أدامز بمدينة فندلاي بولاية أوهيو أنني من الغرقى. ج. هـ. روجرز».

ولكن بنيامين جاجنهايم كتب رسالة ذات تفاصيل أكثر:

«إذا حدث شيء لي، فأخبري زوجتي أني بذلت كل جهدي لأداء واجبي».

والواقع أن جاجنهايم بذل أكثر مما في وسعه من جهود.

وقد خلع أثناء هذه المجهودات الصديرية التي جعله النادل ايتشر يرتديها، وكذلك خلع طوق النجاة. وهكذا وقف مع سكرتيره في ملابس السهرة الفاخرة، يقول:

– لقد ارتدينا أحسن ما لدينا. ونحن على استعداد الآن لأن نغرق كأي سادة مهذبين.

وكان هناك أيضًا عدد قليل من الأزواج والزوجات. فالزوجان أليسون كانا واقفين يبتسمان على ممر النزهة بالسطح، وقد أمسكت المسز أليسون ابنتها الصغيرة لورين بيد، وبالأخرى أمسكت زوجها. واعتمد الزوجان ستروس على سياج سطح الزوارق، وقد لف كل منهما ذراعه حول خصر الآخر. ووقف زوجان شابان من غربي أمريكا ينتظران في مكان قريب. ولما سأل الضابط لايتوللر الزوجة عما إذا كانت تقبل أن يضعها في زورق نجاة، ردت قائلة في ابتسام:

– لا، أبدًا. لقد بدأنا معًا.. وإذا لم يكن من الموت بد، فلنمت معًا.

وراح أرشيبولد جراسي، وكلينسن سميث ونحو عشرة آخرين من ركاب الدرجة الأولى يساعدون البحارة في شحن الزوارق الأخيرة، وبينما كانوا يساعدون الآنسة كونستانس ويلارد –من مدينة دولوث بولاية مينيسوتا، ابتسموا لها وطلبوا منها أن تتذرع بالشجاعة. أما هي فقد لاحظت تفصد حبات كبيرة من العرق على جباههم.

وكان العرق يتفصد من لايتوللر أيضًا، ورغم أنه خلع معطفه واكتفى بالصديرية والمنامة، فقد ظل يعرق من فرط الجهد المبذول، وكان يبدو غريب المنظر في تلك الليلة القارسة البرد، بحيث هتف به الجراح المساعد سيمبتون –المهذار دائمًا قائلًا:

– هاللو لايتس؟ هل تشعر بالدفء؟

وكان الجرَّاح المساعد واقفًا مع العجوز الدكتور أولوين، والصراف ماكلروف ومساعد الصراف باركر. وانضم لايتوللر إليهم لحظة، وتصافح الجميع وتبادلوا تحيات الوداع.

ولم يكن ثمة وقت لأكثر من هذا، ذلك لأن نظرة واحدة إلى سلم الطوارئ كانت تدل على أن المياه وصلت الآن إلى السطح «س»... أي كانت ترتفع بسرعة بالغة. ولكن الأضواء كانت ساطعة لم تزل.. والموسيقى تعزف الرجتيم. والإيقاع لا يزال جميلًا.

ومن زوارق النجاة لم يكن قد تبقى إلا اثنان. وكان أحدهما وهو الرقم ٤ مثار وجع الدماغ طيلة الليل. فقبل ساعة كان لايتوللر قد أنزله بحذاء السطح «أ» قاصدًا شحنه بالركَّاب هناك. ولكن النوافذ كانت كلها في ذلك السطح مغلقة. ثم لاحظ البعض أن قضيب قياس الأعماق في الباخرة قد برز من جانبها وأمسى تحت الزورق مباشرة، فبادر البحار سام باركز والوقاد جاك فولي لإزالته. ولكنهما استغرقا وقتًا طويلًا في البحث عن معول، ومن ثم أسرع لايتوللر –خوفًا من ضياع الوقت– إلى زوارق أخرى، تاركًا هذا الزورق ليشحنه فيما بعد.

وفي خلال هذا كان الركَّاب الذين ينتظرون الزورق رقم ٤ يتذرعون بالصبر، وكانوا جميعًا من ذوي الشخصيات الكبيرة. وقد حرص آل آستور ووايدنر وثاير وكارتر وريرسون على البقاء معًا. وعندما أصدر لايتوللر أمره بشحن الزورق رقم ٤، ذهب أولًا الأطفال والزوجات والخادمات والمربيات إلى ممر النزهة ليركبوا معًا كمجموعة. ولما وجدوا أن هذا غير ممكن، بقوا حيث هم.

وأقبل معظم الأزواج بعد ذلك، وهكذا بقيت خلاصة المجتمع الراقي في نيويورك وفيلادلفيا تنتظر أكثر من ساعة فتح النوافذ وإزالة قضيب قياس الأعماق من تحت الزورق. وأُمروا ذات مرة بالصعود إلى سطح الزوارق، ولكن النادل الثاني دود أمرهم بالعودة فورًا. وهنا هتفت المسز ثاير قائلة وقد نفد صبرها:

- أخبرنا فقط أين نذهب ونحن نطيع الأمر. ولقد أمرتمونا أن نصعد إلى هنا، وها أنتم أولاء تأمروننا بالعودة مرة أخرى.

وعاد لايتوللر في الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة والأربعين. وهنا وقف وإحدى قدميه في الزورق رقم ٤، والأخرى على قاعدة إحدى النوافذ. ووضع بعضهم مقاعد السطح بجوار السياج لتقوم مقام الدرجات، ووقف الرجال جانبًا لتمر النساء والأطفال أولًا من خلال النوافذ.

وساعد جون جاكوب آستور زوجته للمرور من إطار النافذة. ثم سأل عما إذا كان يستطيع أن يصحبها؛ لأنها كما قال «في حالة خاصة».

فأجابه لايتوللر قائلًا:

- لا يا سيدي، غير مسموح للرجال بركوب هذا الزورق حتى تركب النساء والأطفال جميعًا.

وسأله آستور عن رقم الزورق، فقال لايتوللر إنه الزورق رقم ٤. واعتقد الكولونيل جراسي أن آستور يسأل عن رقم الزورق لكي يهتدي إلى زوجته فيما بعد، أما لايتوللر فكان واثقًا أنه سأل عن الرقم وهو يزمع أن يشكوه.

ثم جاء دور آل ريرسون. فقد لاحظ المستر ريرسون أن خادمتهم الفرنسية فكتورين لا ترتدي طوق نجاة. ومن ثم أسرع وخلع طوقه وشده إليها. ولما قادت المسز ريرسون ابنها إلى النافذة، صاح لايتوللر قائلًا:

– لا يمكن أن يركب الزورق هذا الغلام.

فتقدم المستر ريرسون في غضب واستنكار وقال:

– من الطبيعي أن يمضي هذا الغلام مع أمه. إنه في الثالثة عشرة.

وسمح للغلام بالركوب، ودمدم لايتوللر قائلًا:

– لن يركب غلمان آخرون.

وفي الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة والخمسين، هبط الزورق رقم ٤ إلى الماء، من مسافة ١٥ قدمًا فقط. وقد ذهلت المسز ريرسون حين رأت مبلغ جنوح السفينة ومدى غوصها في الماء. وأخذت ترقب المياه وهي تتدفق إلى قاعات السطح «س» وتمور حول الأثاثات العصرية في المقصورات والأجنحة الفاخرة. ثم نظرت إلى سطح النزهة حيث رأت المستر ريرسون لا يزال واقفًا بجوار السياج مع المستر ويدنر يتطلع إلى الزورق. وكان يبدو عليهما الهدوء التام.

ولم يبقَ غير زورق واحد، وهو الزورق القماش «د» الذي كان قد وُضع في المطراح الخاص بالزورق رقم ٢، وأمسى معدًّا للشحن. ولم يعد هناك وقت يضيع. إذ أخذت الأنوار تضعف ويحمر لونها، والأدوات الخزفية تتحطم في مكان ما بأسفل. ورأى جاك ثاير رجلًا

يتهالك مترنمًا وفي يده زجاجة خمر قوية، وضعها في فمه وجرعها كلها. وقال ثاير لنفسه:

– لو خرجت من هذه المحنة سالمًا، فإنني أرجو ألا أرى وجه هذا الرجل مرة أخرى طيلة حياتي.

ولكن هذا الرجل كان من بين الناجين الذين التقى بهم ثاير فيما بعد. ولم يحاول لايتوللر أن يغامر بشيء. لقد تحرك معظم الركَّاب إلى الخلف حقًّا، ولكن المشكلة لم تزل باقية أمامه؛ إذ لم يكن لديه غير زورق واحد يتسع لسبعة وأربعين راكبًا، بينما الباقون على سطح الباخرة كانوا يبلغون ١٦٠٠ نسمة. ومن ثم أمر البحارة بأن يتماسكوا بالأذرع في حلقة واسعة حول الزورق «د»، وألا يسمحوا لغير النساء بالمرور.

وحمل والدٌ طفلين صغيرين إلى حافة الحلقة، فحملهما البحارة إلى الزورق وتراجع الوالد إلى جموع الركَّاب. وكان يُدعى، كما قال، هوفمان، وقد أخبر الذين حوله أنه كان مسافرًا بالطفلين لزيارة أقارب له في أمريكا. ولكن تبين أن اسمه الحقيقي كان ناثاتريل، وأنه اختطف طفليه من زوجته المهجورة.

وصحب هنري ب. هاريس، المخرج المسرحي، زوجته المسز هاريس إلى حافة الحلقة، وهناك قيل له إنه لا يستطيع أن يتقدم إلى أبعد من هذا، فتنهد قائلًا:

– نعم، أعرف. لسوف أبقى هنا.

واندفع الكولونيل جراسي مع المسز جون موري براون، والآنسة إيديث إيفانز –وكانتا اثنتين من السيدات الخمس اللاتي بلا رجال، وكان قد عرض عليهن خدماته أثناء الرحلة. وأوقف عند حلقة البحارة، ولكنه أدخل السيدتين وراح يرقبهما وهما تتجهان إلى الزورق «د» في اللحظة التي بدأ فيها الهبوط.

واستدارت الآنسة إيفانز إلى المسز براون قائلة:

– اركبي أنتِ أولًا، فإن لديكِ أطفالًا ينتظرونكِ في الوطن.

وأسرعت تساعد المسز براون على اجتياز السياج، وعندئذ صاح أحدهم آمرًا الزورق بالهبوط، فهبط الزورق «د» آخر زوارق النجاة، في الساعة الثانية وخمس دقائق –ومن دون إيديث إيفانز.

وفي السطح الأسفل مباشرة، كان هيو وولتر وجورنو ستروم ستيفانسون واقفين بمفردهما عند السياج بعد أن مرا بفترة من العمل المرهق في معاونة المسز كاندي.. ومحاولة إنقاذ الزوجين ستروس.. وانتزاع أولئك الجبناء من الزورق «س»، وها هما يقفان على السطح «أ» لتقديم المعونة إلى أي شخص آخر يحتاج إليهما. ولكن السطح كان مهجورًا تمامًا، والأنوار يزداد لونها احمرارًا.

وقال وولتر:

– إننا في مأزق شديد. هلمَّ نمضي من خلال الباب في الطرف الآخر.

وسارا قدمًا نحو الطرف المفتوح في نهاية ممر النزهة. ولما خرجا إذا بالمياه تتدفق على الممر وتصعد بسرعة إلى ركبهما. وراحا يعتمدان على السياج وهما يحاولان الهرب، ثم رأيا على بعد تسع أقدام الزورق القماش رقم «د» يهبط على جانب الباخرة. ورأيا بوضوح أنهما إذا لم يركباه عندئذ فقد ضاعا إلى الأبد.

وصاح وولتر:

- هلمَّ نقفز إليه، فما زال في مقدمته متسع لنا.

وألقى ستيفانسون بنفسه إلى الزورق. فسقط رأسًا على عقب في مقدمته. وتبعه وولتر بعد لحظة وقد سقط نصف جسمه داخل الزورق والنصف الآخر خارجه، وبعد لحظة وصل الزورق «د» إلى الماء، واندفع فوقه بعيدًا عن الباخرة، وصاح البحار ويليام لوكاس قائلًا للآنسة إيديث إيفانز الواقفة على السطح:

- هناك زورق آخر سوف ينزل من أجلك.

* * *

الفصل السادس

«هكذا الأمر في مثل هذا الوقت»

وخيم سكون عجيب على الباخرة تيتانيك بعد انطلاق جميع زوارق النجاة. لقد انتهت مظاهر الانفعالات والارتباك، ووقف المئات المتخلفون عليها فوق الأسطح العليا بها. وبدا أنهم يتجمعون بداخلها، ليبتعدوا بقدر الإمكان عن سياجاتها الخارجية.

وتخلف جاك ثاير وميلتون لونج على الجانب الأيمن لسطح الزوارق، وكانا يفحصان أحد مطارح الزوارق الخالية، ويستخدمانه كقضيب مقياس ليعرفا منه نسبة غوص الباخرة بين لحظة وأخرى. ثم أخذا يرقبان الجهود المبذولة على غير جدوى للانتفاع بزورقين من القماش كان موضوعين على سطح جناح أقامه الضباط. وكانا يتبادلان الرسائل لتوصيلها إلى عائلتيهما. وفي بعض الأحيان، كانا يستغرقان في الصمت.

وفكر ثاير في كل الأوقات الطيبة التي عاشها، وفي كل المباهج الآتية التي لن يستمتع بها أبدًا، وفكر في والديه وفي أخواته وإخوته.

وأحس أنه بعيد جدًّا، وكأنما هو ينظر إلى الحياة من مسافة بعيدة، بعيدة.. ثم خامره الأسى العميق على نفسه.

وأحس الكولونيل جراسي، الواقف على مسافة يسيرة، باختناق عجيب في أنفاسه. وفي شرح هذا الإحساس فيما بعد بقوله: إنه يشبه «اختناق الأنفاس» الذي أحس به بطل تروجان المعروف لتلاميذ المدارس، عندما قال لنفسه ببساطة:

- «وداعًا لكل شيء في الوطن».

وفي مكتب اللاسلكي، لم يكن ثمة وقت للتحسر على النفس أو للشعور باختناق الأنفاس، إذ بقي فيليبس مستمرًّا في العمل على الجهاز، ولكن التيار الكهربي كان ضعيفًا، وكان برايد يقف بجواره يرقب الركَّاب وهم يفتشون جناح الضباط وقاعة ألعاب القوى بحثًا عن أطواق نجاة إضافية.

وكانت الساعة الثانية وخمس دقائق، عندما دخل الكابتن سميث مكتب اللاسلكي للمرة الأخيرة قائلًا:

- لقد أدى كل منكما واجبه كاملًا، ولن يستطيع أن يفعل أكثر مما فعل، فهلمَّ إلى الخارج.. لقد حان الوقت لكي ينجو كل واحد بنفسه.

ورفع فيليبس وجهه برهة، ثم عاد يعمل على الجهاز. وعندئذ قال الكابتن مرة أخرى:

- إنني أعفيكما من العمل. وعلى كل واحد منكما أن يهتم بنفسه.

وبعد برهة أضاف قائلًا بصوت هادئ:

– هكذا الأمر في مثل هذا الوقت.

واستمر فيليبس في عمله. وبدأ برايد يجمع أوراقه. وعاد الكابتن سميث إلى سطح الزوارق، وسار يتحدث بلا رسميات مع الركَّاب هنا وهناك. وقد قال للوقاد جيمس ماكجان:

– حسنًا يا رفاق.. كل إنسان مسؤول الآن عن نفسه.

ثم للميكانيكي ألفريد هوايت:

– حسنًا يا رفاق.. أعتقد أنه قد آن أن ينجو كل إنسان بنفسه.

ثم للنادل إدوارد براون:

– حسنًا يا رفاق.. ابذلوا جهدكم للنساء والأطفال، ثم اهتموا بعد ذلك بأنفسكم.

ثم للرجال العاملين على سطح جناح الضباط:

– لقد أديتم يا رفاق واجبكم، لينجو كل إنسان الآن بنفسه.

ثم عاد إلى مركز المراقبة.

وقرر بعض الرجال أن يعملوا بنصيحة الربَّان، فوثبوا إلى الماء. وثب الخبَّاز الليلي والتر بلفورد إلى أبعد ما يستطيع، وكأنه قذيفة مدفع حتى هبط في حالة جلوس. وهو لا يزال حتى اليوم يرتعد ويلهث بأنفاسه كلما ذكر برودة الماء القارسة. وحاول الميكانيكي فريد سكوت، الخارج من فوره من غرفة المراجل رقم ٤ أن ينساب على منزلق للزوارق، خال، ولكنه أخطأ في المحاولة وسقط على بطنه في الماء. ثم التقطه الزورق رقم ٤ الذي كان لم يزل بالقرب من الباخرة

محاولًا النفاذ من البراميل ومقاعد الممرات الملقاة من فوق الأسطح. وقام النادل كننجهام بوثبة عارمة، ونجح أيضًا في الوصول إلى الزورق رقم ٤.

ولكن معظم طاقم الباخرة ظلوا عليها. ومن فوق سقف جناح الضباط، لاحظ الضابط لايتوللر المنسق همنج وهو لا يزال يحاول تخليص أحد الزورقين القماشيين من مكانه. وكان المفروض أن يكون همنج قد رحل منذ أمد بعيد مع طاقم الزورق رقم ٦. ومن ثم قال لايتوللر:

– لماذا لم تنزل من الباخرة يا همنج؟

– أوه. لا يزال هناك متسع من الوقت يا سيدي.

وعلى مسافة غير بعيدة، كان ثمة نادلان شابان يرقبان الضابط لايتوللر وهمنج وغيرهما وهم يعملون. وكان هذان النادلان في أنوار سطح الزوارق المتلاشية، واقفين بستراتهما المنشاة البيضاء معتمدين على السياج، يتناقشان في مدى الوقت الذي يمكن أن تصمد فيه الباخرة. وفي جوانب أخرى من السطح، تناثر خمسة عشر من غلمان الخدم في الدرجة الأولى، وقد بدا عليهم أيضًا الشعور بالراحة –وكأنما سرهم أنه لم يعد هناك من يحول بينهم وبين رغبتهم في التدخين. وعلى مسافة يسيرة وقف مدرب ألعاب القوى ت. و. ماكولي، وكان رجلًا نشيطًا صغير الجسم في ملابس من الفانلة البيضاء، يوضح السبب الذي من أجله أبى أن يرتدي طوق النجاة –قال: إنها حقًّا تحتفظ بالإنسان طافيًا. ولكنها تعوق قدرته على السباحة وتؤدي به إلى الغرق في النهاية. أما هو

فكان يشعر أن في مقدوره أن يسبح من دونها سباحة أسرع وأكثر انطلاقًا.

وبالقرب من المدخل الأمامي للسلم الكبير، أي فيما بين المدخنتين الأولى والثانية، كانت الفرقة الموسيقية، التي أمسى أفرادها الآن يرتدون أطواق النجاة على ستراتهم -لا تزال تعزف الرجتيم في حماسة.

وكذلك كان الركَّاب على هذا النحو من الهدوء، وإن كان بينهم أيضًا الذين آثروا القفز إلى الماء. فبعد أن أودع فريدريك هويت زوجته في الزورق القماش رقم «د» وثب إلى الماء، وراح يسبح إلى المكان الذي ظن أن الزورق سيمر فيه. وقد صح ظنه إذ ما لبث الزورق أن مر بالقرب منه فالتقطه، إلا أنه ظل بقية الليلة مبلل الثياب تمامًا، ومن ثم راح يجدف بكل قواه حتى لا تتجمد أطرافه.

ولكن الركَّاب كانوا بوجه عام واقفين ينتظرون، أو رائحين وغادين بهدوء على سطح الزوارق. واستمرت خلاصة المجتمع الراقي في نيويورك وفيلادفيا ملتصقة بعضها ببعض. ففي مجموعة وقف جون ب. ثاير، وجورج وهاري ويدنر، ودوان ويليامز، وعلى مقربة منهم أخذ اثنان -أقل أبهة- هما الكولونيل جراسي والمستر كلينسن سميث يتمشيان. وبقي آستور معظم الوقت في عزلة. وظل الزوجان ستروس جالسني على مقعدين من مقاعد السطح.

وأخذ جاك ثاير وميلتون لونج يتناقشان في هل يقفزان إلى الماء أم لا. وكان مطراح الزورق الذي يستعملانه كمسبار لقياس مدى غوص الباخرة قد دل على أن التيتانيك تغرق بسرعة. وكان ثاير يريد أن يقفز، وأن يستخدم منزلق الزوارق وينساب عليه إلى الماء، ويسبح بعيدًا إلى

زوارق النجاة التي كانت تبدو أمامه على مسافة خمسمائة أو ستمائة ياردة. وكان سباحًا ماهرًا. أما لونج –الذي لم يكن على مثل هذه البراعة في السباحة– فقد عارض في هذا أو أقنع ثاير بعدم المحاولة.

وعلى مسافة أخرى إلى الأمام، أعار الكولونيل جراسي مبراته للرجال الذين كانوا يكافحوا لتخليص الزورقين القماشيين المشدودين إلى سقف جناح الضباط. وكان يبدو عليهم أنهم يمرون بفترة عصيبة دون أن يدري الكولونيل جراسي لماذا.

وكان بعض رجال الدرجة الثالثة قد استطاعوا الآن أن يجدوا طريقهم إلى سطح الزوارق، في حين هام آخرون على وجوههم في اتجاه مؤخرة الباخرة التي كانت ترتفع عندئذ. وكان سطح المؤخرة، المخصص عادة لركاب الدرجة الثالثة، قد أمسى فجأة مركز الجاذبية لجميع درجات الركَّاب.

وكان أوليوس إيلزيس أحد الذين بلغوا سطح الزوارق، وكان قد أمضى معظم الوقت وهو يقطع الطريق من المؤخرة إلى السطح وبصحبته ابن عمه، وشقيق زوجته، والفتاتان النرويجيتان. وهناك وقف مع آخرين من ركاب المؤخرة، رجالًا ونساء، ينتظرون، على غير هدى، أحدًا يرشدهم إلى ما ينبغي أن يفعلوه.

وفي الساعة الواحدة والنصف، فتح ضابط بوابة الدرجة الأولى وأمر النساء بالصعود إلى سطح الزوارق. وسمح للرجال بهذا أيضًا في الساعة الثانية. ولكن الكثيرين منهم آثروا عندئذ أن يبقوا حيث هم؛ لأنهم رأوا بوضوح أن منطقة المؤخرة من الباخرة ستكون آخر جزء

يغرق منها. أما إيلزيس وابن عمه وشقيق زوجته فقد صعدوا إلى سطح الزوارق؛ آملين أن يجدوا زورقًا للنجاة لم يزل، ولكن آخر زورق كان في تلك الآونة يبتعد عن الباخرة.

وهكذا وقفوا هناك. يخامرهم القلق لوجودهم في الدرجة الأولى، كما خامرهم نفس القلق الناشئ من الظروف التي دفعت بهم إلى هذه الدرجة، وراح إيلزيس يرقب النوتية وهم يحاولون تخليص الزورقين القماشين. ثم حدث أن هتف أحد الضباط وهو يبحث عن مزيد من الأيدي العاملة:

- ألا يوجد أحد من البحَّارة بين الركَّاب؟

وكان إيلزيس قد أنفق من سنوات عمره السبع والعشرين، ست عشرة سنة في ركوب البحر، ومن ثم شعر أن عليه أن يجيب النداء، ولكن ابن عمه وشقيق زوجته توسلا إليه ألا يفعل قائلين:

- لا، لا.. دعنا نبقى هنا معًا.

وهكذا وقفوا معًا، ولكنهم كانوا يشعرون بشيء من الحرج، فلم يحاولوا تبادل الحديث. وازداد شعورهم بالحرج عندما اقترب المستر والمسز ستروس منهم، فسمعوا السيد العجوز يقول لزوجته:

- أرجوكِ أن ترتدي طوق النجاة لكي تنجي.

فقالت له بإصرار وتوسل:

- لا.. بل دعني أبق معك.

وأشاح إيلزيس بوجهه إلى الجهة الأخرى.

وفي داخل الباخرة، كان للسكون السابغ على المقاصير والغرف المهجورة دوره في المسرحية. فالثريا البلّورية الفاخرة في المطعم الفرنسي، كانت تتدلى بزاوية مخبولة، ولكن مصابيحها الساطعة الضوء كانت تضيء ألواح الجدران البنية الفاخرة المصنوعة من خشب السنديان الفرنسي، ثم السجادة الوردية اللون؛ وكانت بعض مصابيح الموائد الصغيرة ذات الظلل الحريرية القرمزية قد تساقطت على الأرض. أما في المطبخ، فكان ثمة صوت شخص يبحث عن شيء، لعله شخصًا أراد أن يشد من أزره بالطعام.

وكانت الاستراحة المفروشة بأثاثات على طراز عصر لويس الخامس عشر بمدفأتها الضخمة، ساكنة خالية. وكذلك كان الحال في قاعة النخيل. ولو مر عليها أحد في تلك اللحظة، لعز عليه أن يصدق أن هذه القاعة كانت، قبل أربع ساعات فقط، زاخرة برجال وسيدات في ملابس فاخرة أنيقة، يحتسون قهوة ما بعد العشاء، وينصتون إلى عزف الفرقة الموسيقية نفسها التي تعزف الآن أنغامًا خفيفة على السطح الأعلى.

ولم تكن قاعة التدخين خالية تمامًا. فعندما أطل برأسه أحد النُدُل في الساعة الثانية وعشر دقائق، دهش حين رأى فيها توماس أندروز واقفًا بمفرده، وقد ألقى طوق نجاته بلا عناية على الغطاء الأخضر لإحدى موائد اللعب، وكان عاقدًا ذراعيه على صدره، مذهول النظرات، فاقد النشاط والحيوية. وبعد برهة من الصمت المهيب، تجرأ النادل وقال في تردد:

- ألن تبذل محاولة النجاة يا مستر أندروز؟

ولم يسمع ردًّا.. بل لم يبدُ عليه أي أثر ينم عن أنه سمع، وإنما اكتفى بنّاء التيتانيك بالحملقة إلى ما أمامه. وكان على الجدار المكسو بخشب الماهوجنى أمامه لوحة رسم ضخمة عنوانها «نحو العالم الجديد».

وعلى الأسطح في الخارج، كانت الجموع لا تزال تنتظر، والفرقة الموسيقية لا تزال تعزف.. وقليل يبتهلون مع الكاهن المحترم توماس ر. بايلز الراكب بالدرجة الثانية. وبدا على آخرين أنهم مستغرقون في أفكارهم.

وكان هناك الشيء الكثير الجدير بالتفكير فيه. فالكابتن سميث كان يفكر في الإشارات اللاسلكية الخمس التي تلقاها طيلة اليوم بشأن جبال الثلج العائمة، وكانت آخر رسالة قد حددت تمامًا الموضع الذي كان ينتظر أن يلتقي فيه بالجبل الذي صدم الباخرة. وهناك مقياس الحرارة التي هبطت الدرجات فيه من ٤٣ فهرنهايت في الساعة السابعة إلى ٣٢ فهرنهايت في الساعة العاشرة مساء. ثم درجة حرارة مياه البحر التي هبطت إلى ٣١ فهرنهايت في الساعة العاشرة والنصف.

وكان في مقدور عامل اللاسلكي جاك فيليبس أن يفكر في الإشارة السادسة بشأن جبال الثلج العائمة -عندما حاولت الباخرة كاليفورنيان أن تخطره بها في الساعة الحادية عشرة مساء، فصاح طالبًا منها الصمت. إن هذه الرسالة السادسة لم تصل قط حتى إلى مركز المراقبة.

وشعر جورج ك. كليفور -من بوسطون- بشيء من الرضا الممزوج بالأسى، حين تذكر أنه زاد قيمة التأمين على حياته مبلغ خمسين ألف دولار قبل الرحلة بدقائق.

أما بالنسبة لإيزيدور ستروس، فكانت هناك المفارقة الخاصة بوصيته. لقد أغرت فقرة خاصة فيها المسز ستروس لأن تكون «أنانية بعض الشيء ولا تفكر كثيرًا في غيرها»، ولما كانت طيلة حياتها تضحي من أجل الغير، فقد جعلتها هذه الفقرة الخاصة تبغي الاستمتاع بالحياة بعد وفاة زوجها. ولكن ها هي ذي الأقدار تسخر من المستر ستروس وتحرمه من تحقيق أمنيته النابعة من إعجابه بصفات زوجته الطيبة.

وكانت ثمة ذكريات صغيرة ترتد الآن لتعذب الإنسان في مثل هذا الوقت، فإيديث إيفانز تذكر قول أحد المنجمين حين «حذرها من البحر». وأخذ ويليام ستيد يعاني من ذكرى حلم رأى فيه شخصًا ما يلقي القطط من نافذة بناية مرتفعة. وتنبأ تشارلز هايز قبل الحادث بساعات قليلة بأن الوقت قد حان «لوقوع أكبر وأفظع حادث في البحر».

ولعل اثنين كانا يتساءلان عن السبب الذي من أجله ركبا هذه الباخرة، ذلك أن آرشي بات لم يكن يريد أن يستقلها على الإطلاق، ولكنه كان في حاجة إلى الراحة والاستجمام، ومن ثم ألح فرانك على الرئيس تافت لكي يبعث بات برسالة إلى روما –حقًّا إنها مهمة رسمية، ولكن الوقت كان ربيعًا في روما أيضًا. وكذلك لم يكن في رأي كبير الضباط وايلد أن يكون على ظهر هذه الباخرة قط، لقد كان يعمل بانتظام على الباخرة أولمبيك.. ولكن شركة هوايت ستار نقلته في اللحظة الأخيرة إلى التيتانيك، لقد رأوا أن تجاربه ستكون ذات فائدة في رحلتها الأولى، وكان وايلد يعتبر هذا النقل ضربة حظ سعيد.

وفي مكتب اللاسلكي ظل فيليبس يكافح ليجعل الجهاز مستمرًّا

في العمل. وفي الساعة الثانية وعشر دقائق سجل إشارتين -سمعهما في خفوت من الباخرة فيرجينيان، وهو يحاول أن يصلح من أمر الجهاز ليظفر بنتائج أفضل. وقام برايد بدورة تفتيشية أخيرة. فلما عاد وجد سيدة مغشيًّا عليها قد حملت إلى المكتب فأجلسها على مقعد، وقدم لها قدح ماء. وجلست السيدة تلهث وزوجها يروح عليها. وأخيرًا أفاقت، فأخذها زوجها وانصرف.

ومضى برايد إلى ما وراء الستار حيث كان ينام هو وفيليبس. وهناك جمع كل النقود، وأرسل نظرة أخيرة على سريره المنكوش، وخرج من وراء الستار مرة أخرى حيث رأى فيليبس لا يزال مكبًّا على جهازه، مستغرقًا فيه تمامًا. ولكن كان في المكتب عندئذ أحد الوقَّادين يفك -برفق- طوق نجاة فيليبس.

وهجم برايد على الوقَّاد، ووثب فيليبس أيضًا واقفًا. وتصارع الرجال الثلاثة داخل المكتب. وأخيرًا طوى برايد ذراعه حول خصر الوقَّاد، وظل فيليبس يلكمه المرة بعد الأخرى، حتى سقط الوقَّاد مغشيًّا عليه بين ذراعي برايد.

وبعد لحظات سمعا المياه وهي تخور صاعدة في ممر السطح «أ» ثم وهي ترتفع إلى مركز المراقبة. وهنا صاح فيليبس قائلًا:

- هل نهرب؟!

وألقى برايد بالوقَّاد على الأرض، وهرع الرجلان إلى سطح الزوارق. وظل الوقَّاد راقدًا حيث سقط.

واختفى فيليبس في مؤخرة الباخرة، وسار برايد قدمًا وانضم إلى الرجال العاملين على سطح جناح الضباط، والمحاولين تخليص الزورقين «أ» و«ب». وكان ذلك مكانًا غريبًا تودع فيه الزوارق، لا سيما إذا كان عددها عشرين لإنقاذ ألفين ومائتين وسبعة من الركَّاب والبحارة. لقد كان من العسير، والباخرة على هذا النحو من الميل، إنزال الزورقين «س» و«د» المربوطين بجوار مطارح الزوارق الخشبية الأولى. ولكن الأمر كان مستحيلًا بالنسبة للزورقين «أ» و«ب».

ولكن النوتية لم ييأسوا. فإذا لم يكن في الإمكان إنزال الزوارق إلى الماء، فربما أمكن إعدادها لتطفو على سطح البحر عندما تصل المياه إليها. وهكذا راحوا يكدحون لتخليصها: لايتوللر، ومردوخ، والمنسق همنج، والنادل براون، والميكانيكي هيرست وعشرات آخرون.

كان المنسق همنج يعمل على الجانب الأيسر، ويكافح لتشغيل الرافعة الدولابية للزورق «ب». وكان يأمل في إمكان إنزاله إلى الماء لو استطاع فقط أن يعد له مكان الانزلاق من فوق سطح جناح الضباط. واستطاع أخيرًا أن يدير الرافعة وأن يعطي مقبضها للضابط السادس موري الواقف على السطح، ولكن موري صاح قائلًا:

– إنني في غير حاجة إلى الرافعة، ولسوف نترك الزورق على السطح.

ورأى همنج أنه لا سبيل إلى تخليص الزورق «ب» بهذه الطريقة، ومن ثم وثب وسبح إليه. وفي الوقت نفسه، دفع الزورق إلى حافة السطح، فانزلق على بعض المجاديف إلى سطح الزوارق مقلوبًا رأسًا على عقب.

وعلى الجانب الأيمن، كانوا يعانون نفس المشقة مع الزورق «أ» وأخيرًا وضع بعضهم ألواح الخشب على جدران جناح الضباط وجعل منه ما يشبه المنزلق، ثم راحوا ينزلون الزورق عليها برفق ومقدمته أمامًا، ولكن المسافة ظلت بعيدة حتى الوصول إلى السطح؛ لأن التيتانيك كانت قد مالت إلى حد كبير على جانبها الأيسر؛ ولم يكن ثم في مقدورهم أن يدفعوا الزورق إلى أعلى للوصول به إلى سطح الزوارق.

وكان الرجال لا يزالون يعالجون أمر الزورقين القماشين، عندما ارتفعت المياه إلى مركز المراقبة في الساعة الثانية والربع، وتدفقت إلى الأمام حيث غطت سطح الزوارق. واستدار الكولونيل جراسي والمستر كلينسن سميث واتجها نحو المؤخرة، ولكنهما ما كادا يسيران بضع خطوات حتى اعترض سبيلهما فجأة عدد كبير من الرجال والنساء المندفعين من الأسطح السفلى. وكان يبدو عليهم جميعًا أنهم من ركاب الدرجة الثالثة.

وفي تلك اللحظة ضرب الموسيقار هارتلي على أوتار قيثارته، فانتهت بذلك قطعة الرجتيم، ثم إذا بنغمات القطعة الأخرى المسماة «الخريف» ترفرف عبر السطح، وتنطلق في سكون الليل بعيدًا فوق مياه البحر.

وأخذت النساء في زوارق النجاة ينصتن في دهشة وعجب. لقد بدا الأمر من بعيد، رائعًا مهيبًا رهيبًا.. أما من قريب، فكان الأمر مختلفًا، كان الركَّاب يسمعون الموسيقى دون أن يحفلوا بها؛ لأن الأحداث الخطيرة كانت تشغلهم عنها.

وصاحت سيدة لبيتر دالي مدير فرع ليما لشركة هايز وأولاده بلندن، وكان يرقب المياه وهي تتدفق على السطح الواقف عليه.

- أوه. أغثني.. أغثني.

فرد عليها قائلًا:

- يا سيدتي الطيبة، أغيثي نفسكِ. إن الله وحده القادر على إغاثتكِ الآن.

ولكنها توسلت إليه ليساعدها على القفز إلى الماء. وبعد أن فكر برهة، رأى أنه لن يستطيع أن يتخلص من هذه المشكلة بسهولة، ومن ثم أمسك بذراعها بسرعة وساعدها على القفز. وفيما هو يهم بالقفز أيضًا، إذا بموجة عاتية تكتسح سطح الزورق وتقذف به بعيدًا عن الباخرة.

وفارت المياه بالزبد، ومارت حول قدمي النادل براون وهو يكدح في جذب الزورق «أ» إلى حافة السطح. ثم إذا هو يدرك أنه لا حاجة به إلى المزيد من العناء؛ لأن الزورق لم يلبث أن طفا على سطح الماء، فوثب إليه، وقطع حبال المؤخرة، وصاح طالبًا من بعض الأشخاص أن يخلصوا المقدمة... وفي اللحظة التالية اكتسحت نفس الموجة التي قذفت بيتر دالي والزورق «أ» بعيدًا عن الباخرة أيضًا.

وظلت مقدمة التيتانيك تغوص وتغوص، ومؤخرتها ترتفع تدريجيًّا. وبدا أيضًا أنها تتحرك إلى الأمام. وكانت هذه الحركة هي السبب في الموجة التي قذفت بدالي وبراونن وبعشرات آخرين بعيدًا عن الباخرة.

وراقب لايتوللر الموجة من سقف جناح الضابط، ورأى الجموع وهي تتراجع على السطح في الجهة المرتفعة أمامها. وشاهد الأشخاص الأسرع حركة وهم ينجون منها، والأبطأ حركة وهم يقعون تحت وطأتها ويضيعون فيها. وعرف أن هذا الانسحاب ليس إلا إطالة لعذاب الانتظار أمام الموت. واستدار واتجه نحو المقدمة وقفز إلى الماء. ولما طفا على السطح، رأى برج المراقبة المرتفع أصبح في مستوى المياه، واستبدت به الغريزة العمياء، ودفعته للسباحة نحوه كشاطئ للأمان.

ولكنه تخلص من سيطرة هذه الغريزة، وحاول أن يسبح بعيدًا عن الباخرة، ولكن المياه كانت تتدفق إلى أجهزة وعيون التهوية أمام المدخنة الأولى مباشرة، ومن ثم دُفع بقوة إلى الوراء، ولكنه تعلق بأحد أسلاك عيون التهوية، وتمنى في قرارة نفسه أن يحتمله السلك، وتساءل عن المدة التي سيمكنه أن يصمد وهو متعلق هكذا بأحد أسلاك التهوية.

ولكنه لم يعرف الإجابة قط؛ ذلك لأن عاصفة من الهواء الساخن اندفعت من مكان ما بأسفل الباخرة إلى عيون التهوية، وقذفت بلايتوللر إلى السطح، فأخذ يشهق ويشرق، وأخيرًا سبح بعيدًا.

وكذلك كان هارولد برايه محتفظًا برباطة جأشه. فعندما تدفقت الموجة، أمسك بمربط مجداف الزورق «ب» الذي كان ملقى في وضع مقلوب على سطح الزوارق بالقرب من المدخنة الأولى، وقذفت الموجة بالزورق وببرايد وبعشرة آخرين بعيدًا عن الباخرة. وظل الزورق مقلوبًا، وهكذا وجد برايد نفسه يقاوم الغرق تحته.

ولم يكن الكولونيل جراسي على هذا النحو من البراعة البحرية. فقد ظل بين الجموع، ثم قفز مع الموجة، وكأنه يمارس رياضة القفز والسباحة. ثم ارتفع برأسه فوق سطحها، وتعلق بقاع السياج الذي كان يحيط بسقف جناح الضابط، ورفع نفسه عليه، ورقد منبطحًا على وجهه بجوار قاعدة المدخنة الثانية.

وقبل أن ينهض كان السقف قد غرق بالمياه أيضًا، وهكذا وجد الكولونيل جراسي نفسه يدور ويلف في دوامة من المياه، وحاول أن يتشبث مرة أخرى بالسياج، ولكنه حين تبين أن هذه المحاولة ستزيده غوصًا ضرب الماء بقدمه ضربة قوية، وخلص نفسه من السياج، وسبح بعيدًا عن الباخرة التي كانت قد أصبحت تحت سطح الماء.

ولم يستطع كبير الطهاة جون كوللنز أن يفعل شيئًا إزاء هذه الموجة؛ إذ كان يحمل بين ذراعيه طفلًا. وقد ظل خمس دقائق يحاول مع أحد نُدُل السطح مساعدة أم وطفليها من ركاب الدرجة الثالثة، وكانوا قد سمعوا أولًا أن هناك زورقًا على الجانب الأيسر من الباخرة، فلما أسرعوا إليه، قيل لهم إنه على الجانب الأيمن، وعند الوصول إليه قال لهم أحد الأشخاص إن أحسن فرصة للنجاة هي الإسراع إلى المؤخرة.. وعندئذ وقفوا حائرين مذهولين، وكان كوللنز ممسكًا بأحد الطفلين عندما اكتسحتهم الموجة جميعًا. ولم ير كوللنز أحدًا منهم بعد ذلك، كما أن الموجة قذفت بالطفل من ذراعيه بعيدًا.

ورأى جاك ثاير وميلتون لونج الموجة وهي مندفعة أيضًا. وكانا واقفين عند سياج الجانب الأيمن، في مواجهة المدخنة الثانية مباشرة،

يحاولان أن يبقيا بعيدًا عن الجموع المتدفقة نحو المؤخرة. وبدلًا من الالتجاء إلى مكان أكثر ارتفاعًا، رأيا أن الوقت قد حان للقفز بعيدًا. وتصافحا عندئذ. وتمنى كل منهما حظًّا سعيدًا للآخر. ووضع لونج ساقيه فوق السياج، بينما ركبه ثاير وأخذ يخلع معطفه. ونظر لونج إليه وهو لا يزال متعلقًا بالسياج في الجانب الآخر، وقال:

- هل أنت يا عزيزي؟

فقال ثاير مؤكدًا:

- امض أنت، وأنا وراءك مباشرة.

وانزلق لونج هابطًا ووجهه نحو الباخرة، وبعد لحظات رفع ثاير ساقه، وجلس على السياج ووجهه نحو البحر. وكان مرتفعًا عن سطح الماء بنحو عشر أقدام. وأخيرًا اندفع واثبًا إلى أبعد مسافة ممكنة عن الباخرة.

ومن هاتين الطريقتين في مغادرة الباخرة، كانت طريقة ثاير هي الأجدى.

ولم تصل الموجة قط إلى أولوس إيلزيس. فقد كان وهو واقف بجانب المدخنة الرابعة على مسافة بعيدة جدًّا إلى الوراء. وكان هذا الجانب من الباخرة يرتفع تدريجيًّا بدلًا من أن يهبط تحت سطح الماء.

وفيما كانت المؤخرة ترتفع، سمع إيلزيس أصوات فرقعة وتهشم وسلسلة من الارتطامات المكتومة.. وأصوات تحطم الأواني الزجاجية وكركرة المقاعد وهي تتدحرج إلى أسفل.

وبلغ من شدة ميل الباخرة، أن الواقفين في المؤخرة أصبحوا عاجزين عن التوازن، فسقطوا في المياه، وراح إيلزيس يرقبهم وهم ينزلقون إلى المياه المتدفقة على السطح. وكان هو وأقاربه متعلقين في حبل من حبال أحد مطارح الزوارق.

وقال له شقيق زوجته:

– يحسن أن نقفز، وإلا فإن قوة الجذب إلى أسفل ستودي بنا.

فقال إيلزيس:

– لا. لن نقفز الآن؛ لأننا لن نجد ملاذًا في أي مكان آخر. ولهذا يحسن أن نبقى هنا أطول مدة ممكنة.

وعاد شقيق زوجته يصيح قائلًا:

– بل يجب أن نقفز.

فرد إيلزيس بحزم قائلًا:

– لا. ليس الآن.

وبعد لحظات أخرى، أي عندما كانت المياه على مسافة خمس أقدام، وثب الرجال الثلاثة أخيرًا وهم متماسكون بالأيدي، ثم طفوا إلى السطح وهم يشرقون بالماء. ووجد إيلزيس نفسه مشتبكًا في حبل سقط عليه من مكان ما، فخلص به ليطلق نفسه من ذلك الحبل، وعندئذ، اكتسحت المياه قريبيه بعيدًا عنه. ورغم أنه استطاع على نحو ما أن يخلص نفسه من الحبل، إلا أنه قال لنفسه:

– لقد ضعتُ!

وفي خضم الحبال ومقاعد السطح والألواح والمياه الفائرة الثائرة لم يستطع أحد أن يعرف ماذا حدث لمعظم الآخرين غيره، وكان الراكبون في زوارق النجاة يستطيعون رؤيتهم وهم متعلقون كجموع النمل في مثابات الأسطح والروافع وقضبان أعيُن التهوية أثناء ارتفاع المؤخرة وغوص المقدمة. أما عن قرب، فكان من اليسير رؤية ما يحدث. وذلك رغم أن الأنوار كانت -للعجب- لا تزال مضاءة، مرسلة وهجًا خافتًا شاحبًا.

أما بناء عن القصص التي ذكرت فيما بعد، فقد لقي آرشي بات حتفه بأكثر من عشر وسائل مختلفة، كلها تحدث عن بطولته، ولكن لم يكن ثمة ما يؤيدها. فطبقًا لما ذكرت إحدى الصحف، قيل إن الآنسة ماري يونج مدرسة الموسيقى لأبناء تيدي روزفلت، تذكرت أن آرشي بات هتف لها قائلًا:

- وداعًا يا مس يونج.. اذكريني بالخير عند قومي بالوطن.

ولكن الصحيفة في الوقت نفسه نشرت أن المس يونج قالت إنها رأت جبل الثلج العائم قبل الاصطدام بساعة.

وبناء على حديث صحفي مع المسز هنري ب. هاريس، وصف آرشي بات كبطل من أبطال القوة، استعمل قبضتيه في السيطرة على الضعفاء الجبناء. ومع ذلك فإن لايتوللر، وجراسي، وغيرهما من العاملين على زوارق النجاة لم يروه إطلاقًا. وعندما تذكرت المسز وولتر دوجلاس أنها رأته بالقرب من الزورق رقم «٢» في الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة والأربعين، كان واقفًا بهدوء في معزل عن الجميع.

وكان الأمر كذلك مع جون جاكوب آستور. لقد وصف الحلَّاق أوجست هـ. ويكمان الدقائق الأخيرة مع المليونير الكبير. كان حديثًا يدور حول الموضوعات البسيطة التي تدور عادة على مقعد الحلَّاق، بل لعلها أقرب إلى التفاهة والكذب أيضًا، قلت له هل تسمح وتصافحني؟ فقال: «بكل سرور..»، ومع ذلك فقد قال الحلَّاق ويكمان أيضًا: إنه غادر الباخرة في الواحدة والدقيقة الخمسين -أي بنصف ساعة قبل مغادرة المليونير لها.

ويذكر واشنطن دودج، الخبير المثمن بسان فرانسيسكو، قصة واحدة عن نهاية بات وآستور. ذلك أن الصحف ذكرت أقواله في هذا الشأن «لقد غرقا وهما واقفان على مركز المراقبة جنبًا إلى جنب، ولا يمكن أن أكون مخطئًا في تعرفي عليهما»، ومع ذلك كان الدكتور دودج في الزورق رقم ١٣ على بعد نصف ميل من الباخرة عند غرقها.

وكذلك لا يعرف أحد قط ماذا حدث للكابتن سميث. لقد قال بعضهم فيما بعد إنه أطلق الرصاص على نفسه. ولكن لم يقم أي دليل على هذا. فقبل النهاية مباشرة، رآه «النادل» إدوارد براون يدخل مركز المراقبة وبوق الصوت لا يزال في يده. وبعد لحظة أخرى، دخل المنسق همنج إلى مركز المراقبة عفوًا، فوجده خاليًا. وبعد غرق الباخرة رآه الوقَّاد هاري سينيور في الماء محتضنًا طفلًا. وبجمع هذه الأقوال، يمكن الجزم بأن نهاية الكابتن سميث كانت أبعد شيء عن الانتحار. وإنما كانت تتفق مع طبيعته المناضلة التي رمز إليها يومًا بقوله:

- إن شعورًا ما من العجب لا يكاد يفارقني، على نحو ما، لا سيما

عندما أرقب من مركز قيادتي سفينة تطفو وتهبط في خضم بحر هائج، شاقة طريقها فوق وفي قلب الأمواج العاتية. إن هذا المنظر درس في الكفاح لكل لإنسان.

وتساقط الجميع، بعضهم فوق بعض، المرئيون منهم وغير المرئيين، المعروفون والمغمورون، عندما ازداد مقدم الباخرة غوصًا، ومؤخرتها ارتفاعًا. وغرقت نغمات موسيقى «الخريف» مع أفراد الفرقة الموسيقية عند تساقطهم في المياه مع آلاتهم العازفة. وانطفأت الأنوار، ثم توهجت مرة أخيرة، ثم انطفأت إلى الأبد. ولم يبق غير مصباح بترولي يرسل أضواءه المرتعشة من قمة صاري المؤخرة.

وازدادت أصوات الارتطامات المكتومة وتهشم الزجاج ارتفاعًا، واستمر هدير الأصوات يدوي عبر المياه كلما انفصل عن الباخرة جزء متحرك.

ولم يحدث قط أن اجتمع في صعيد واحد خليط كهذا! -٢٩ غلاية ومرجلًا، والنسخة النادرة من رباعيات الخيام، وثمانمائة من الخزانات الفاخرة المصنوعة من خشب الجوز والمطعمة بالصدف. وخمسة عشر ألف زجاجة بيرة وجعة... وسلاسل مراسي ضخمة «تزن كل سلسلة نحو ١٧٥ رطلًا»... وثلاثون خزانة لحفظ عصي الجولف ومضارب التنس وجهاز العرس الخاص باليانور ويلدر، وأطنان من الفحم، وعلبة الميجور بوتشين المعدنية، وثلاثون ألف بيضة طازجة، وعشرات من علب البلح المحفوظ، وخمسة بيانوات فاخرة، وساعة مكتب صغيرة كانت في المقصورة رقم ٣٨، وكبّاس الغوص الفضي الكبير.

وظل هذا الهدير يزداد: التكاعيب المنهارة، أواني نبات اللبلاب والمقاعد المضفورة في المقهى الباريسي «كافييه بارزيين».. وعصي موائد القمار.. ومحولات الأجهزة التليفونية الخمسين.. ومحركان مترددان[1] والتربين العجيب ذو الضغط المنخفض.. وثماني دستات من كرات التنس الخاصة لدونري وشركاه، وسلة أدوات خزفية لتيفاني، وعلبة قفازات للماريشال فيلد، وجهاز صنع الثلج، الرائع في السطح، (ج). وسيارة بيلي كارتر الإنجليزية الجديدة. وحقائب سفر آل ريرسون الستة عشر التي أعدتها فيكتورين أحسن إعداد.

ولما ازداد الميل انحدارًا، سقطت المدخنة الأمامية رأسًا على عقب. واصطدمت بالمياه في الجانب الأيمن مرسلة رشاشًا ضخمًا وصوت ارتطام ارتفع فوق الضجيج والصخب. وراح الميكانيكي وولتر هيرست يقاوم الغرق في البحر الثائر، وقد كاد رماد المدخنة يعمي عينيه. واستطاع بحسن حظه أن ينجو، ولكنَّ سباحين آخرين تحطموا تمامًا تحت المدخنة التي كانت تزن عشرات الأطنان من الحديد الصلب. إلا أن سقوط هذه المدخنة كان بركة للضابط لايتوللر، وبرايد، وغيرهما من المتعلقين بالزورق القماش رقم «ب» المقلوب. لقد سقطت المدخنة بجواره مباشرة، فدفعت به بعيدًا نحو ثلاثين ياردة من جانب الباخرة الهابط تدريجيًّا.

وأصبحت التيتانيك الآن في وضع رأسي تمامًا، فقد كانت مرتفعة عموديًّا في الهواء، ابتداء من مدخنتها الثالثة إلى المؤخرة، وكانت

(١) كباسان يتحركان إلى الأمام وإلى الخلف.

رفاصاتها الثلاثة تبدو -حتى في بهيم الليل- لامعة بالمياه المتقاطرة منها. وقد بدت في نظر الليدي داف جوردون كإصبع تشير إلى السماء. أما في نظر هارولد برايد فقد لاحت كبطة شارعة في الغوص داخل الماء.

وهناك في زوارق النجاة، كان ركابها لا يكادون يصدقون أعينهم، لقد ظلوا أكثر من ساعتين يراقبون، وهم يأملون ضد الأمل، أن تنجو التيتانيك رغم غوصها التدريجي إلى الأعماق. ولكن عندما وصلت المياه إلى أضوائها الحمراء والخضراء علموا أن النهاية أمست وشيكة. إلا أنه لم يخطر ببال أحد أنه ستكون على هذا النحو -من الدوي الرهيب، ومن ارتفاع مؤخرتها في زاوية قائمة بالنسبة للماء، ومن ظهور الأنجم اللامعة من خلال فجوة مربعة من بعيد كأنها بطاقة تهنئة.

ولم يرقب المنظر بعض ركاب زوارق النجاة، ففي الزورق القماشي رقم «س» انحنى الرئيس بروس اسماي على المجداف -لأنه لم يستطع أن يحتمل رؤية الباخرة وهي تغرق.. وفي الزورق رقم «أ» أدار هنري ستنجل ظهره قائلًا: «لم أعد أستطيع النظر أكثر من هذا». وفي الزورق رقم ٤ أخفت أليزابث أوستيس وجهها.

ومرت دقيقتان. وتوقف الضجيج أخيرًا، وتراجعت التيتانيك متوازنة إلى الوراء قليلًا. ثم بدأت، ببطء، في الغوص، متحركة في ميل شديد. وبدا وهي تنساب إلى أسفل كأنها تستجمع قوتها للإسراع، ولما غطت المياه سارية العلم في مؤخرتها كانت سرعتها في الغوص قد سببت صوتًا يشبه التجرع.

وقال أحد الركَّاب وهو يتنهد للرقيب لي في الزورق رقم ١٣:

- لقد غرقت.. وهذه هي نهايتها.

وسمعت المسز أدا كلارك في غموض شخصًا يقول في الزورق رقم ٤:

- لقد غرقت.

إلا أنها بسبب إحساسها بالبرد الشديد، لم تهتم كثيرًا. ولكن الأمر كان هكذا مع معظم السيدات. لقد جلسن في حالة ذهول وشرود دون أن يبدو عليهن أي انفعالات عنيفة. ونظر الضابط الثالث بيتمان في ساعة يده وهو في الزورق رقم ٥ وقال:

- الساعة الآن الثانية والدقيقة العشرون.

وعلى بعد عشرة أميال، كان الضابط الثاني ستون، والضابط تحت التدريب جيبسون يرقبان، وهما فوق الباخرة كاليفورنيان، هذه الباخرة العجيبة وهي تختفي ببطء. لقد بهرتهما طيلة فترة المراقبة تقريبًا -وذلك بصواريخها التي كانت تطلقها، وبطريقتها العجيبة التي كانت تطفو بها فوق سطح الماء. وقال جيبسون على سبيل الملاحظة: إنه لا يعتقد أنها كانت تطلق الصواريخ على سبيل التسلية. ووافقه ستون على ذلك قائلًا:

- نعم.. إن الباخرة لا تطلق الصواريخ في البحر دون سبب.

وفي الساعة الثانية بدت أنوار الباخرة العجيبة منخفضة جدًّا في الأفق، ومن ثم ظن الضابطان أنها لا شك تبتعد بسرعة. وأخيرًا قال ستون لصاحبه آمرًا.

- اتصل بالكابتن وقل له إن الباخرة تختفي في الناحية الجنوبية

الغربية، وإنها أطلقت ثمانية صواريخ.

وسار جيبسون إلى غرفة الخرائط وبلغ هذه الرسالة، ونظر الربَّان لورد إليه في خمول النوم وهو راقد على أريكته، ثم قال:

- وهل كانت كلها صواريخ بيضاء؟

ورد جيبسون بالإيجاب. وسأله الربَّان عن الوقت، فرد جيبسون إن ساعة كشك عجلة القيادة تعلن الثانية وخمس دقائق بعد منتصف الليل.

وتقلب الكابتن لورد على جانبه الآخر، وانصرف جيبسون.

وفي الساعة الثانية والدقيقة العشرين، قرر ستون أن الباخرة العجيبة قد اختفت مبحرة تمامًا. وفي الساعة الثانية والدقيقة الأربعين شعر أنه يجب عليه أن يخبر الكابتن بنفسه. فاتصل به عن طريق أنبوبة الصوت، ثم استأنف التأمل في سكون الليل.

* * *

الفصل السابع

«ها هو ذا قميص نومك الجميل قد ضاع»

ولما انطبقت مياه البحر على الباخرة تيتانيك، قالت الليدي داف جوردون في الزورق رقم «١» لسكرتيرتها الآنسة فرانكا نيللي:

– ها هو ذا قميص نومكِ الجميل قد ضاع.

وكان هناك ما هو أكثر كثيرًا من قميص نوم الآنسة فرانكا نيللي قد ضاع في تلك الليلة من شهر أبريل... بل أكثر من أكبر باخرة في العالم... أي شحنتها وحياة ألف وخمسمائة واثنين من الناس.

ومنذ ذلك الحين لم يعد قط هناك من يدفع باخرة للاصطدام بجبل ثلجي عائم، غير حافل بالتحذيرات، شديد الثقة في آلاف الأطنان من الحديد والصلب والأربطة. ومن ثم شرعت عابرات المحيط منذئذٍ تهتم برسائل التحذير من وجود جبال الثلج العائمة، فتتبعد عنها، أو تخفف من سرعتها. ولم يعد هناك من يؤمن بوجود «السفن غير القابلة للغرق».

وكذلك لم تعد جبال الثلج العائمة تُترك لتزحف في المحيطات دون رقابة. فبعد غرق الباخرة تيتانيك، أنشأت الحكومتان الإنجليزية والأمريكية دوريات بحرية دولية لمراقبة جبال الجليد العائمة. ونرى اليوم كاسحات خفر السواحل تعالج أمر جبال الثلوج العائمة الخبيثة التي تطفو نحو خطوط الملاحة البحرية، وقد نقل الخط الملاحي الشتوي مسافة كبيرة إلى الجنوب زيادة في الاحتياط.

ولم تعد هناك باخرة ذات جهاز لاسلكي تعمل نصف الوقت، وإنما زودت جميع عابرات المحيط بأجهزة وعمال لاسلكيين للعمل أربعًا وعشرين ساعة في اليوم. ومن ثم فلن يحدث أبدًا أن تنقلب الدنيا رأسًا على عقب بينما يستغرق في النوم عامل لاسلكي مثل سيريل إيفانز بعد أن فرغ من نوبته على بعد عشرة أميال.

وكانت تلك أيضًا آخر مرة تنزل فيها عابرة محيط إلى البحر دون أن تزود بزوارق نجاة تكفي جميع من عليها. لقد أبحرت الباخرة تيتانيك التي كانت حمولتها ٤٦٣٢٨ طنًّا دون أن تزود بما ينبغي من معدات الإنقاذ اللازمة. فقد كان من الواجب على كل البواخر الإنجليزية التي تزيد حمولة الواحدة منها على عشرة آلاف طن أن تبحر وعلى ظهرها ما لا يقل عن ستة عشر زورق نجاة، سعتها خمسة آلاف وخمسمائة قدم مربعة، فضلًا عن أطواق وعوامات تبلغ نسبتها ٧٥٪ من سعة زوارق النجاة.

وعلى هذا الأساس كانت التيتانيك تحمل زوارق سعتها تسعة آلاف وستمائة وخمس وعشرون قدمًا، أي كانت حمولتها تسعمائة واثنين

وستين راكبًا. ولكنها في الواقع اتسعت لألف ومائة وثمانية وسبعين راكبًا. وقد شكت إدارة شركة هوايت ستار من أن أحدًا لم يقدر بعد نظرها في ذلك الشأن. ومع ذلك فإن هذه الحمولة لم تكفِ إلا لنسبة ٥٢٪ من الألفين ومائتين وسبعة الذين كانوا على ظهرها، ويمثلون ٣٠٪ فقط من حمولتها الكلية، ومنذ ذلك الحين أصبحت القواعد واللوائح في غاية البساطة –زوارق نجاة لجميع الموجودين على ظهر الباخرة.

وكذلك كان هذا الحادث خاتمة لفوارق الدرجات عند عملية الإنقاذ. لقد ظلت شركة هوايت ستار تنكر هذا اللون من التفرقة، وأيدتها في هذا الإنكار التحقيقات التي جرت. ومع ذلك فقد ثبت بالأدلة القاطعة أن ركاب الدرجات الدنيا ضُربوا عند محاولتهم الوصول إلى سطح الزوارق. لقد منع دانييل باكلي من الوصول إلى الدرجة الأولى.. ونجا أولوس إيلزيس من سطح المؤخرة عندما بدأ آخر زورق للنجاة يبتعد عن الباخرة. وقَّاد النادل هارت مجموعتين من النساء إلى السطح الأعلى، بينما حجزت مئات في أسفل. وقد كان ركاب المؤخرة يتسلقون الروافع في رحلة السطح بالجانب الخلفي، وأخذ غيرهم يرتقون الدرجات العمودية ليصعدوا إلى الأسطح العليا.

ثم كان هناك الركَّاب الذين رآهم الكولونيل جراسي، والضابط لايتوللر وغيرهما يبرزون من الأسطح السفلى قبيل غرق الباخرة تمامًا بلحظات. وكان الكولونيل جراسي، حتى تلك اللحظة الخيرة، واثقًا بأنه لم يكن على ظهر الباخرة نساء؛ لأنه كان من الصعوبة أن تجدهن عند شحن الزوارق الأخيرة. ومن ثم انزعج حين رأى عشرات منهن يظهرن

فجأة. والإحصائيات تكشف عن حقيقة أمرهن. فإن قائمة الخسائر في الأرواح عند غرق الباخرة تدل على أن الغرقى من السيدات كن، أربعًا من ١٤٣ سيدة في الدرجة الأولى «غرق ثلاث منهن باختيارهن»، و ١٥ من ٩٣ سيدة في الدرجة الثانية، و ٨١ من ١٧٩ سيدة في الدرجة الثالثة.

هذا عدا الأطفال. لقد أمكن إنقاذ جميع أطفال الدرجتين الأولى والثانية البالغ عددهم ٢٩ فيما عدا الطفلة لورين أليسون، أما أطفال ركاب المؤخرة فلم ينجُ من عددهم البالغ ٧٦ إلا ٢٣ طفلًا.

كذلك تلاشت كل أنواع الشهامة في معاملة ركاب الدرجة الثالثة.

وكانت الأمور في الدرجة الثانية أحسن، وإن لم يكن على خير حال تمامًا. فإن لورنس بيزلي يذكر أنه شاهد أحد ضباط السفينة يمنع سيدتين من المرور من البوابة المؤدية إلى الدرجة الأولى حين سألتاه قائلتين:

– هل يمكن أن نمضي إلى قوارب الدرجة الأولى؟

فرد عليها قائلًا:

– لا. إن زوارقكم على سطح درجتكم.

وعلى سبيل الإنصاف لشركة هوايت ستار يمكن القول إن هذا التفرقة في المعاملة لم تكن نتيجة سياسة مرسومة، بقدر ما هي نتيجة عدم وجود سياسة على الإطلاق في هذا الشأن. ففي بعض الجوانب كان البحارة يمنعون الوصول إلى سطح الزوارق، وفي جوانب أخرى، كانوا يفتحون البوابات دون أن يرشدوا أحدًا إلى ما ينبغي أن يفعل. وفي

حالات قليلة كانت هناك محاولات طيبة لقيادة بعض ركاب الدرجة الثالثة إلى سطح الزوارق، ولكن هؤلاء الركَّاب بوجه عام، تُركوا ليهيموا على وجوههم، وقد استطاع قليل منهم أن يقبلوا هذه الأوضاع، ولكن الغالبية الكبرى أخذوا يهيمون بلا حماية أو رعاية في جوانب درجتهم وهم مجهولون ومهملون ومنسيون.

وعند تغطية أخبار غرق التيتانيك، لم يهتم غير عدد قليل من المخبرين الصحفيين بسؤال أحد من ركاب الدرجة الثالثة عن أي شيء –لقد كانت النيويورك تايمز فخورة فقط ببراعتها في تغطية أنباء الكارثة. ومع ذلك فإن العدد المشهور الذي صدر بمناسبة وصول الباخرة كارباتيا إلى نيويورك، لم يحتوِ إلا على حديثين فقط مع راكبين من الدرجة الثالثة. وكان هذا نفس الموقف الذي اتخذته صحيفة النيويورك هيرالد. فقد أجرت ثلاثة وأربعين حديثًا مع الناجين من الباخرة، ولم يكن بينهم غير حديثين فقط عن تجارب راكبين بالدرجة الثالثة.

حقًّا لم تكن تجاربهما مثيرة مثل تجارب الليد كوزمو داف جوردون، لقد جعلتها إحدى صحف نيويورك تقول: (كان آخر ما سمعته صوت رجل يصيح قائلًا: يا إلهي.. يا إلهي..)، ولكن كانت هناك قصة. لقد أكدت تلك الليلة –حقًّا– ذلك المبدأ الرائع، مبدأ «النساء والأطفال أولًا»، ولكن الذي حدث على نحو ما أن نسبة الخسائر بين أطفال الدرجة الثالثة كانت أعلى من نسبة الخسائر بين رجال الدرجة الأولى. ولو أن هذه المفارقة حدثت في هذه الأيام لكانت موضع استنكار الضمير الاجتماعي، والصحافة المعاصرة.

وكذلك لم يهتم البرلمان الأمريكي بما حدث لركاب الدرجة الثالثة. لقد غطت تحقيقات السناتور سميث بشأن حادث التيتانيك كل شيء تحت الشمس، بما في ذلك العناصر التي يتكون منها جبل الثلج العائم، «وقد شرح له الضابط الخامس لاو هذه العناصر بكلمة واحد: ثلج». ولكن ركاب الدرجة الثالثة لم يكن لهم في هذه التحقيقات غير نصيب يسير. كان بين الشهود ثلاثة فقط من ركاب الدرجة الثالثة، وقد قال اثنان منهم إنهما مُنعا من الصعود إلى سطح الزوارق. ولكن رجال البرلمان لم يتابعوا هذا الموضوع إلى نهايته. ومرة أخرى ثبت أن أحدًا لم يتدخل ليخفي هذه الشهادة عن الرأي العام، وإنما الذي حدث ببساطة أن أحدًا لم يهتم بما حدث إطلاقًا.

بل إن محكمة التحقيق البريطانية كانت أكثر ترفعًا، فالمستر و. د هارنبسون –الذي كان يمثل رسميًّا مصالح ركاب الدرجة الثالثة– قال إنه لم يجد أثرًا لأي تفرقة في المعاملة بين جميع الركَّاب. وكان تقرير اللورد ميرسي نظيفًا ورائعًا –ومع ذلك فلم يدل أي واحد من ركاب الدرجة الثالثة بشهادته. وقد اعترف بمطلق حريته النادل الوحيد الناجي الذي كان حارسًا في الدرجة الثالثة بأن ركابها حجزوا فيها حتى الساعة الواحدة والربع بعد منتصف الليل.

وحتى ركاب الدرجة الثالثة أنفسهم كانوا غير مهتمين بالأمر. لقد كانوا يعتقدون أن التفرقة في الدرجات جزء من النظام العام. أو على الأقل اعتبر أولوس إيلزيس أن وصوله إلى الدرجة الأولى كان امتيازًا خاصًّا لم يعترض عليه ركاب الدرجتين الأولى والثانية –حتى عند غرق الباخرة.

وكان هو راضيًا ما داموا هم راضين ببقائه بينهم على الأسطح العليا.

إن فجر عصر جديد قد تبلج، ولم يعد أحد من ركاب الدرجة الثالثة يقبل مثل هذه الفلسفة.

ومن ناحية أخرى تمامًا، كانت تلك أيضًا آخر مرة يقبل فيها الوضع الخاص بركاب الدرجة الأولى دون اعتراض، فعندما غرقت عابرة المحيط «ريبابليك» التابعة لشركة هوايت ستار الملاحية في عام ١٩٠٨، طلب ربانها الكابتن سيلبي من الركَّاب الانتقال إلى زوارق النجاة قائلًا:

– تذكروا.. النساء والأطفال أولًا، ثم ركاب الدرجة الأولى، ثم الباقين.

ولكن لم يكن ثمة مبدأ كهذا قد طُبق على الباخرة التيتانيك، إلا أن هذا المفهوم كان كامنًا في عقول الرأي العام، وقد مالت الصحف في أول الأمر إلى تجاهل أي نقد يمكن أن يُوجَّه إلى أي تصرفات يقوم بها ركاب الدرجة الأولى. وعندما أعلن أن اسماي قد نجا، أسرعت صحيفة النيويورك صن تقول: «لقد تصرف اسماي بكل شهامة.. ولا يعرف أحد كيف استطاع المستر اسماي نفسه أن يجد له مكانًا في أحد الزوارق.. ولكن المعتقد أنه أراد أن يقدم بنفسه تقريرًا عن الحادث إلى الشركة».

ولكن لم يحدث قط أن يكون لمثل ركاب الدرجة الأولى هذه الميزات. بل لقد رجحت كفة الميزان إلى أقصى الناحية الأخرى بعد ذلك الحادث مباشرة، فما هي غير أيام حتى كان اسماي موضع التشهير والتنديد. وفي خلال عام بعد الحادث. تطلقت من زوجها سيدة ذات مكانة

اجتماعية رفيعة، كانت قد نجت لأن زوجها، بناء على التقولات الشائعة، قد نجا. ومن بين المبادئ الحازمة التي أرست كارثة التيتانيك قواعدها، مبدأ جديد يتركز حول تصرفات الكبراء والعظماء في ساعة المحنة.

وكان الأمر يسيرًا في تلك الأيام السابقة.. ذلك لأن التيتانيك كانت أيضًا آخر رمز للثراء والأرستقراطية في نظر الرأي العام. ففي عام ١٩١٢ لم يكن هناك نجوم سينما أو راديو أو تليفزيون، وكان أبطال الرياضة لا يزالون في المكانة التالية في المجتمع، ولم يكن نجوم النوادي الأرستقراطية معروفين في ذلك الحين. ومن ثم كانت الجماهير تنبهر فقط بالكبراء والعظماء الذين يستمتعون بحياة الرذيلة.

وكانت الصحافة تؤيد هذا الاتجاه العام كل التأييد. فعندما أبحرت التيتانيك، نشرت صحيفة النيويورك تايمز أسماء العظماء والكبراء من ركابها في صفحتها الأولى. وعندما غرقت، نشرت صحيفة نيويورك أمريكان في ١٦ من أبريل الخبر مع مقالة افتتاحية تدور كلها تقريبًا حول جون جاكوب آستور. ثم ذكرت في نهايتها أن هناك ألفًا وثمانمائة مفقود أيضًا.

وعلى هذا النحو عالجت النيويورك سن في ١٨ من أبريل موضوع التأمينات الخاصة بالكارثة. وكان معظم حديث الصحيفة يدور حول لآلئ المسز ويدنر.

ولكن لم يعد قط بعدئذ أن يصبح الثراء المعترف به هو الشغل الشاغل للرأي العام. ومن ناحية أخرى لم يعد للثراء الاتجاهات الاستعراضية. فمثلًا لم يحفل جون جاكوب آستور كثيرًا عندما دفع

ثمانمائة دولار في سترة مطرزة عرضها أحد البائعين على ظهر التيتانيك عندما وقفت فترة قصيرة في ميناء كوينز تاون. ولم يكن ثمة غرابة في رأي آل ريرسون وهم يسافرون بست عشرة حقيبة سفر ضخمة، وكانت المائة والتسعون أسرة في الدرجة الأولى مصحوبة بثلاثة وعشرين من الخدم العاديين، وثمانية من الخدم الخصوصيين، عدا حشد من المربيات والمثقفات، وعدا مئات من النُدُل والمضيفات، وكان هؤلاء الأتباع الخصوصيون يقيمون في استراحات خاصة بالسطح «س»، وذلك حتى لا يعاني أحد السادة من الحرج إذا اشتبك في حديث مع شخص لطيف غريب، ثم يتبين أنه ترجمان المستر سليبر هاربر مثلًا.

أو لننظر إلى ما حدث عند وصول الناجين إلى ميناء نيويورك. لقد كان في انتظار المسز آستور سيارتان تحملان طبيبين وممرضة مدربة وسكرتيرة، وفنسنت آستور. ولم يكن في انتظار المسز ويدنر سيارات خاصة، وإنما قطار خاص يتكون من مركبة بولمان خاصة، وأخرى للأمتعة، وقاطرة. واستقبلت المسز تشارلز هايز بقطار خاص أيضًا، يحتوي على مركبتين خاصتين وأخريين للنوم.

وكان ذلك الاستقبال يتناسب مع أشخاص يستطيع الواحد منهم أن يدفع ٤٣٥٠ دولارًا أجرًا لجناح فاخر في الباخرة، وناهيك بما كان عليه الدولار في عام ١٩١٢. وكان مثل هذا الجناح الفاخر يحتوي على ممر خاص للنزهة. وإذا نظرنا إلى الأمر بحساب الأرقام، وجدنا أن كل خطوة كانت تكلف صاحبها أربعين دولارًا في ستة أيام.

وكان هذا النوع من الحياة غير معروف بطبيعة الحال لكل الناس

-بل كان على شاب مثل هارولد برايد، في الواقع، أن يدخر كل مرتبه البالغ عشرين دولارًا في الشهر لمدة ١٨ سنة حتى يستطيع أن يعبر المحيط على مثل هذا النحو من الأبهة والترف. ومن ثم أصبح أولئك الذين ينعمون بمثل هذا اللون من الحياة يتكتلون تدريجيًّا في مجموعات صغيرة متماسكة، وقد بدا أن هذا الطراز من الناس قد اختفى أيضًا مع التيتانيك.

وقد كان هناك تآلف عجيب في محيط ذلك الثراء الخيالي. أي لم يكن يبدو على أي واحد منهم أي ومضة من الدهشة حيث يلتقي بعضهم ببعض في منطقة الأهرام، «وهي منطقة محبوبة جدًّا منهم»، أو في الكوت دازور، أو عند ينابيع بادن بادن المعدنية. وكان يبدو أن نفس الأفكار اعتادت أن تطرأ على أذهانهم في نفس الوقت، ومن بين هذه الأفكار إقبالهم على ركوب أكبر باخرة في العالم عند قيامها بأول رحلة لها.

وهكذا كانت رحلة التيتانيك بالنسبة إليهم أقرب إلى حلقة اجتماع منها إلى عبور للمحيط. لقد استهوت المسز هنري ب. هاريس زوجة المخرج المسرحي الذي لم يكن بالتأكيد داخل نطاق هذا العالم الثري. وقد ظلت بعد عشرين عامًا تتذكر هذا العالم في رهبة، وتقول:

- لقد كانت بيننا روح من الإخاء لم أشهد لها مثيلًا في أي رحلة سابقة. ولم يحاول أحد أن يلجأ إلى قائمة الركَّاب ليتعرف منها إلى أحد من زملائه الذين كانوا على خير زمالة. وهكذا كانوا يلتقون على ممر سطح السفينة كأنهم أفراد أسرة واحدة كبيرة.

وكان أفراد هذه المجموعة يعرفون ملَّاحي الباخرة كما يعرف

بعضهم بعضًا. وكان من المعتاد أن يركب البحر هؤلاء الأثرياء مع ربابنة معينين بغض النظر عن البواخر التي يقودونها. وكان للكابتن سميث مجموعة خاصة من المعجبين به مما جعل له مكانة خاصة في شركة هوايت ستار. وكان الكابتن يرد على هذا الإعجاب ببعض المجاملات والامتيازات البسيطة التي تجعل هؤلاء المعجبين الكبار يحافظون على الإبحار معه دائمًا. وفي آخر ليلة للتيتانيك، تلقى جون جاكوب آستور النبأ السيئ مباشرة من الكابتن قبل انتشاره ووصوله إلى علم الجميع.

ولكن الأمر كان من ناحية أخرى يقتضي احترام هذه الامتيازات التي يسبغها الكابتن عليهم، ومن ثم لم ينجُ واحد من رجال هذه المجموعة كلها.

وكان النُدُل والخدم على مثل هذه العلاقات الطيبة مع هذه المجموعة؛ ذلك لأنهم اعتادوا أن يخدموا نفس الركَّاب، ومن ثم كانوا يعرفون كيف يؤدون لهم الأشياء التي يفضلونها، وماذا يفضلون من ألوان الخدمة والطعام. فمثلًا كان النادل كاننجهام يدخل كل مساء في المقصورة رقم أ -٣٦ ويضع ملابس توماس آندروز بالطريقة التي يفضلها المستر آندروز. ثم يعود كاننجهام في الساعة السادسة والدقيقة الخامسة والأربعين ليساعد آندروز على ارتداء ملابسه. وعلى هذا النحو كانت الأمور تجري في كل أنحاء الباخرة.

وعندما بدأت التيتانيك في الغرق، كان النادل إيتشر صادق العاطفة في حبه للمستر جاجنهايم وهو يساعده على ارتداء طوق النجاة، وكذلك كان الأمر مع النادل كراو فورد وهو يربط حذاء المستر ستيوارت، ومع

النادل الثاني دود حين أخطر سرًّا جون ب. ثاير بأن زوجته لا تزال على ظهر الباخرة، وقد كان يظن أنها غادرتها منذ مدة طويلة. وبنفس روح الوفاء –دفع نادل قاعة الطعام راي الدكتور دودج إلى الزورق رقم ١٣، وكان هو الذي أغرى الزوجين دودج بركوب التيتانيك، ومن ثم شعر أنه المسؤول الآن عن نجاتهما.

وكانت هذه المجموعة من الأثرياء ترد على هذا الوفاء بعلاقات من الألفة والمودة تزيد عما يربطها بكثير من الزملاء الركَّاب. وقد حدث في ساعات التيتانيك الأخيرة أن رجالًا مثل بن جاجنهايم ومارتن روتشيلد كانوا يبدون أكثر اتصالًا بالنُدُل منهم ببقية الركَّاب.

إلا أن التيتانيك، على نحو ما، قد أسدلت الستار على هذا اللون من الحياة، إنها لم تعد قط كما كانت من قبل. وقد تأكد هذا بالحرب الأولى أولًا، ثم بضرائب الدخل ثانيًا.

وذهبت مع هذا العالم المفقود بعض الأفكار المتعصبة، التي كانت تشيع فيه –لا سيما تلك العقيدة التي طالما طنطن بها الأنجلو-ساكسون عن تفوقهم في مضمار الشجاعة. فقد زعم الناجون أن جميع الذين حاولوا اقتحام زوارق النجاة من الرجال كانوا «صينيين» أو «يابانيين»، وأن الذين قفزوا من فوق الباخرة إلى الماء كانوا «أمريكيين» أو «فرنسيين» أو «إيطاليين».

وقد أعلن النادل كراو أمام لجنة التحقيق الأمريكية قائلًا:

– لقد كان هناك رجال آخرون من الركَّاب، لعلهم إيطاليون أو من جنسيات أخرى غير الإنجليز والأمريكان –حاولوا اقتحام زوارق النجاة.

ولكن كان طبيعيًّا أن النادل كراو لم يسمع هؤلاء المذنبين وهم يتحدثون، ومن ثم لم يكن يعلم من يكونون في الحقيقة. وقد ازدادت الأمور، أثناء التحقيق، سوءًا، بحيث راح السفير الإيطالي يطالب باعتذار من الضابط الخامس لاو لاستعماله كلمة «الإيطاليين» في الدلالة على الجبن.

وعلى النقيض من ذلك، فلعل الإنجلو ساكسونيين لا يخطئون. فعندما وصف برايد هجوم الوقَّاد على فيليبس، زعمت بعض الصحف أن ذلك الوقَّاد كان على أكبر الظن زنجيًّا. وفي مقالة بعنوان «فقد مهاجرين مرغوب فيهم»، ذكرت صحيفة النيويورك صن أن بين المفقودين ٧٨ فنلنديًّا، كان من الممكن أن يفيدوا البلاد عند هجرتهم إليها.

ولكن مع هذه التحاملات، ضاعت أيضًا بعض ألوان البطولة والشهامة. إن الشجاعة لن تزول من قلوب الرجال، ولن يكون ثمة شجاعة قط من ذلك الطراز الذي بدا في تلك الكارثة. كانت هناك لمسات رائعة من صور هذه الشجاعة النادرة على ظهر الباخرة تيتانيك بدت في عودة جاجنهايم إلى ارتداء ملابس السهرة، وفي إلقاء بقية سيجارته وهو يلوح بيده مودعًا المسز جراهام، بل وفي اندفاع الكولونيل جراسي وهو يلهث على السطح للبحث عن المسز كاندي بدافع من الشهامة إن لم يكن بدافع من الحب. ليس في هذه الأيام مثل هذه اللمسات الرائعة من الشهامة التي بدت عند ذاك في تلك الليلة.

وكذلك اختفت مع الباخرة روح النبل النبيلة، ففي أثناء فترة الانتظار والترقب المؤلمة التي سادت نيويورك، لم يرتضِ آل آستور أو

آل جاجنهايم وغيرهم من طرازهم الجلوس بجوار آلات التليفون أو إرسال الأصدقاء والأتباع إلى مكاتب شركة هوايت ستار، وإنما كانوا يذهبون بأنفسهم؛ لا لأن هذه خير وسيلة للحصول على معلومات، وإنما لأنهم شعروا أن من الواجب عليهم أن يذهبوا بأنفسهم.

إن العائلات الآن لا يلقون وفاء بعضهم لبعض، ولكنهم يرون أن التليفون قد يجدي في هذه الحالات. ولعل القليلين هم الذين قد يصرون على الذهاب بأنفسهم واحتمال الهرج والمرج الذي يشيع في مكاتب الشركة الملاحية في هذه الظروف، ومع ذلك فإن الآخرين لم يترددوا لحظة في الذهاب. حقًّا لقد استطاع فنسنت آستور أن يظفر بمعلومات أفضل من غيره –بل واستطاع البعض أن يتحدثوا مباشرة مع نائب المدير العام فرانكين، ولكن المهم أن هؤلاء الناس لم يكتفوا بمجرد الاتصال بمكتب الشركة، وإنما أصروا على أن يكونوا هناك بأنفسهم.

وأهم من هذا كله وضع غرق الباخرة تيتانيك حدًّا لذلك الشعور العام بالثقة المطلقة في الحياة. فحتى ذلك الحين كان الناس يشعرون أنهم قد وجدوا الإجابة على الحياة المستقرة المنتظمة المتحضرة. ففي خلال مائة عام ظل العالم الغربي يعيش في سلام. وفي خلال مائة عام كانت العلوم الصناعية قد تقدمت تقدمًا مطردًا. وفي خلال مائة عام كانت ثمار السلام والتقدم الصناعي تملأ حياة الناس بالرضا والأمن. وقد يبدو –مع الذكرى– أنه لم يكن هناك ما يدعو إلى هذه الثقة المطلقة، ولكن كان معظم الناس يشعرون في ذلك الحين بأن الحياة على خير حال.

ولكن التيتانيك أيقظتهم جميعًا من هذا الحلم. إنهم لم يعودوا قط يشعرون بمثل هذه الثقة في أنفسهم –وكانت هذه الكارثة ضربة عنيفة وجهت إلى النطاق الصناعي. فها هي ذي السفينة «غير القابلة للغرق» التي ربما كانت أعظم عمل هندسي في العالم– تغرق في أول رحلة لها.

ولكن الأمر كان أخطر من هذا. فإذا كان هذا العمل الرائع قد انهار بمثل هذه البساطة الرهيبة، فكيف يكون الأمر بشأن أي شيء آخر؟ وإذا كان للثراء مثل هذه القيمة التافهة في تلك الليلة الأبريلية الباردة، فأي قيمة أخرى تكون له على مدار العام. لقد راح العشرات من رجال الدين يعظون قائلين: إن كارثة التيتانيك هي درس سماوي لإيقاظ الناس من غفلة لهوهم، ولمعاقبتهم على إسرافهم في الإيمان بالتقدم المادي، فإذا كان ما حدث درسًا حقًّا، فقد أدى الغرض منه، ولم يعد الناس يثقون في شيء قط بعد ذلك.

ولكن هذه الأوهام الدائمة لا يمكن أن تقع كلها على عاتق الباخرة تيتانيك، بل يمكن القول إنها دقت الجرس الأول. فقد كان كل شيء قبل التيتانيك هادئًا، فأصبح بعدها ثائرًا فائرًا. ذلك هو السبب الذي جعل كل إنسان عاش عهد التيتانيك يرى أن كارثتها كانت –دون أي حادثة أخرى فردية– هي الحد الفاصل بين نهاية الأيام القديمة، وبداية عهد جديد من القلق والاضطراب. غير أنه لم يكن ثمة وقت لمثل هذه التأملات في الساعة الثانية من صباح يوم الإثنين الخامس عشر من أبريل عام ١٩١٢. فقد كان فوق قبر التيتانيك سحابة خفيفة من البخار تعكر جو الليل الصافي. وكانت فوق صفحة المياه الساجية قد تناثرت السلال

ومقاعد الأسطح، والألواح الخشبية، والدعائم وغيرها من النفايات القابلة للطفو تندفع إلى السطح من مكان ما في الأعماق.

وكان ثمة مئات من السابحين يضربون وجه الماء، ويتعلقون بالحطام بعضهم ببعض. وفيما كان النادل إدوارد براون يشهق ويلهث، لاحظ بغموض أن رجلًا ما كان يتشبث بملابسه، وشعر راكب الدرجة الثالثة أولوس إيلويس بذراع رجل يلتف حول عنقه، واستطاع على نحو ما أن يتخلص وهو يشرق بالماء، قائلًا:

– دعني..

ولكن الرجل تعلق به مرة أخرى، فلم يسعَ أولوس إلا أن يركله بعنف، حتى يتخلص منه نهائيًّا.

وكانت المياه نفسها، بعد الناس، هي التي تحطم مقاومة السابحين، ذلك أن درجة برودتها كانت ٢٨ فهرنهايت، أي قريبة من درجة الصفر مئويًّا. وقد وصفها الضابط الثاني لايتوللر بأنها «كآلاف من السكاكين المغمدة في الجسم»، وكانت أطواق النجاة لا تجدي كثيرًا في مياه على هذا النحو من البرودة.

إلا أن بضع عشرات أمكنهم أن يحتفظوا بقدرتهم على التفكير المتزن، وبحيويتهم، ذلك أنه كان أمام هؤلاء أملان متأرجحان على سطح الماء بين الحطام، هما الزورقان القماشيان «أ» و«ب» اللذان انفصلا عن سطح الزوارق بالباخرة، وكان «أ» مزدحمًا و«ب» مقلوبًا. إلا أن المدخنة التي انهارت أبعدت الزورقين كثيرًا عن السابحين، ولم يبقَ إلا الأقوياء والمحظوظون هم القادرون على الوصول إليهما.

واستطاع أولوس إيلزيس بعد عشرين دقيقة أن يصل إلى جانب الزورق «أ»، وربما كان بداخله عشرات بين الموت والحياة، إلا أنهم لم يساعدوه أو يمنعوه وهو يحاول الصعود إليه، وإنما غمغموا قائلين:

- لا تقلبه.

وراح غيره يصلون الواحد بعد الآخر، حتى بلغ عددهم نحو أربعة وعشرين سابحًا. وكانوا مجموعة متباينة: فقد رقد بطل التنس نوريس وليامز بجوار سترته الفراء المشبعة بالماء.. ثم اثنان من أهل السود.. ثم الوقَّاد جون تومسون بيدين محترقتين، ثم راكب من الدرجة الأولى مع النادل إدوارد براون.. ثم راكبة الدرجة الثالثة المسز روزا آبوت.

وراح الزورق «أ» يبتعد، وبدأ السابحون يصلون في فترات متقطعة، ثم انقطع سيل السابحين، وراح الزورق المزدحم ينزلق رويدًا رويدًا مبتعدًا في الظلام.

وفي ذات الوقت كان ثمة سابحون آخرون يكافحون للوصول إلى الزورق «ب»، وكان أقرب كثيرًا إلى مسرح الحادث. ومن ثم احتشد عدد كبير حول قاعه الأبيض المرفوع، وكانوا أكثر نشاطًا وضجيجًا.

وكان وولتر هيرست يسمع بين الحين والآخر من يقول أثناء محاولة الصعود إلى الزورق:

- أنقذوا حياة أخرى.. أنقذوا حياة أخرى.

وكان عامل اللاسلكي هارولد برايد عند الزورق بطبيعة الحال منذ اللحظة الأولى، ولكنه كان تحته. وكذلك وصل إليه لايتوللر قبل غرق

التيتانيك. كان يكافح سابحًا عندما سقطت المدخنة، فدفعت به الموجة الناشئة عنها بعيدًا، وكادت تجعل الشاب جاك ثاير في الوقت نفسه، يصطدم بالزورق. وكان هيرست مع ثلاثة أو أربعة آخرين يقبعون فوق قاعه، وقد تسلقه عندئذٍ لايتوللر وجاك ثاير أيضًا، إلا أن برايد كان ولا يزال تحته، راقدًا على ظهره فوق الماء، مصطدمًا برأسه في مقاعده، باذلًا جهده للتنفس في ذلك الظلام الثقيل.

ثم أقبل أ. هـ. باركورث أحد القضاة في إقليم يوركشير، وكان يرتدي معطفًا ضخمًا من الفراء فوق طوق النجاة. والعجيب أن هذا المعطف ساعده على السباحة. وقد ركب هو أيضًا بالمعطف الفراء وكل شيء، فوق قاع الزورق وبدا كحيوان أشعث أغبر.

وجاء الكولونيل جراسي فيما بعد. فعندما كادت التيتانيك تجذبه معها إلى القاع، استعان على البقاء فوق سطح الماء بلوح خشبي، ثم بسلة خشبية، وذلك قبل أن يلمح الزورق المقلوب. فلما وصل إليه أخيرًا، كان هناك فوقه أكثر من عشرة رجال راقدين أو راكبين على قاعه المقلوب.

ولم يكن أحد منهم يحاول أن يقدم يد المعونة؛ ذلك لأن الزورق القماشي كان يزداد غوصًا مع كل نازل جديد. بل لقد كانت المياه ترتفع بين الحين والآخر إلى القاع المقلوب، ولكن جراسي لم يكن قد قطع هذه المسافة الطويلة بلا جدوى، ومن ثم تعلق بذراع رجل كان راقدًا على الزورق، ورفع نفسه إلى القاع المقلوب، وبعد هذا أقبل الطاهي

المساعد جون كولليتز، واستطاع أن يجد له مكانًا أيضًا، وهنا غطس برايد تحت الزورق، ثم خرج من الخلف.

ولما وصل النادل توماس هويتلي، كان الزورق القماشي يتأرجح بعنف تحت ثقل ثلاثين رجلًا. ومن ثم دفعه أحدهم بمجداف عندما حاول الصعود، إلا أنه استطاع الصعود على نحو ما. ومنع الوقَّاد هاري سينيور من الصعود بمجداف، غير أنه دار نحو الجانب الآخر، واستطاع أن يقنعهم بأن يفسحوا له مكانًا بينهم.

وكان الراكبون على القاع المقلوب طيلة هذا الوقت يضربون الماء بألواح خشبية طليقة، محاولين الابتعاد عن مسرح الحادث، والتخلص من بقية السابحين.

وكانوا يصيحون قائلين للذين في الماء:

- تشبثوا بما لديكم أيها الإخوان، فإن صعود واحد آخر سوف يغرقنا جميعًا.

وقد أجاب أحد السابحين عندما طلب منه الابتعاد عن الزورق:

- حسنًا أيها الإخوان. هدئوا روعكم.

ثم سبح بعيدًا وهو يصيح، قائلًا:

- حظ سعيد.. وليباركم الله.

وظل سابح آخر يشجعهم قائلًا:

- حسنًا يا أولاد.. تشجعوا.. تشجعوا.

وكان صوته ينم عن النفوذ والسيطرة، ولكنه لم يطلب قط أن يُسمح له بالصعود. ورغم الخطر المحدق بهم، فإن وولتر هيرست لم يستطع أن يقاوم الرغبة في مد مجداف إلى ذلك الرجل، ولكن هذا كان قد ابتعد عن مداه. فلما لمسه، استدار بسرعة كالسدادة الفلين، وبقي صامتًا. وحتى اليوم لا يزال هيرست يعتقد أن ذلك الرجل كان الكابتن سميث.

وفيما هم يبتعدون في جوف الليل الموحش، بعيدًا عن الحطام والسابحين، قال أحد البحارة الراقدين على سطح القاع المقلوب في تردد:

- ألا ترون أنه ينبغي أن نصلي؟

ووافق الجميع.. وسرعان ما كشفت الأصوات المتعددة عن الكاثوليكيين والأسقفيين[١] والثيوديين[٢]، كلهم مندمجون بعضهم في بعض، وهم يبتهلون إلى الله في أصوات جماعية بإمامة الرجل الذي اقترح عليهم الصلاة.

ولم يكن ذلك هو الصوت الوحيد الذي رفرف فوق سطح الماء. فطيلة المدة التي كان الزورقان القماشيان «أ» و«ب» يزدحمان بالسابحين ويكافحان في استماتة للابتعاد عن مسرح الحادث، كان هناك مئات من السابحين الآخرين يصيحون في طلب النجدة، ولكن الأصوات الفردية كانت تضيع بين الصيحات الجماعية الطاغية. وقد بدا الأمر للوقَّاد جورج كيميش وهو ممسك بمجداف في الزورق رقم ٩

---

(١) Episcopalism.

(٢) Methodists.

أن هذه الأصوات تشبه أصوات آلاف الهتافين في آخر مباراة لكرة القدم للدوري العام بإنجلترا. أما جاك ثاير الراقد على قاع الزورق «ب»؛ فقد بدت له الأصوات كأنها همهمة الجراد في ليالي الصيف بغابات موطنه بنسلفانيا.

* * *

الفصل الثامن

«هذا يذكرني بنزهةٍ خلويةٍ جميلةٍ»

كانت الصيحات التي تشق سكون الليل لا تعني إلا شيئًا واحدًا في رأي الضابط الخامس لاو، المندفع، النشط.. كانت تعني: عد إلينا وساعدنا.

وكان هو في وضع طيب يتيح له أن يفعل شيئًا. فبعد أن غادر التيتانيك في الزورق رقم ١٤ استطاع أن يصل إلى الزوارق رقم ١٠ و١٢ و ٤ و «د»، وأن يجمعها معًا ويربط بعضها ببعض، حتى بدت كأنها عقد من الخرز، طوله مائة وخمسون ياردة.

وقال للركاب في الزوارق الخمسة بلهجة آمرة:

– اعتبروا أنفسكم تحت قيادتي.

ثم راح بعد هذا يعد أسطوله الصغير ذاك لعمليات الإنقاذ. ولكنه رأى أن من أشد الأخطار أن يأمر الزوارق كلها بالذهاب إلى مسرح الحادث للإنقاذ –لأنها جميعًا لم تكن معدة بالعدد الكافي من البحارة

الذين يمكنهم مواجهة ذلك الموقف العصيب. ولكن من الممكن لزورق واحد حسن الإعداد أن يأتي بثمرة طيبة. وهكذا وزع لاو ركاب زوارقه الخمسة والخمسين على بقية الزوارق الأربعة، واختار عددًا من المتطوعين من كل زورق لكي يزود زورقه رقم ١٤ بالجدافين الممتازين.

وكانت تلك عملية مثيرة للأعصاب، والواقع أن القيام بما يشبه لعبة الكراسي الموسيقية مع زوارق تجديف في الساعة الثانية بعد منتصف الليل، وفي وسط المحيط الأطلسي، كان شيئًا أكثر مما يطيق لاو، ومن ثم كان يفقد أعصابه، ويصيح بصبر نافد للآنسة ونري مياهان:

– اقفزي، عليكِ اللعنة، اقفزي..

ومن ناحية أخرى، لاحظ لاو أن سيدة عجوزًا تلتفع بمطرف، كانت تبدو موفورة النشاط خفيفة الحركة، فانتزع المطرف عنها ليحملق بدهشة إلى شاب ممتقع الوجه جدًّا، ممتلئ العينين بالفزع. ولم يقل شيئًا في هذه المرة، ولكنه دفع الشاب إلى الزورق رقم ١٠ بكل ما لديه من قوة.

واستغرقت عملية التوزيع فترة طويلة، ثم استغرق لاو فترة أخرى حتى يخف عدد السابحين؛ لكي يستطيع أن يقوم بعملية الإنقاذ في أمان. ثم ضاع وقت آخر في الوصول إلى مسرح الحادث. وهكذا كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة بعد منتصف الليل، أي بعد نحو ساعة، عندما اقترب الزورق رقم ١٤ نحو الحطام المتخلف عن الباخرة والسابحين.

وكان عدد الباقين منهم قليلًا، النادل جون ستيوارت.. وراكب الدرجة الأولى و. ف هويت.. وراكب ياباني من ركاب المؤخرة، وكان قد تعلق سابحًا بباب. وظل الزورق رقم ١٤ نحو ساعة، وهو يقوم بما يشبه لعبة الاستخفاء «الاستغماية»، فيجري هنا وهناك وراء صيحات الاستغاثة المنبعثة في جوف الظلام، دون أن يتمكن من الوصول إلى مصدر صوت.

وهكذا لم يتمكن لاو من إنقاذ غير أربعة. وقد مات المستر هوايت بعد ساعة. والواقع أن لاو أخطأ في تقدير الوقت الكافي للوصول إلى مسرح الحادث، وأخطأ في تقدير المسافات التي كانت بينه وبين صيحات الاستغاثة، وأكثر من هذا، أخطأ في تقدير المدة التي يستطيع السابح أن يقضيها في ماء درجة برودته قريبة من الصفر. ولهذا فقد أدرك بعد فوات الوقت، أنه لم يكن في حاجة للانتظار حتى «يقل عدد السابحين»، إلا أنه عاد أدراجه أخيرًا.

وسمع الضابط الثالث بيتمان -وهو في الزورق رقم ٥- تلك الصيحات أيضًا. ومن ثم استدار بالزورق، وقال بصوت مرتفع:

- والآن أيها الرجال.. هلموا نعد إلى الحطام.

وتوسلت سيدة للنادل إيتشر وهو يشد المجداف:

- أرجوك أن تطلب من الضابط ألا يعود بنا! لماذا نفقد حياتنا جميعًا في محاولة لا جدوى منها لإنقاذ آخرين من الباخرة؟!

واحتجت سيدات أخريات أيضًا. واستبدت الحيرة بالضابط

بيتمان. وأخيرًا ألغى أمره، وطلب من البحارة أن يكفوا عن التجديف. وهكذا ظل الزورق رقم ٥ بركابه الأربعين، رغم اتساعه لخمسة وستين راكبًا -يتأرجح برفق نحو ساعة على سطح الأطلسي الهادئ، هذا بينما كان ركابه يسمعون صيحات السابحين على بعد ثلاثمائة ياردة منهم.

وفي الزورق رقم ٢ يقول النادل جونسون: إن الضابط الرابع بوكسهول سأل السيدات: هل نعود إلى الوراء؟ فأجبن بالنفي. وهكذا مضى الزورق رقم ٢ بستين في المائة من حمولته فقط، وركابه يسمعون صيحات الاستغاثة.

ولكن موقف السيدات في الزورق رقم ٦ كان مختلفًا. فالمسز لوسيان سميث التي فجعت حين علمت أنها راحت ضحية الكذبة البيضاء التي أغراها زوجها بها لكي تركب الزورق، والمسز تشرشل التي انفعلت بشهامة هؤلاء الذين ضحوا بحياتهم من أجلها، والمسز ج. ج براون الشجاعة المغرمة طبيعيًّا بالمغامرة، هؤلاء جميعًا رجون رئيس النوتية هتشنز للعودة إلى مسرح الكارثة. ولكن هتشنز رفض، وراح يرسم لهن صورة واضحة لمنظر السابحين وهم يتشبثون بالزورق رقم ٦، ثم منظر الزورق وهو يفقد التوازن وينقلب. ولكن السيدات استمررن في التوسل، هذا بينما كانت الصيحات تبدو أخف وأبعد. وهكذا استمر الزورق رقم ٦ بركابه الثمانية والعشرين رغم اتساعه لخمسة وستين راكبًا، في طريق الابتعاد عن مسرح الكارثة.

وفي الزورق رقم ١، رفع الوقَّاد تشارلز هندريكسون عقيرته قائلًا: إن علينا أن نعود ونلتقط أي إنسان في الماء.

ولم يجبه أحد، ولم تبدر أي حركة من الرقيب جورج سيمونز المشرف على الزورق. ولما كرر الوقَّاد الاقتراح، أعلن السير كوزمو داف جوردون أنه لا يرى القيام بمثل هذه المحاولة؛ لأنها تنطوي على الخطر، ولأن الزورق سينقلب. وبهذا سكت الجميع. وهكذا راح الزورق رقم ١ بركابه الاثني عشر، رغم اتساعه لأربعين راكبًا، يمضي على غير هدى في جوف الظلام.

وكان الأمر على هذا النحو في جميع الزوارق. اقتراح ضعيف، ورفض قوي، ولا شيء غير هذا. ومن بين الألف والستمائة شخص الذين سقطوا في الماء مع التيتانيك، لم تلتقط الزوارق الثمانية عشر التي كانت قريبة منهم غير ثلاثة عشر. فالزورق «د» التقط المستر هويت؛ لأنه كان يقصد القيام بعملية الإنقاذ. وأنقذ الزورق رقم ٤ ثمانية أشخاص، لا لأنه عاد إليهم، وإنما لأنهم كانوا في طريقه. والزورق الوحيد الذي عاد إلى مسرح الحادث كان الزورق رقم ١٤. أما لماذا لم يعد الباقون إلى مسرح الكارثة، فسوف يظل هذا جزءًا من السر الغامض الذي يدور حول هذا السؤال: «لماذا يتصرف رجال مدربون في موقف كهذا تصرفات شاذة؟!».

ولما تلاشت الصيحات، خيَّم على الليل سكون عجيب. لقد ذهبت التيتانيك، وذهب معها الترقب الموجع. أما الشعور بفظاعة ما حدث والارتباك والانفعالات المنتظرة والإدراك بأن أصدقاء وأقارب قد فُقدوا إلى الأبد -هذا كله لم يكن قد ترسب في النفس تمامًا. ولكن الذي حدث هو أن شعورًا بالسكينة والهدوء، خيم على جميع ركاب الزوارق.

ومع الإحساس بالسكينة، جاء الشعور بالعزلة. ومن ثم عجب لورنس بيزلي لماذا كانت التيتانيك -حتى وهي في أشد حالات العطب- تبعث في النفس شعورًا بالإيناس والأمن، لا يمكن لأي زورق نجاة أن يثيره. ونظرت إليزابث شوتز -وهي في الزورق رقم ٣- إلى الأنجم المارقة، وأدركت لماذا بدت صواريخ التيتانيك تافهة إذا قورنت بروعة الطبيعة. وحاولت أن تتغلب على شعورها بالعزلة عن طريق التخيل بأنها عادت إلى اليابان. لقد تركت هناك مرتين في الظلام وحيدة خائفة، ولكن كل شيء انتهى أخيرًا إلى خير.

وفي الزورق رقم ٤ أخذت الآنسة جيان جيرترود هيباك ترقب الأنجم المارقة أيضًا -ولم يكن قد سبق لها أن رأتها بمثل هذه الكثرة. ثم تذكرت أسطورة تدور حول الأنجم المارقة. فكلما سقط نجم، مات إنسان.

وبدأت الحياة تنتفض في الزوارق مرة أخرى ببطء.. ببطء شديد، وبدأ الضابط الرابع بوكسهول يطلق أضواء متوهجة خضراء من الزورق رقم ٢. وقد أيقظ هذا على نحو ما ركاب الزورق من ذهولهم، وأشاع فيهم روح التفاؤل. وكان من العسير تقدير المسافات عندئذ، ومن ثم ظن بعض ركاب الزوارق أن هذه الأضواء الخضراء مرسلة من سفن إنقاذ في الأفق.

وأخذت المجاديف تضرب الماء، والأصوات ترتفع بالغناء كلما حيا ركاب زورق زملاءهم في زورق آخر، وارتبط الزورقان «٥ و ٧ معًا، وكذلك فعل الزورقان ٦ و ١٦، واستعار الزورق رقم ٦ أحد الوقَّادين

ليساعد في عملية التجديف. ولكن زوارق أخرى كانت تطفو بعيدًا. وهكذا راحت ثمانية عشر زورقًا تهيم في سكون الليل في دائرة محيطها أربعة أو خمسة أميال، أو تطفو معًا فوق سطح ماء هادئ منبسط كأنه سطح خزان. وتذكر وقّاد في الزورق رقم ١٣ الأيام التي كان يقضيها على بحيرة ريجنت بارك، ثم قال مغمغمًا:

– هذا يذكرني بنزهة خلوية جميلة.

وكان الأمر يبدو في بعض الأحيان كنزهة –الأحاديث الخفيفة، والأطفال عند الأقدام. ولما حاول لورنس بيزلي أن يلف قدمي طفل باك ببطانية، تبين أن له وللسيدة التي تحتضن الطفل أصدقاء مشتركين في مدينة كلو نميل، بإيرلندا. وأخذت إيديث راسل تداعب طفلًا آخر بدميتها التي على هيئة خنزير يعزف مقطوعة «الماكسكس» كلما تحرك ذيله، ووجد هيو وولتر نفسه يطعم بالكعك الطفلة لويز نافاتريل البالغة من العمر أربعة أعوام. وأعارت المسز جاكوب آستور مطرفًا لسيدة من ركاب الدرجة الثالثة؛ لكي تلف به ابنتها الباكية من فرط البرد. وشكرتها السيدة باللغة السويدية، ولفت المطرف حول ابنتها الصغيرة.

وفي ذات الوقت عرفت مرجرت فروليكر لأول مرة في حياتها شيئًا هامًّا من الأشياء المستعملة في النزهات الخلوية. فبينما كانت تعاني دوار البحر بقسوة، لاحظ أمرها سيد شفيق كان يجلس جوارها، ومن ثم تناول من جيبه قارورة فضية يصلح غطاؤها أن يكون كأسًا، ثم قال لها: إن جرعة من البراندي قد تفيد. ولما وافقته، شعرت بالراحة فورًا. ولعل هذا كان راجعًا إلى البراندي، أو إلى جدة التجربة؛ لأنها طيلة سنواتها

الاثنتين والعشرين لم تكن قد رأت هذا النوع من القوارير التي أعجبتها.

ولكن لم يحدث أن كانت هناك نزهة خلوية في مثل هذا الجو القارس، وكانت المسز كروسبي في الزورق رقم ٥ ترتعد بعنف، مما جعل الضابط الثالث بيتمان يلفها بشراع. وجلس وقَّاد في الزورق رقم ٦ بجوار المسز براون وأسنانه تصطك من فرط البرد. وأخيرًا لفَّتْ مطرفها المصنوع من فراء السمور حول ساقيه وربطت طرفيه من الخلف. وفي الزورق رقم ١٦ كان ثمة رجل في منامة بيضاء يعاني البرد بحيث ذكر غيره من الركَّاب بقصة «رجل الجليد». وبلغ من تخدر المسز شارلوت كوللير من فرط البرد أن انكفأت على وجهها في الزورق رقم ١٤، فاشتبك شعرها بمغلاق مجداف مما أدى إلى انتزاع خصلة كبيرة من جذورها.

وبذل الملَّاحون كل جهدهم ليوفروا الراحة للسيدات. ففي الزورق رقم ٥ خلع بحَّار جواربه وأعطاها للمسز واشنطن دودج، فلما نظرت إليه مدهوشة شاكرة، قال لها:

– أؤكد لك يا سيدتي أنها نظيفة تمامًا، فقد ارتديتها هذا الصباح فقط.

وفي الزورق رقم ١٣ كان الوقَّاد بو كامب يرتعد في سترته الخفيفة، ولكنه رفض قبول سترة إضافية قدمتها إليه سيدة كهلة، وأصر على أن تُعطى لفتاة إيرلندية بدلًا منه. وقد نعم بعض ركاب ذلك الزورق بشيء لم يكن متوقعًا. ذلك أن النادل راي كان –عندما غادر الباخرة لآخر مرة– قد التقط ستة مناديل كبيرة من خزانة ملابسه، ومن ثم راح يوزعها طالبًا

من الراكب أن يعقد كل طرف من أطراف المنديل الأربعة، فيتحول إلى غطاء للرأس. وكانت النتيجة، كما ذكر بفخر، «ستة رؤوس متوجة».

ولكن عدد السيدات العاملات على المجاديف، فضلًا عن البرد، قد ضيع وَهْم الإحساس بأن الأمر نزهة خلوية. ففي الزورق رقم ٤ ظلت المسز جون ب. ثاير تجدف خمس ساعات في مياه تصل إلى منتصف ساقيها. وفي الزورق رقم ٦ نظمت المسز براون –التي لا تهدأ– المر مع السيدات، وجعلت كل سيدتين تعملان على مجداف واحد، إحداهما تثبت المجداف في مكانه، والأخرى تعمل عليه. وعلى هذا النحو قادت المسز براون والمسز ماير والمسز كاندي وغيرهم الزورق مسافة ثلاثة أو أربعة أميال، محاولات بكل جهدهن الوصول إلى الضوء الوامض في الأفق معظم الليل.

وأمسكت المسز والتر دوجلاس دفة الزورق رقم ٢. وكان الضابط بوكسهول يجدف بيد ويساعد في عملية إطلاق الأضواء الخضراء، ولم تساعد المسز ج. ستيوارت في التجديف بالزورق رقم ٨، ولكنها قامت بمهمة «عامل الإشارة»؛ إذ كان معها عصا في طرفها مشعل كهربي، فراحت تلوح بها في عنف معظم الليل، إلا أنها بذلك كانت تساعد وتربك الجميع في وقت واحد.

وفي الزورق رقم ٨ كانت ماري يونج وجلاديس شيري والمسز ف. جويل سويفت، وغيرهن يعملن على المجاديف. وقد لاحظت المسز ويليام باكنيل وهي تجدف بجوار الكونتيسة دي روزيس، أن خادمتها كانت في الوقت نفسه تجدف بجوار خادمة الكونتيسة على

مسافة أبعد داخل الزورق. أما الكونتيسة نفسها فكانت معظم ساعات الليل ممسكة بالدفة، وقد شرح البحار جونز، المشرف على الزورق، لمندوب صحيفة «ذي سفير» فيما بعد لماذا عهد إليها بالدفة قائلًا:

– لقد عرفت أن معي في الزورق سيدة ممتازة حقًّا.. فعندما رأيت تصرفاتها وسمعت صوتها الهادئ الحاسم وهي تتحدث مع غيرها من السيدات، أدركت أنها أقرب إلى قوة الرجولة من أي سيدة أخرى في الزورق.

ولكن حديثه أمام لجنة التحقيق الأمريكية كان أقل مجاملة، إذ قال:

– لقد كانت كثيرة الكلام، فعهدت إليها بالدفة.

إلا أنه لم يكن هناك شك في إعجابه بها. فبعد النجاة أزال الرقم ٨ من زورق النجاة، ووضعه –الرقم– في إطار، وأرسله إلى الكونتيسة إعرابًا عن إعجابه. أما هي، فلا تزال ترسل إليه بطاقة تهنئة في كل عيد برأس السنة.

ولما انقضى الليل، بدأ الهدوء الذي كان يرين على الركَّاب يتلاشى تدريجيًّا. ففي الزورق رقم «٣» أخذت المسز تشالز هايز تصيح بكل زورق يقترب سائلة عن زوجها «تشارلز هايز، هل أنت هناك؟»، وظلت تكرر هذا النداء المرة بعد الأخرى. وفي الزورق رقم ٨ كانت السنيورا دي سافود بيناسكو لا تكف عن الصراخ على زوجها فيكتور، حتى لم تعد الكونتيسة دي روزيس تحتمل هذا الموقف، فتركت الدفة لابنة عمها جلاديس شيري، واقتربت من السنيورا، وأمضت بقية الليل تجدف بجانبها، وتحاول أن تخفف عنها. وظلت مدام دي فاللير في

الزورق رقم ٦ لا تكف عن مناداة ابنها الذي لم يكن حتى على الباخرة التيتانيك.

وأخذت المنازعات تشتد تدريجيًّا. فالنساء في الزورق رقم ٣ كن يتناقرن على أشياء تافهة، بينما كان أزواجهن يجلسون في صمت وحرج شديد.

ففي الزورق رقم ٥ بلغ من شعور المسز واشنطن دودج -التي كانت تريد العودة بالزورق ضد رغبات الجميع -بالمرارة أن تركته إلى الزورق رقم ٧ عندما اقترب من زورقها في وسط المحيط. وساعدت مود سلو كومب -المدلكة البارعة في التيتانيك- في الصياح ضد سيدة كانت لا تكف عن إطلاق جرس منبهها في الزورق رقم ١١، أما البحار دياموند، الملاكم السابق، والمشرف على الزورق رقم ١٥، فقد ظل يطلق من السباب المقذع ما زاد الليل سوادًا.

ودارت مناقشات كثيرة حول التدخين، ولم يكن التبغ في عام ١٩١٢ قد غدا بعد العلاج الأمريكي الشافي لجميع التوترات العصبية. ومن ثم صدمت السيدات الراكبات في الزورق حين رأين الرجال يدخنون. وأخذت الآنسة إليزابث شوتز ترجو رجلين جالسين بجوارها في الزورق رقم ٣ ليتوقفا عن التدخين، ولكنهما رفضا. وقد رأت المسز ج. ستيوارت هوايت أن مسألة التدخين من الأمور الجديرة بالتحدث عنها أمام لجنة التحقيق الأمريكية.

فعندما سألها السناتور سميث عما إذا كانت ترغب في أن تقول شيئًا آخر يتعلق بتصرفات البحَّارة، قالت:

– عندما انفصلنا عن الباخرة، تناول هؤلاء النُّدُل سجائرهم وأشعلوها في مثل هذه الظروف.

وفي الزورق رقم ١، حيث كان جو الألفة أكثر شيوعًا، لم يكن التدخين مشكلة. فعندما قدَّم السير كوزمو داف جوردون إلى الوقَّاد هنريكسون سيجارًا فاخرًا، لم تستطع كل من السيدتين الموجودتين في الزورق أن تعترضا كثيرًا. فقد كانت إحداهما هي الآنسة فرانكا نيللي الملحقة بخدمة السير داف جوردون، والأخرى هي الليدي داف جوردون، وكانت في حالة من السقم تمنعها من الاهتمام بشيء. ذلك أنها ظلت طيلة الليل وهي تضع رأسها على حافة المجداف وتفرغ ما في جوفها.

ولكن كان للزورق رقم ١ منازعاته أيضًا. فالعلاقة بين السير كوزمو والمستر س. هنري ستنجل من نيو جرسي بولاية نيويورك لم تستمر طيبة. وما كان هذا يهم كثيرًا في زورق مزدحم بالركَّاب. ولكن هذا التوتر في العلاقة في زورق به اثنا عشر راكبًا فقط كان مثيرًا للأعصاب. فطبقًا لشكاية السير كوزمو، كان المستر هنري ستنجل لا يكف عن الصياح قائلًا:

– هيا أيها الزورق..

وإنه كان يقدم للرقيب سيمونز نصائح متناقضة فيما يختص بقيادة الزورق. ولم يهتم أحد بذلك، ولكن أعصاب السير كوزمو توترت وطلب من المستر ستنجل أن يصمت. وقد تضاعف استياء السير كوزمو عندما شهد المستر ستنجل فيما بعد قائلًا: «لقد

اتخذت مع السير كوزمو القرار الخاص بالاتجاه الذي ينبغي أن يسير فيه الزورق».

وفي الوقت نفسه كان الوقَّاد بوزي حانقًا من مجهودات الليدي كوزمو لتعزية الآنسة فرانكا نيللي عن فقد قميص نومها الجميل. فقد قال لها عندئذ:

– لا بأس. لقد نجوتما من الموت، ولكننا فقدنا أمتعتنا.

وبعد نصف ساعة التفت بوزي الحانق إلى السير كوزمو، وقال:

– أعتقد أنك فقدت كل شيء.

– طبعًا.

– ولكنك تستطيع أن تحصل على أكثر مما فقدت.

– نعم.

– حسنًا. لقد فقدنا أمتعتنا. ولن تعطينا الشركة بدلًا منها. وأكثر من هذا، فإن مرتباتنا سوف تتوقف منذ الليلة.

وكان توتر أعصاب السير كوزمو قد بلغ الذروة، فقال:

– حسنًا، سوف أعطي كل بحَّار منكم خمسة جنيهات ليشتري أمتعة جديدة.

لقد فعل هذا حقًّا، ولكنه عاش ليشعر بالندم على ما فعل؛ لأن آل جوردون كانوا المشرفين تقريبًا على إدارة ذلك الزورق، وعدم عودة الزورق لمحاولة إنقاذ بعض السابحين جعل الناس يظنون أن السير

كوزمو وعد البحارة بالمال إذا هم رفضوا العودة لإنقاذ آخرين. وقد مرت على السير كوزمو، لهذا السبب، فترة عصيبة جدًّا.

وأكثر من هذا لم تخفف الأحداث التالية من قسوة هذا الوقت؛ فعندما جمعت الليدي جوردون البحارة الذين كانوا معها في الزورق لتأخذ معهم صورة تذكارية، بعد النجاة، وهم يرتدون جميعًا سترات النجاة، بدوا جميعًا كأنهم «طاقم» من البحارة الخصوصيين لآل جوردون. وأكثر من هذا أيضًا، فعندما أمضى الرقيب سيمونز -الذي كان مشرفًا اسميًّا على الزورق رقم ١ يومه مع محامي آل جوردون قبل أن يدلي بشهادته أمام لجنة التحقيق البريطانية، بدا الأمر كأن السير كوزمو قد اتخذ حتى من الرقيب سيمونز موجهًا لدفة يخت خاص.

ولم يكن ثمة ما يدين السير كوزمو بأكثر من اتهامه بالإمعان في قلة الذوق، وأثارت الخمر بعض الاضطرابات أيضًا، فعندما التقط الزورق رقم ٤ أحد نوتية الباخرة، وجدت معه زجاجة خمر، وسرعان ما ألقيت إلى البحر لأنه -كما شرح الأمر للصحافة فيما بعد - «لو لمسها أحد في حالة عصبية من ركاب الزورق، لكان من المحتمل أن تسوء النتيجة».

ولكن كان للآنسة أوستس حديث آخر: «كان مع راكب سكران زجاجة خمر، فأخذها رئيس النوتية منه، وألقاها في البحر، ودفع بالسكران إلى قاع الزورق».

وكان في الزورق رقم ٦ مشكلة من نوع مختلف. فقد بدأت المنازعات منذ اللحظة التي انزلق فيها الميجور بوتشين إلى الزورق ليحل محل أحد البحارة. ولم يستطع بوتشين -المعتاد إصدار

الأوامر- أن يقاوم رغبته في محاولة السيطرة على الجميع. ولكن كان لرئيس النوتية هتشينز رأي آخر في هذا الشأن، وفيما كانوا يبتعدون عن التيتانيك، كان بوتشين ممسكًا بمجداف، بينما تولى هتشينز أمر الدفة. ولكن لم يلبث بوتشين بعد عشر دقائق أن طلب من هتشينز أن يدع الدفة لإحدى السيدات ليشترك معه في التجديف. ورد هشتينز قائلًا: إنه المشرف على الزورق، وإن مهمة بوتشين هي التجديف والسكوت.

وراح الزورق ينساب مترنحًا في تثاقل شديد؛ لأن المجدفين عليه لم يكونوا غير بوتشين والرقيب فليت. ولكن لم تلبث معظم السيدات -بقيادة المسز براون- أن بدأن تدريجيًّا المساعدة، في حين ظل هتشينز ملتصقًا بالدفة صائحًا بهم ليضاعفوا من التجديف، وإلا امتصتهم المياه إذا غرقت الباخرة.

وبدأت النساء في الصياح ردًّا عليه، وفيما كان الزورق يمضي في جوف الظلام، كان الليل يمتلئ بصدى هذه المهاترات المريرة. وكان الزورق متجهًا في معظم الوقت نحو ذلك الضوء المراوغ عند الأفق، حتى إذا وضح أنهم لن يستطيعوا قط الوصول إليه، أعلن هتشينز أن الأمل في النجاة قد ضاع؛ لأنهم لا يملكون طعامًا ولا شرابًا ولا بوصلة ولا خرائط، ولأنهم على مسافة مئات الأميال من اليابسة، ولا يكادون يعرفون في أي اتجاه يمضون.

وكان اليأس قد تملك الميجور بوتشين عندئذ أيضًا، ولكن السيدات هاجمته بعنف، وأشارت له المسز كاندي بتجهم على النجم

القطبي. وطلبت منه المسز براون أن يغلق فمه ويستمر في التجديف، وسخرت المسز ماير من شجاعته.

ثم التقوا بالزورق رقم ١٦، فربطوا زورقهم إليه، وأمرهم هتشينز أن يكفوا عن التجديف، ولكن السيدات لم يستطعن احتمال البرد، وأصررن على مواصلة التجديف التماسًا للدفء. وتولت المسز براون الأمر، وأعطت مجدافًا لوقَّاد متسخ السمت تحول إلى زورقهم من الزورق رقم ١٦، وطلبت من الجميع أن يجدفوا. وتقدم هتشينز ليوقفها، ولكن المسز براون أخبرته أنه إذا اقترب منها خطوة أخرى فسوف تلقي به في البحر.

وتهالك متراجعًا تحت بطانية، وراح يصيح بالإهانات والسباب. وردت المسز ماير عليه متهمة إياه بالاستيلاء على كل البطاطين وشرب كل الويسكي، وشتمها هتشينز، وتعجب الوقَّاد المنقول إلى الزورق لهذا كله، وصاح قائلًا:

- ألا تعرف أنك تتحدث إلى سيدة؟

وصاح هتشينز قائلًا:

- أنا أعرف إلى من أتحدث، وإني المشرف على هذا الزورق.

ولكن تأنيب الوقَّاد له أتى ثمرته، فالتزم رئيس النوتية الصمت. وظل الزورق رقم ٦ يمضي في الظلام وهتشينز ساكن، والميجور بوتشين لا شأن له بشيء، والمسز براون متولية الأمر في الواقع.

وحتى بين الرجال المتعلقين بالزورق «ب» المقلوب، كان ثمة مجال للمناقرة. فقد لاحظ الكولونيل جراسي، وأسنانه تصطك، وشعره

المتلبد قد أمسى متجعدًا أن الرجل القابع بجواره يغطي رأسه بقلنسوة جافة، فطلب منه أن يعيرها له برهة حتى يدفئ رأسه. فرد الرجل عليه فورًا «وماذا أفعل أنا؟».

وكان ثمة ما يبرر توتر الأعصاب على الزورق المقلوب رقم «ب»، فقد كانت المياه تتسرب من ثقب في جانبه، وأن الزورق يغوص في المياه تدريجيًّا، والأمواج أحيانًا تغمر قاعه المقلوب، ومن ثم كانت أي حركة خاطئة مفاجئة كفيلة بطرح الجميع إلى البحر. وهكذا كانت الحاجة عليه ماسة لقيادة حكيمة هادئة.

وفي تلك اللحظات، شعر الكولونيل جراسي بالراحة عندما سمع ذلك الصوت العميق الجذاب للضابط الثاني لايتوللر. بل لقد ازداد شعوره بالراحة، عندما صاح بحار سكران قائلًا:

– لسوف نطيع ما يأمر به الضابط.

واستجاب لايتوللر للنداء فورًا، وهو يشعر أن الأمر يحتاج إلى حزم وتنظيم إذا أُريد بقاء الزورق متوازنًا. ومن ثم أمر الرجال الثلاثين المتعلقين به بالوقوف، ثم انتظمهم في صفين ووجوههم نحو المقدمة، فإذا مال الزورق مع الموج، صاح بهم: «ميلوا جميعًا إلى اليمين»، أو: «ابقوا في أماكنكم»، أو: «ميلوا إلى اليسار». وذلك للمحافظة على توازن الزورق كلما مال إلى هذا الاتجاه أو ذاك.

وفيما كان يلقون بثقلهم في هذا الاتجاه أو ذاك، كانوا يطلقون صيحة البحَّارة التقليدية. ولكن لايتوللر طلب منهم أن يوفروا هذا الجهد على أنفسهم.

وظل البرد يشتد. وعاد الكولونيل يشكو من رأسه، ولكنه وجَّه شكواه في هذه المرة إلى لايتوللر. وعرض عليهما رجل آخر جرعة من زجاجة الشراب التي معه، ولكنهما رفضا هذا العرض، وطلبا منه أن يقدم الجرعة إلى والتر هيرست الذي كان يرتعد بشدة. وظن هيرست أن بالزجاجة براندي، فشرب منها جرعة كبيرة، فكاد يختنق؛ لأن الزجاجة كان بها روح النعناع.

ورغم هذا كله كان الحديث يدور بينهم بكثرة، فتحدث الطاهي المساعد جون مينارو عن كيف رأى الكابتن سميث وهو يسبح بجوار الزورق قبل أن تختفي التيتانيك نهائيًّا، وكيف أنهم رفعوه إلى الزورق، ولكنه انزلق عائدًا إلى البحر. وقد زعم الوقَّاد هاري سينيور فيما بعد أن الربَّان عاد إلى البحر عامدًا قائلًا: «لسوف أغرق مع الباخرة». وربما كان الوقَّاد صادقًا. ولكن هيرست يؤكد أن الربَّان لم يصل قط إلى الزورق. وعدا هذا فقد كان الوقَّاد أحد الذين بلغوا الزورق متأخرين -أي ربما أكثر تأخرا من أن يرى الربَّان نفسه.

ولكن معظم أحاديثهم كانت تدور حول احتمالات نجاتهم. ولم يلبث لايتوللر أن لحظ وجود هارولد برايد -عامل اللاسلكي المساعد- عند مؤخرة الزورق، فسأله، من مكانه عند المقدمة، عن البواخر التي في الطريق إليهم، وهتف برايد من مكانه قائلًا: إنها البواخر «بالتيك» و«أولمبيك» و«كارباتيا». وتوقع لايتوللر وصول «كارباتيا» مع الفجر. ونشر هذا الاحتمال بين الجميع ليرفع من أرواحهم المعنوية الهابطة.

ومن ذلك الحين وهم يحملقون في الأفق بحثًا عن أي بارقة. وكانوا

بين الحين والآخر يستبشرون بالأضواء الخضراء التي كان بوكسهول يطلقها من الزورق رقم ٢. وحتى لايتوللر كان يظن أنها مرسلة من باخرة أخرى.

وراح الليل ينقضي ببطء. وحتى الهواء بدا أشد برودة. أما البحر فقد غدا في برودة الجليد، وراحت الأمواج القارسة البرد تضرب أقدام وسيقان وركب الرجال في الزورق رقم «ب»، وكان الرذاذ يحز في أجسادهم ويعمي أبصارهم. وانزلق رجل، ثم آخر، ثم آخر، من المؤخرة واختفوا جميعًا. وخيم الصمت على الباقين، وقد استغرقوا تمامًا في معركة الرغبة للبقاء على قيد الحياة.

وكان البحر ساكنًا أيضًا، فلم يرَ أحد أي أثر للحياة على الأمواج التي كانت تمور على سطح المحيط الأطلسي، عندما أخذت بوادر الفجر تومض في السماء.

ولكن كان هناك رجل لم يزل على قيد الحياة –ويرجع الفضل في هذا إلى مزيج من الإلهام والحظ والخمر. فقبل أربع ساعات، أي عندما استيقظ كبير الخبَّازين تشارلز جوجين– كما استيقظ كثيرون غيره على الباخرة التيتانيك –بسبب الصدمة والهزة سمع، كما سمع كثيرون غيره، الأمر العام بالاستعداد للطوارئ بعد منتصف الليل بقليل.

ولكن جوجين لم يكتف بتقديم نفسه فقط إلى سطح زوارق النجاة، وإنما فكر في أنه ما دامت الحاجة إلى الزوارق قد وجبت، فقد وجبت أيضًا الحاجة إلى الزاد، وبسبب هذا الإلهام، أمر عماله الثلاثة عشر خبَّازًا بنهب كل ما مخزن مؤونة الباخرة من أرغفة خبز باقية، وهكذا

صعد الخبَّازون إلى السطح، ومع كل منهم أربعة أرغفة كبيرة.

وبعد أن تم هذا، عاد جوجين إلى مقصورته على السطح «أ» في الجانب الأيسر ليرتشف جرعة من الويسكى. وكان الأمر، في هذه الرحلة، لا يزال عسيرًا لإقناع السيدات بركوب الزوارق. ومن ثم لجأ جوجين إلى وسائل أقسى، فهبط إلى ممر النزهة، وأمسك بعدد منهن عنوة، ثم «قذف» -على حد تعبيره، بهن إلى أحد الزوارق. وأتت هذه الغلظة ثمارها.

وعهد إلى جوجين بالإشراف على الزورق رقم ١٠. ولكنه رأى أن فيه من الرجال ما يكفي لتسييره. ومن ثم اكتفى بالمساعدة على إنزاله إلى الماء. أما الذهاب فيه، فقد كان -كما قال- «يعتبر مثلًا سيئًا».

وكانت الساعة عندئذ قد بلغت الواحدة والدقيقة العشرين. وهنا هبط على السلالم المائة مرة أخرى إلى مقصورته بالسطح «أ»، وارتشف جرعة أخرى كبيرة من الخمر، ثم جلس على فراشه يستمتع بها، مدركًا -في غير اهتمام كبير- أن المياه قد أخذت تتسرب من باب المقصورة، وتمور على مشمع الأرضية ذي المربعات، وترتفع إلى حذائه.

وفي الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة والأربعين، رأى دون الناس جميعًا -الدكتور العجوز أولولين يتجول بين الممرات، ولكن جوجين لم يحاول قط أن يتساءل عما دفع بالسيد العجوز إلى هذا المكان؛ ذلك لأن قربه من المطبخ جعله يدرك أن كلًّا منهما يفكران في موضوع واحد.

وأيًّا كان الأمر فقد حياه جوجين باقتضاب، وصعد إلى سطح

الزوارق، ولكنه وصل متأخرًا؛ لأن الباخرة كانت عندئذ تميل بشدة وبلغ الانحدار مداه، ولو أنه زاد شيئًا، لكان من المستحيل الصعود إلى السطح عن طريق السلالم.

ورغم أن زوارق النجاة كانت كلها قد غادرت الباخرة، إلا أن جوجين لم ييأس، وإنما هبط إلى السطح «ب»، وراح يلقي بالمقاعد الخفيفة من نوافذ ممر النزهة المسقوف، وراح بعضهم يراقبونه، ولكنهم لم يتعاونوا معه، وكان عدد ما قذف به من المقاعد إلى البحر نحو خمسين مقعدًا.

وكان عملًا مرهقًا، ومن ثم عاد جوجين، بعد أن ألقى بآخر مقعد من النافذة «وكانت العملية شاقة كالذي يدخل خيطًا في ثقب إبرة» إلى المطبخ على الجانب الأيمن للسطح ١، وكانت الساعة قد بلغت الثانية وعشر دقائق.

وفيما كان يروي ظمأه -بالماء في هذه المرة- سمع صوت تهشم، كأنما انهار شيء، وإذا بالأطباق والأقداح تتطاير حوله، والأضواء تحمر لونًا، ثم سمع في أعلى وقع الأقدام وهي تجري نحو المؤخرة.

واندفع هاربًا من المطبخ إلى الطرف الخلفي للسطح «أ» وراء عدد من الركَّاب كانوا يجرون في نفس الاتجاه ويهبطون مسرعين من سطح زوارق النجاة الأعلى، وحاول بقدر الإمكان أن يبتعد عن منطقة الانهيار، وظل يجري وراء الهاربين. وبعد أن عبر سلالم السطح «ب» إلى سطح الرحبة الخلفية، إذا بالباخرة تيتانيك تميل فجأة بعنف إلى اليسار، قاذفة بمعظم الركَّاب بعضهم فوق بعض على سياج الجانب الأيسر.

وكان جوجين فقط هو الذي استطاع أن يحتفظ بتوازنه. كان متحفزًا، هادئ الأعصاب، بارعًا في التوازن إلى حد الإعجاز، على حين ظلت مؤخرة الباخرة ترتفع من جهة، وتزداد ميلًا إلى اليسار من جهة أخرى. ولكن سطح الباخرة بلغ من شدة الميل أن أمسى الوقوف عليه مستحيلًا. فانزلق جوجين إلى السياج الأيمن ووقف على الجانب الفعلي للباخرة، ثم راح يشق طريقه صاعدًا، وهو لا يزال ممسكًا بالسياج من ناصيته الخارجية. حتى وصل إلى الألواح الفولاذية البيضاء التي تكسو سطح المؤخرة. وهناك وقف على المؤخرة المستدير للباخرة التي كانت الآن قد ارتفعت فوق سطح الماء بنحو مائة وخمسين قدمًا.

وشد جوجين طوق النجاة عليه، ثم نظر في ساعته، فإذا هي الثانية والربع بعد منتصف الليل. وبعد أن فكر مليًّا، خلعها من يده ووضعها في جيب بنطلونه الخلفي، وفيما هو يفكر حائرًا في موقفه، إذا به يشعر بالمؤخرة تحت قدميه إلى أسفل، وكان شعوره عندئذ كشعور الواقف في مصعد يهبط. حتى إذا أحاطت المياه بالمؤخرة، وثب جوجين إلى الماء في رفق، فلم يبتل حتى رأسه.

وراح يسبح في جوف الليل، غير حافل ببرودة المياه القارسة. وكانت الساعة قد بلغت الرابعة صباحًا، عندما رأى ما ظنه حطامًا في ضوء الفجر الشاحب، فسبح إليه وعرف أنه الزورق المقلوب «ب».

وكان القاع مزدحمًا، فلم يستطع الصعود إليه، ومن ثم ظل يسبح

بالقرب منه حتى لمح صديقًا قديمًا من عمال المطبخ -وكان الطاهي الخاص بألوان الطعام الأولى جون ماينارد. وثبت أن دم الزمالة أقوى من الماء؛ إذ مد ماينارد يده، وتعلق جوجين بها. وظل يسبح دون أن يتمكن من الصعود.

ولم يلحظه الآخرون.. لأنهم كانوا مخدرين من شدة البرد، بحيث لم يعد يهمهم أمره، ولأنهم من جهة أخرى كانوا يحملقون إلى الأفق الجنوبي الشرقي. وكانت الساعة بلغت الثالثة والنصف عندما رأوا لأول مرة ذلك الوميض البعيد السابق لدوي بعيد جدًّا. وقد صاحت المس نورتون في الزورق رقم ٦: «ها هي ذي ومضة برق»، وغمغم هتشينز قائلًا: «إنه نجم ساقط». أما الزورق رقم ١٣، فقد وثب وقَّاد كان راقدًا في قاعه يكاد يفقد وعيه من فرط البرد، وهتف قائلًا: «هذا دوي مدفع».

وسرعان ما سطع ضوء مفرد من نفس الاتجاه، ثم تلاه آخر، ثم مجموعة من الأضواء بعد مجموعة. ووضح أن باخرة كبيرة كانت منطلقة بأقصى سرعتها وهي ترسل الصواريخ لتؤكد لركاب التيتانيك أن العون في الطريق. وقال بادي ماكاو -في الزورق رقم ٩- بصوت هادر:

- هلموا نُصَلِّ لله، فإن في الأفق باخرة مسرعة نحونا.

وأرسل المتعلقون على الزورق «ب» صيحة ابتهاج، وعادوا يثرثرون بالحديث مرة أخرى، وأشعل أحد ركاب الزورق رقم ٣

صحيفة، وأخذ يلوح بها في اهتياج، ثم تناول قبعة المسز دافيدسون القش، إذ وجد أنها تستغرق وقتًا أطول في الاحتراق. وفي زورق المسر أ. س جيروان غمسوا المناديل بالبترول وأشعلوها كإشارات. وفي الزورق رقم ١٣ صنعوا مشعلًا ورقيًّا من عدد من الخطابات. وأطلق بوكسهول آخر وميض أخضر في الزورق رقم ٢. وفي الزورق رقم ٨ راحت المسز هوايت تحرك عصاها ذات المشعل الكهربي بقوة لم تحرك بمثلها من قبل.

وراحت هتافات الاستبشار والتفاؤل ترفرف فوق سطح الماء، حتى الطبيعة بدا أنها مبتهجة عندما أخلى الليل الكئيب الطريق لفجر وردي جميل.

ولكن لم يكن كل واحد من ركاب الزوارق قد رأى هذا المنظر، ففي الزورق رقم ١ نصف الغارق، كان أولوس إيلزيس يحاول أن يبث الرغبة في الحياة في نفس رجل بجواره نصف متجمد من البرد. ولما تبلج الفجر أمسك بكتف الرجل، وأجلسه في قاع الزورق، وقال له متوسلًا:

– انظر.. إننا نستطيع أن نرى الآن باخرة.. فتشجع.

وتناول إحدى يدي الرجل ورفعها، ثم هز كتفه. ولكن الرجل قال فقط:

– من أنت؟

وبعد برهة عاد يقول:

– دعني وشأني.. من أنت؟

وظل إيلزيس ممسكًا به فترة، ولكن الوضع كان شاقًّا عليه، فاستعان بلوح من ألواح الزورق ليسند به الرجل، وبعد نصف ساعة توهجت السماء بألوان الصواريخ الوردية والذهبية والقرمزية.. ولكن الرجل لم يرها؛ لأنه كان قد انتقل إلى العالم الآخر.

* * *

الفصل التاسع

«إننا في الطريق إلى الجنوب كالريح»

كانت المسز حنة كرين تشعر بالحيرة إزاء هذه الرائحة المنعشة للقهوة التي تغلي، وهي راقدة في مقصورتها بالباخرة كارباتيا التابعة لشركة كونارد، في طريقها من نيويورك إلى البحر المتوسط. وكانت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل في الليلة الرابعة لبدء الرحلة، وكانت المسز كرين قد عرفت عندئذ الشيء الكثير عن الحياة في عابرة المحيط هذه الصغيرة، بحيث كانت تدرك أن أي نشاط يجري فيها بعد منتصف الليل يعتبر أمرًا غير عادي، فضلًا عن تلك القهوة التي تغلي.

وفي ناحية أخرى من الممر، كانت الآنسة حنة بترسون راقدة مستيقظة أيضًا في سريرها. وكانت تتساءل عن السر في إضاءة جميع الأنوار بكل أنحاء الباخرة –مع أن المعتاد أن تطفئ هذه الباخرة الفقيرة أنوارها في مثل هذا الوقت.

ولكن المستر هوارد شابين كان أكثر شعورًا بالقلق منه بالحيرة. كان ينام في السرير الأعلى بمقصورة على السطح «أ» ووجهه يقع

على مسافة بوصات قليلة من سقف المقصورة. وكان أحيانًا يستيقظ بعد منتصف الليل على أصوات غريبة، وكأنها أصوات رجل يركع على السطح الذي فوقه مباشرة، وكان في اليوم السابق قد لاحظ وجود زورق للنجاة مربوطًا في جانب هذا السطح، وهو الآن يشعر يقينًا أن هذا الرجل يفك الزورق، وأن شيئًا قد حدث.

وفي مكان قريب، استيقظت المسز لويز أوجدن داخل مقصورة باردة الجو بباخرة منطلقة بأقصى سرعتها. ولما سمعت أصواتًا مرتفعة فوقها، أدركت هي أيضًا أن شيئًا ما قد حدث. وهزت زوجها النائم توقظه، ولكن تعليله للأمر لم يطمئنها؛ لأن الأصوات كانت تنم عن انشغال البحارة بقطع أربطة زوارق النجاة. ومن ثم فتح باب المقصورة، وأطل برأسه ليرى صفًّا من البحارة يمرون حاملين البطاطين والحشايا. لم يكن هذا المنظر مطمئنًا أيضًا.

وهكذا راح النائمون خفيفًا هنا وهناك، في كل أنحاء الباخرة، ينصتون بقلق للأوامر المكتومة، والأقدام المدقدقة، وصرير المطارح والمقابض. وتعجب بعضهم من حالة المحركات؛ ذلك لأنهم لاحظوا أنها تعمل بسرعة رهيبة، بسرعة لم يشعروا بمثلها من قبل قط، بحيث أخذت الحشايا تهتز، وأكواب الحوض تصلصل في قواعدها، والهيكل الخشبي يئن من فرط العبء الملقى عليه. وكان صنبور المياه الباردة يعمل طبيعيًّا، أما صنبور المياه الساخنة فكان لا يرسل من الماء شيئًا إذا فتحته –وهكذا لاح أن المحركات تعمل بكل ذرة من البخار الموجود في الباخرة.

وكان أعجب من هذا كله البرد القارس. فقد غادرت «كارباتيا» نيويورك في الحادي عشر من شهر أبريل في طريقها إلى جبل طارق وجنوا ونابلي وتريستا وفيدمي. وكان معظم الركَّاب المائة والخمسين بالدرجة الأولى من الأمريكيين العجائز القاصدين المناطق المشمسة في الشتاء، أما الخمسمائة والخمسة والسبعون راكبًا بالدرجات الدنيا فكان معظمهم من الإيطاليين والسلافيين العائدين إلى مناطقهم المشمسة بالبحر المتوسط. وكانوا جميعًا قد رحبوا بعد ظهر يوم الأحد ذاك بالنسائم المحسنة لتيار الخليج الدافئ. وفي نحو الساعة الخامسة بلغ الجو من الدفء حدًّا جعل المستر شابين ينتقل بمقعده على السطح إلى الظل. أما الآن فقد حدث تغيير عجيب؛ لأن التيار الهوائي المُثلَّج الذي كان يكتسح كل مكان وينفذ من كل فجوة يدل على أنه آت من منطقة قطبية.

وعلى مركز المراقبة كان الربَّان آرثر هـ. روسترون يتساءل عما إذا كان قد نسي أي شيء من الإجراءات اللازمة. لقد عاش في البحر سبعة وعشرين عامًا، منها سبعة عشر مع شركة كوناردر. ولكن هذه كانت سنته الثانية كربَّان في شركة كوناردر، وشهره الثالث كربَّان للباخرة كارباتيا. وكانت استغاثة التيتانيك أول تجربة من نوعها في حياته الملاحية.

وكان الربَّان قد آوى إلى فراشه ليلًا عندما وصلت إشارة الاستغاثة، ومن ثم اندفع هارولد كوتام عامل اللاسلكي على الباخرة كارباتيا حاملًا الإشارة إلى الضابط الأول دين الواقف في مركز المراقبة. ثم اندفع الاثنان يهبطان السلم، ويجتازان غرفة الخرائط، ويقتحمان مقصورة

الربَّان روسترون المعروف بحرصه الشديد على النظام، حتى وهو نصف نائم. ومن ثم تعجب أشد العجب وهو يرى هذه الفوضى تشيع في أنحاء الباخرة على هذا النحو، إذ كان المفروض أن يطرق الاثنان على باب المقصورة عند الدخول. وقبل أن يؤنبهما أخبره دين بالنبأ.

ووثب روسترون من فراشه، وأمر بتحويل خط سير الباخرة، وبعد أن تم تنفيذ هذا الأمر، قال لعامل اللاسلكي كوتام على سبيل التأكد:

– هل أنت واثق أن التيتانيك في حاجة إلى مساعدة عاجلة؟

– أجل يا سيدي.

– هل أنت متأكد تمامًا؟

– تمام التأكد.

– حسنًا. أرسل الرد بأننا آتون بأسرع ما نستطيع.

واندفع روسترون بعد ذلك إلى غرفة الخرائط ليحدد الخط الجديد لسير الباخرة كارباتيا. وفيما هو يقوم بعملياته الحسابية، لمح مساعد رئيس النوتية يمر ومعه مجموعة من البحارة لغسل أسطح الباخرة. ومن ثم أخبره الربَّان أن يترك أمر تنظيف الأسطح الآن ويعد زوارق النجاة للنزول إلى البحر. وفغر البحَّار فمه، ولكن الربَّان طمأنه قائلًا:

– اطمئن.. إننا في الطريق إلى باخرة أخرى في محنة.

وفي لحظات قليلة تحدد خط السير الجديد. شمالي ٥ غربًا، وكانت الباخرة كارباتيا على بعد ٥٨ ميلًا، فإذا سارت بسرعة ١٤ عقدة في الساعة أمكنها أن تصل في خلال أربع ساعات، وهو وقت متأخر جدًّا.

وأرسل روسترون يستدعي كبير المهندسين جونستون، وأخبره أن يطلق للباخرة كل سرعتها، وأن يستدعي جميع الذين فرغوا من نوبات أعمالهم، وأن يستولي على جميع مرافق الحرارة، ويضع كل ذرة من البخار في المراجل.

وبعد ذلك أرسل روسترون يستدعي الضابط الأول دين، وطلب منه أن يدع جانبًا كل الأعمال التقليدية، ويعد الباخرة لعملية إنقاذ: أي يعد ويفك جميع زوارق النجاة، ويزود جوانب الباخرة بالمصابيح الكهربية، وأن يفتح بوابات جميع ممرات التشغيل، وأن يجهز المحفات والحبال في كل ممر، وأن يعد مقاعد خاصة للجرحى والمرضى، والأكياس القماشية والحقائب لرفع الأطفال عند كل ممر تشغيل، وأن يضع السلالم الخاصة بالمرشدين، وسلالم الجوانب عند ممرات التشغيل، وعلى جوانب الباخرة، ثم تجهيز روافع البضائع لمعاونة المنقذين على الصعود، وإعداد الروافع الأمامية «مع تزويدها بالبخار اللازم» لرفع البريد والأمتعة إلى السطح، وإعداد دنان الزيت لصبه على جانبي الباخرة إذا كان البحر ثائرًا..

ثم استدعى طبيب الباخرة الدكتور ماجي، وطلب منه أن يجمع كل عقاقير التنبيه والإسعاف الموجودة بالباخرة وكل ما يلزم للطوارئ، وأن ينظم مراكز للإسعاف في كل قاعة طعام، وأن يعهد للطبيب المجري الإشراف على ركاب الدرجة الثالثة، وللطبيب الإيطالي الإشراف على ركاب الدرجة الثانية، على أن يتولى ماجي بنفسه أمر ركاب الدرجة الأولى.

ثم جاء دور الصرَّاف براوف، فكان عليه وعلى كبير النُدُل والصراف المساعد أن يشرف كل منهم على ممر تشغيل مختلف، وأن يستقبلوا ركاب التيتانيك، ويسجلوا أسماءهم، ويوزعوهم إلى الأماكن المخصصة لكل فئة «حسب الدرجة» للفحص الطبي.

وأخيرًا مجموعة أخرى من الأوامر إلى رئيس النُدُل هاري هيوز، فكان عليه استدعاء كل عامل على الباخرة، وإعداد القهوة على نطاق واسع، وتجهيز الحساء والمنبهات «قهوة وشاي» والبراندي والويسكي للناجين، ووضع أكوام البطاطين عند كل ممر تشغيل، وتحويل غرفة التدخين والاستراحة والمكتبة إلى مخادع لنوم الناجين، وتجميع كل ركاب المؤخرة في الباخرة كارباتيا معًا، واستخدام الأماكن الخالية لركاب المؤخرة في الباخرة التيتانيك.

وكان روسترون، وهو يصدر أوامره، حريصًا على أن ينصح الجميع بكتم الأمر. ذلك أن المهمة التي سيقومون بها كانت أخطر من أن يفسدها اضطراب الركَّاب في الباخرة كارباتيا. ومن ثم فكلما استغرقوا في النوم كان ذلك أفضل. ومن أجل المزيد من الاحتياط، عهد بالنُدُل للحراسة في جميع الدهاليز. وكان عليهم أن يخبروا كل راكب يخرج للاستفسار عما حدث أن كل شيء بخير، وأن عليه العودة إلى مقصورته مطمئنًا.

ثم أرسل مفتشًا شرطيًّا مسلحًا مع عدد من النُدُل إلى ركاب المؤخرة ليسيطروا عليهم؛ لأن أحدًا لم يكن يعلم كيف كانوا سيتصرفون إذا منعوا من الصعود إلى سطح الباخرة.

وانتفضت الباخرة بالحياة.. فهناك، في غرفة المحركات، بدا كأن كل واحد فيها قد عثر على جاروف وراح يهيل الفحم في الأفران، ووثب العمال الاحتياطيون من أسرتهم وهرعوا لتقديم يد المساعدة. ولم يحاول معظمهم الانتظار حتى ليرتدوا ملابسهم الخارجية. وهكذا راحت الباخرة العتيقة تشق عباب الماء قدمًا بسرعة ١٤ عقدة في الساعة ثم ١٤,٥ ثم ١٥.. ثم ١٦,٥.. ثم ١٧.. ولم يكن أحد يحلم أن في مقدور الباخرة كارباتيا الانطلاق بمثل هذه السرعة.

وفي جناح النوتية، استيقظ «النادل» روبرت هـ. فوان على جذبة لبطانيته، ثم سمع صوتًا يطلب منه الاستيقاظ وارتداء الملابس. ورغم الظلمة الحالكة، فقد استطاع فوان أن يسمع زملاءه وهم يرتدون ملابسهم، فلما سأل عما جرى، قال له أحدهم: إن الباخرة كارباتيا اصطدمت بجبل ثلج عائم.

وأسرع فوان متعثرًا إلى كوة مقصورته وتطلع إلى الخارج، ولكنه رأى الباخرة منطلقة في طريقها، والأمواج المتوجة بالزبد تتكسر على جانبيها، أي كان من الواضح أنه لم يقع سوء للباخرة كارباتيا، ومن ثم فقد استبدت به الحيرة وهو مستمر مع زملائه في ارتداء الملابس، وقد زاد من حالة ارتباكهم أن أحرق أحدهم أسلاك المصباح الكهربي الوحيد في جناحهم، مما اضطرهم إلى ارتداء الملابس في الظلام الحالك.

ولما وصلوا إلى السطح، عهد إليهم أحد الضباط يجمع البطاطين. وبعدها ذهبوا إلى قاعة الطعام بالدرجة الأولى، فوجدوها كخلية النحل.. إذ كان العمل يجري بهمة في نقل المقاعد، وإعادة تنظيم

الموائد، وتحويل زجاجات الشراب من البار إلى الخزانة، كل هذا دون أن يعرف فوان وزملاؤه السبب. وانتشرت الأقوال في مكان آخر بأن الكابتن روسترون يريد ثلاثة آلاف بطانية «لهؤلاء الزيادة من الناس»، ولكن لم يكن أحد يعرف السر في هذا كله.

إلا أنهم عرفوا الحقيقة في الساعة الواحدة والربع. فقد حشد جميع النُدُل في قاعة الطعام الكبرى، وألقى رئيسهم هيوز كلمة موجزة عليهم، فحدثهم عن التيتانيك، وشرح لهم واجباتهم، ثم توقف برهة، ثم اختتم حديثه قائلًا:

– ليمضِ كل منكم إلى مركزه، وليؤدِّ واجبه كاملًا كأي إنجليزي أصيل، فإذا لزم الأمر، فهلمَّ تضفْ صفحة مجد أخرى إلى التاريخ الإنجليزي.

ثم انصرف النُدُل إلى أعمالهم، وأخذ معظمهم يحملون البطاطين من المخازن إلى الممرات. وكان هؤلاء هم الرجال الذين شاهدوا لويس أوجدن عندما أطل برأسه أول مرة من مقصورته. ثم قرر أن يحاول استطلاع الأمر مرة أخرى، فلما رأى الدكتور ماجي يمر، اعترض سبيله وسأله، ولكن الدكتور قال له:

– أرجوك أن تلزم مقصورتك، فهذه أوامر الربَّان.

– نعم، ولكن ماذا حدث؟

– حادث. ولكن ليس لهذه الباخرة.. عد إلى مقصورتك.

وأخبر المستر أوجدن زوجته بالأمر. وكان واثقًا لسبب ما أن

الباخرة كارباتيا مشتعلة بالنار، وأنها مسرعة لتجد المعونة في أي مكان. وابتدأ يرتدي ملابسه، ثم انفلت صاعدًا إلى السطح حيث وجد رئيس نوتية يعرفه. وقد تلقى منه ردًّا صريحًا: «لقد وقع حادث للباخرة التيتانيك».

فرد المستر أوجد قائلًا في شيء من الفوز:

– عليك أن تذكر سببًا أفضل من هذا. إن التيتانيك تسير في الخط الشمالي، ونحن نسير في الخط الجنوبي.

– إننا في الطريق شمالًا كالريح. عد إلى مقصورتك.

وعاد المستر أوجدن ليبلغ الأمر إلى زوجته. فقالت له:

– وهل تعتقد هذا؟

– لا. لهذا انهضي وارتدي أثقل ملابسكِ.

ولم يكن ثمة شك يخامر ذهن المستر أوجدن عندئذ، ذلك أنه كان يعلم أن التيتانيك «غير قابلة للغرق». وعلى هذا فلا بد أن الطبيب كان يتستر على الحقيقة. ولا شك أن حديثه قد أيد أسوأ مخاوفهما –أي إن الباخرة كارباتيا في خطر، ولا بد لهما من النجاة، واستطاعا على نحو ما، أن يتسللا إلى السطح. وأمكن لغيرهما أن يفعلوا هذا أيضًا، ثم راحوا يتبادلون المعلومات وهم مجتمعون في حلقات صغيرة بعيدة عن أعين الملَّاحين. ثم أخذوا يدركون، تدريجيًّا، أن الباخرة كارباتيا ليست في خطر. ولكن على الرغم من الشائعات المنتشرة عن التيتانيك، فإن أحدًا لم يكن متأكدًا من السبب الذي يدفع بالباخرة كارباتيا إلى الانطلاق

بهذه السرعة الجنونية في جوف الليل. ولم يكن في مقدورهم، بطبيعة الحال، أن يسألوا أحدًا، وإلا أعيدوا إلى مقاصيرهم مرة أخرى. وهكذا اكتفوا بالوقوف جماعات صغيرة في الظلام، وقد شدوا أعينهم إلى الظلام، دون أن يعرفوا حتى إلى أي شيء ينظرون.

والواقع أنه لم يكن على ظهر «كارباتيا» أحد يعرف أي شيء ينتظر. ففي مكتب اللاسلكي الصغير الواقع فوق غرفة التدخين بالدرجة الثانية، أمسى هارولد كوتام عاجزًا عن الاتصال بالباخرة التيتانيك؛ ذلك أن جهازه كان رديئًا جدًّا لا يتجاوز نطاق إرساله مائة وخمسين ميلًا على الأكثر. ومن ثم لم يكن واثقًا مما حدث. ومن يدري.. فلعل التيتانيك كانت مستمرة في إرسال إشارات الاستغاثة، ولكن إرسالها أمسى أضعف من أن يلتقطه جهاز كارباتيا.

ومن ناحية أخرى، كانت الأنباء التي تلقاها حتى ذلك الحين سيئة جدًّا. ففي الساعة الواحدة وست دقائق سمعها كوتام تقول للباخرة أولمبيك: «جهزي زوارق النجاة، فإننا نغوص بسرعة عند المقدمة».. وفي الساعة الواحدة وعشر دقائق سمعها تقول: «إننا نغوص بالمقدمة».. وفي الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة والثلاثين سمعها تقول: «غرفة الآلات تمتلئ بالماء».

وفي ذات مرة سمع كوتام الباخرة التيتانيك تسأله عن المدة التي يمكن أن تصل كارباتيا إليهم فيها، فرد قائلًا: «أربع ساعات تقريبًا»، وذلك بعد أن اتصل بالربَّان. ولكن لم يكن يعرف كل إمكانيات الباخرة كارباتيا.

وفي الساعة الواحدة والدقيقة الخمسين، سمع الرجاء الأخير:

«أسرعوا إلينا بقدر الإمكان. إن المياه تغمر غرفة الآلات، وتكاد تصل إلى المراجل».

ثم السكون التام بعد ذلك.

وها هي ذي الساعة تجاوزت الثانية بعد منتصف الليل، وكوتام لا يزال مكبًّا في اهتمام شديد على جهازه اللاسلكي. وحدث أن اختلست المس بترسون النظر إليه، فرأته لا يزال مرتديًا قميصه الخفيف رغم البرد القارس. وكان قد بدأ في خلع ملابسه عندما وصلت إشارة الاستغاثة، ومن ثم لم يستطع أن يجد لحظة ليعيد ارتداء ما خلعه من ملابس.

وهناك، على مركز المراقبة، كان الربَّان روسترون يتساءل أيضًا، لقد نظم رجاله، وفعل كل ما يمكن التفكير فيه، ثم هو الآن يواجه أشق مرحلة، وهي مرحلة الانتظار. وكان يقف بجواره الضابط الثاني جيمس بيسيت، وهناك في أبراج المراقبة، كان ثمة رقباء إضافيون، كلهم يحملقون بحثًا عن جبال الثلج العائمة، وعن الباخرة التيتانيك –ولكنهم حتى ذلك الحين لم يروا شيئًا– مجرد البحر الأملس، والأنجم الوامضة، والأفق الصافي الواضح الخالي.

وفي الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والثلاثين، صعد الدكتور ماجي السلم إلى مركز المراقبة؛ وأخبر روسترون أن كل شيء في الباخرة قد غدا مجهزًا. وبينما كان يتحدث رأى روسترون فجأة الوميض الأخضر في الأفق على مسافة بعيدة من الجانب الأمامي الأيسر، وصاح قائلًا:

– ها هو ذا الضوء. لا بد أنها لا تزال تطفو.

وكان الأمر يبدو هكذا حقًّا؛ لأن الوميض كان يبدو من مسافة بعيدة، ولا شك أنه كان مرتفعًا عن الماء كثيرًا، حتى أمكن رؤيته من هذه المسافة.. وكانت الساعة الثانية والدقيقة الأربعين فقط، وها هم أولاء قد أمسوا على مرمى النظر. فلعل كارباتيا تستطيع أن تصل في الوقت المناسب.

ثم لمح الضابط الثاني بيسيت في الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والأربعين وميضًا خفيفًا من الضوء على مسافة بعيدة في الجانب الأيسر من المقدمة –وكان مصدر الوميض هو جبل الثلج العائم الأول، وقد انعكس عليه ضوء نجم.

ثم شُوهد بعد ذلك جبل ثلج عائم آخر، ثم ثالث. ومن ثم راحت الباخرة كارباتيا تروغ من هذه الجبال الطافية على جوانبها دون أن تخفف من سرعتها. واستمرت الباخرة في انطلاقها، والرجال يحبسون أنفاسهم في ارتقاب جبل الثلج العائم التالي، وبين الحين والآخر، كانوا يلمحون الوميض الأخضر من بعيد.

وأتيح للنُدُل، بعد أن تم إعداد كل شيء، بعض الوقت للراحة. فذهب روبرت فوان وزملاؤه إلى السطح الخلفي، وهناك أخذوا – كالملاحين الذين يستعدون للمعركة– يتواثبون ويتسابقون التماسًا للدفء، وحدث أن مر جبل ثلج عائم ضخم على مقربة من الجانب الأيمن، فصاح أحدهم.

– انظروا أيها الرفاق إلى الدب القطبي وهو يحك نفسه بكتلة من الجليد.

ولعلها كانت فكاهة ضعيفة، إلا أنها جعلت الرجال يضجون بالضحك والباخرة كارباتيا تمعن في انطلاقها.

وكانت عندئذ تطلق الصواريخ: واحدًا في كل ربع ساعة، مع إطلاق شموع «كوناردر ومان» المضيئة بين الحين والآخر. وانتشرت الأنباء في داخل الباخرة بأن التيتانيك أمست على مرمى النظر، وهكذا أخذ النُدُل في قاعة الطعام الرئيسة مراكزهم، وفي غرفة المحركات ضاعف الوقَّادون من نشاطهم. ووقف الرجال على أهبة الاستعداد في ممرات التشغيل ومراكز زوارق النجاة. وكانت الانفعالات العنيفة تستبد بالجميع، حتى الباخرة كارباتيا نفسها كانت تنتفض. ومن ثم قال أحد البحارة القدامى فيما بعد: «لقد كانت الباخرة العجوز مهتاجة مثلنا».

إلا أن قلب الربَّان روسترون كان ينتفض بالإشفاق والجزع. فحتى الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة والثلاثين كانوا منطلقين في اتجاه التيتانيك دون أن يروا لها أثرًا. ومن ثم قرر أن ذلك الوميض الأخضر لا ينطلق من مكان مرتفع جدًّا كما خطر له أولًا. وإنما هو صفاء الليل الذي جعله يراه هكذا من كل هذه المسافة البعيدة. وفي الساعة الثالثة والدقيقة الخمسين أمر بتخفيف سرعة المحركات؛ لأن الباخرة وصلت إلى غايتها تقريبًا. وفي الساعة الرابعة، توقفت الباخرة تمامًا بعد أن وصلت إلى منطقة الحادث.

وفي تلك اللحظة سطع وميض أخضر إلى الأمام مباشرة من فوق سطح الماء. وقد كشف الوميض الساطع عن زورق نجاة ربما كان

يبعد مسافة ثلاثمائة ياردة. وأعاد روسترون إدارة المحركات، وبدأ في توجيه الباخرة كارباتيا نحو الجهة اليمنى؛ لكي يلتقط ركاب الزورق على الجانب الأيسر الذي كان مع اتجاه الريح. وبعد لحظة لمح أمامه مباشرة جبل ثلج عائمًا، فاضطر للانحراف بالباخرة حتى يتفاداه.

وأصبح زورق النجاة الآن في مواجهة الريح. وبينما كان الربَّان يتجه بالباخرة نحوه، هبَّت الرياح فجأة وثارت الأمواج، وسمع في الظلام صوتًا يصيح به قائلًا:

– لدينا فقط بحار واحد، ولا نستطيع معالجة أمر الزورق كما ينبغي.

فصاح روسترون مجيبًا وهو يدفع بالباخرة كارباتيا في رفق إلى مكان أقرب:

– حسنًا.

وأخيرًا سمع الصوت يقول:

– أوقفوا المحركات.

وكان صاحب الصوت هو الضابط الرابع بوكسهول في الزورق رقم ٢، وبجواره كانت تجلس المسز والتر دوجلاس –من مينا بوليس– وهي على وشك الانهيار العصبي إذا كانت تصيح بعصبية:

– لقد غرقت التيتانيك بكل من عليها.

وطلب منها بوكسهول أن «تخرس»، وأفادت حدته في إسكاتها، ومن ثم أسرعت فتمالكت نفسها، ثم راحت تعترف دائمًا فيما بعد أن التأنيب كان له ما يبرره.

ولكن لم يكن فوق الباخرة كارباتيا من يسمعها؛ لأن الإبصار كانت مشدودة إلى الزورق المتأرجح في طرقه نحو «الصقالة». ولاحظت المسز أوجدن شعار «النجم الأبيض» مرسومًا على جانب الزورق، وأطواق النجاة التي جعلت الجميع يبدون كأنهم مرتدون ملابس بيضاء، وتعجبت المسز كرين لمنظر الوجوه الشاحبة المرهقة المتطلعة إلى أسطح الباخرة. وكان الصوت الوحيد المسموع، صوت بكاء طفل في مكان ما بالزورق.

وأُسقطت الحبال، وشد الزورق إلى جانب الباخرة، وبعد لحظات من التردد بدأت المس إليزابث آللين في الساعة الرابعة والدقيقة العاشرة الصعود ببطء على سلم الحبال المتأرجح، حتى سقطت بين ذراعي الصراف براون. ولما سألها: أين التيتانيك؟ قالت: إنها غرقت.

وعرف هذه الحقيقة روسترون الواقف في مركز المراقبة دون أن يسأل. ومع ذلك شعر أن عليه المضي في اتخاذ الإجراءات التقليدية لعملية الإنقاذ، فأرسل يستدعي الضابط الرابع بوكسهول، فلما وقف أمامه يرتعد، قال له:

– هل غرقت التيتانيك؟

فأجاب بوكسهول بصوت منفطر:

– أجل.. غرقت في نحو الساعة الثانية والنصف بعد منتصف الليل.

وكان ضوء الفجر قد زاد عندئذ، فأمكن للواقفين على أسطح الباخرة أن يروا جميع الزوارق في مختلف الاتجاهات. وكانت متناثرة

في رقعة مساحتها نحو أربعة أميال، وكان من العسير تبينها في ضوء الفجر الشاحب من بين عشرات كتل الجليد الطافية التي كانت تغطي وجه البحر. وكان مع هذه الكتل الصغيرة ثلاث أو أربع كتل هائلة ترتفع في الجو من مائة وخمسين إلى مائتي قدم. وإلى الشمال الغربي، على بعد خمسة أميال، كان يمتد حقل مسطح متصل من الجليد إلى غاية البصر، وكان هذا الطوف الثلجي مرصعًا هنا وهناك بجبال ثلجية كانت ترتفع عالية في الجو.

وكان المنظر من العجب والغرابة بحيث عجز عن فهمه أولئك الذين أمضوا الليل نائمين غير عالمين بما كان يجري. فالمسز والاس براوفورد –من سان فرانسيسكو– تطلعت من كوة مقصورتها ثم أخذت تطوف بعينيها في شك، وهي ترى على بعد نصف ميل ما يشبه قمة هائلة عالية كأنها صخرة فوق اليابسة. ولم تكن بيضاء، ومن ثم تساءلت «كيف يمكن بحق الله أن نكون قريبين من صخرة ضخمة بعد أن ابتعدنا عن نيويورك مسيرة أربعة أيام في اتجاه جنوبي، وأصبحنا في وسط المحيط؟!».

وعلى هذا النحو نفسه كانت حيرة المس سيو ايفارول –من مدينة سانت لويس– فعندما رأت أول مرة زوارق النجاة تخوض المياه في تباشير الفجر، بدا المنظر أمامها كأنه مقاصير ركاب منطاد ضخم، والكتلة الضخمة وراءها كأنها هيكله، ومن ثم كانت واثقة أنهم راحوا يلتقطون الملاحين الساقطين من المنطاد الهاوي.

ولجأ راكب آخر حائر إلى إحدى المضيفات كانت تمضي في الدهليز، ولكنها أوقفته قبل أن ينطق بكلمة، وأشارت إلى عدد من النساء كن يتعثرن في طريقهن إلى قاعة الطعام الرئيسة، ثم قالت باكية:

- إنهن من الباخرة تيتانيك التي أصبحت الآن في قاع المحيط.

وعلى مسافة عشرة أميال، بدأت الحياة، مع تباشير الفجر، تنتفض مرة، تنتفض مرة أخرى على الباخرة كاليفورنيان. ففي الساعة الرابعة صعد كبير الضباط جورج فردريك ستيوارت إلى مركز المراقبة ليحل محل الضابط الثاني ستون.

وأخبره ستون بما حدث أثناء نوبته -أخبره بأمر الباخرة العجيبة، والصواريخ، واختفائها الأعجب- ثم أضاف قائلًا إنه رأى في الساعة الثالثة والدقيقة الأربعين صاروخًا آخر، ينطلق هذه المرة من الناحية الجنوبية مباشرة، وكان الواضح أنه لم ينطلق من نفس الباخرة التي أطلقت الثمانية الأولى. وهبط ستون، وهو يكاد يسقط من فرط الإرهاق من السلم، ومضى إلى مقصورته. ومنذ ذلك الحين أصبح الأمر مثارًا لوجع دماغ كبير الضباط ستيوارت.

وأيقظ ستيوارت الكابتن لورد في الساعة الرابعة والنصف، وشرع يقص عليه حديث الضابط ستون. ولكن الربَّان قاطعه قائلًا:

- أجل، إنني أعرف. لقد أخبرني بذلك.

ثم ارتدى بعض الملابس، وصعد إلى مركز المراقبة، وشرع يتبادل الرأي في خير الوسائل للمروق من حقل الجليد والمضي قدمًا إلى

بوسطن. وقاطعه ستيوارت ليسأله هل يتصل بباخرة كانت تبدو عندئذ في مرمى البصر نحو الجنوب مباشرة، فقرر الكابتن لورد قائلًا:

– لا. لا أرى هذا. إنها لا ترسل أي إشارات الآن.

وأهمل ستيوارت الأمر، ولم يقل إن الضابط ستون قال؛ وهو في طريق الانصراف: إنه واثق أن هذه الباخرة التي في الجنوب لا يمكن أن تكون نفس الباخرة التي أطلقت الصواريخ الثمانية الأولى.

ولكن لا بد أنه فكر كثيرًا في هذا الموضوع؛ لأنه أيقظ في الساعة الخامسة والدقيقة الأربعين عامل اللاسلكي إيفان الذي يتذكر قول الضابط له:

– كانت ثمة باخرة تطلق الصواريخ، فهل يمكن أن تعرف جلية الأمر؟

وفي ضوء الصبح الشاحب، بحث إيفانز عن سماعتي الجهاز، ووضعهما على أذنيه، وبدأ الاتصال.

وبعد دقيقتين، هرع ستيوارت إلى مركز المراقبة صائحًا:

– هناك باخرة غرقت.

ثم عاد يجري إلى مكتب اللاسلكي، ثم إلى مركز المراقبة مرة أخرى، ثم إلى الكابتن لورد هاتفًا بذلك النبأ المزعج:

– لقد اصطدمت التيتانيك بجبل ثلج عائم، وغرقت.

وعندئذ فعل الكابتن لورد ما يفعله أي ربَّان قدير، لقد أمر فورًا بإدارة المحركات، والانطلاق إلى آخر مكان كانت فيه التيتانيك.

الفصل العاشر

«ابتعدي عنا –لقد رأينا أزواجنا يغرقون»

بينما كان الزورق رقم ٣ يشق طريقه بين كتل الجليد الطافية نحو الباخرة كارباتيا، قال الطفل دوجلاس سبيدون لأمه المسز فريدريك سبيدون:

– أوه، انظري يا أماه إلى القطب الشمالي دون أن يكون عليه سانتا كلوز؟

والواقع أن المنظر كان يبدو فعلًا كصورة في كتاب الأطفال عن المنطقة الجليدية. فالشمس كانت تطل صاعدة من جوف الليل في الأفق، والجليد يلمع في خيوط أشعتها الأولى، وجبال الثلج العائمة تبدو أيضًا بيضاء ناصعة، أو قرمزية، أو بنفسجية، أو زرقاء جدًّا. وذلك حسب تلاعب الضوء والظل عليها، وكان البحر عندئذ أزرق صافيًا، وقطع الجليد –وكان بعضها لا يزيد أحيانًا عن حجم قبضة الرجل– تتراقص طافية على المياه المتقطعة، وفي أعلى، كانت السماء عند الشرق صافية الأديم، ذهبية الضوء، تنبئ بيوم صحو جميل. أما عند

الغرب، فكانت ظلال الليل لا تزال تتسكع، مما جعل لورنس بيزلي يتذكر أنه رأى النجم القطبي مستمرًّا في الظهور لمدة طويلة بعد اختفاء بقية الأنجم. وهناك عند الأفق البعيد، كان لا يزال الهلال الشاحب النحيل باديًا.

وصاح الوقَّاد باريت في تفاؤل قائلًا للبحارة المجدفين في الزورق رقم ١٣:

– إنه هلال جديد.. قلبوا نقودكم الفضية أيها الرفاق –هذا إذا كان لديكم شيء منها!

وارتفعت من جميع الزوارق صيحات الابتهاج والتحدي عندما أخذ كل زورق يحاول أن يسبق الزوارق الأخرى في الوصول إلى الباخرة كارباتيا. وراح بعضهم ينشدون: «هيا إلى الشاطئ يا رفاق»، وأخذ غيرهم ينظمون عملية الهتاف، ولكن لزم البعض الآخر الصمت مذهولين بما حدث، أو فرحين جدًّا بالنجاة.

وقال الرقيب هوج –وهو يحاول تشجيع السيدات المحملقات أمامهن بنظرات جوفاء في الزورق رقم ٧:

– كل شيء على ما يرام الآن يا سيداتي. لا تحزنّ. فقد نجونا.

ولكنهن استمررن في صمتهن.

ولم يكن ثمة هتافات أيضًا على الزورق المقلوب «ب»؛ ذلك أن لايتوللر وجراسي، وبرايد، وثاير، وغيرهم كانوا مشغولين فقط بمحاولة البقاء على سطح الماء. وكانت الأمواج، وقد أيقظتها عندئذ

نسائم الصباح، أخذت تدغدغ جوانب الزورق وتؤرجحه إلى الأمام وإلى الخلف، ومع كل حركة من هذا النوع، كان بعض الهواء ينفذ منه، فيهبط الزورق إلى جوف الماء قليلًا، وكان الرجال لا يزالون يأتمرون بتوجيهات لايتوللر لموازنة الزورق، ولكنهم بعد ساعة من هذا الوضع شعروا بأشد الإرهاق.

وكان منظر وصول الباخرة كارباتيا مع الفجر –وهو المنظر الذي أثار فرحة الجميع– لم يهمَّ هؤلاء في قليل أو كثير؛ ذلك لأنها توقفت على مسافة أربعة أميال منهم، وقد تساءلوا عن المدة التي يمكن أن يبقوا فيها عائمين حتى يراهم ركابها، وفجأة بدا أمل جديد يخامرهم عندما انتشر ضوء الصباح على البحر. فقد رأوا على مسافة ثمانمائة ياردة الزوارق ٤ و ١٠ و ١٢ و د مشدودًا بعضها إلى بعض بالحبال، كما أمر بذلك الضابط لاو.

وراح الراكبون في الزورق المقلوب يصيحون، ولكن المسافة كانت أبعد من مرمى الصوت. وهنا تناول لايتوللر من جيبه صفارة الضباط، وأرسل بها صفيرًا مدويًا، ولم يصل هذا الصفير فحسب إلى أسماع بحارة الزوارق الأخرى، وإنما جعلهم يدركون أن أحد الضباط يناديهم.

وسرعان ما أخذ البحار فريدريك كلينسن بالزورق رقم ١٢ يتطلع حوله.. حيث ظن أنه رأى نحو عشرين رجلًا واقفين على مسافة بعيدة فوق ما يشبه المدخنة. وفي الزورق رقم ٤ راح المنسق صمويل همنج يتطلع أيضًا. وقد بدا له في ضوء الصباح الباكر أن بعض الرجال يقفون

فوق شريحة من الثلج، على أن هذا لم يكن بالأمر المهم، وإنما المهم أن الزورقين انطلقا فورًا في ذلك الاتجاه. وكان السير بطيئًا، حتى إذا أصبحنا على مرمى السمع، هتف لايتوللر يستحثهم: «أسرعوا إلينا، وأنقذونا».

ورد بعضهم قائلًا:

– نعم، نعم، يا سيدي.

وأخيرًا وصل الزورقان، وكان وصولهما في اللحظة الأخيرة؛ لأن الزورق «ب» كان على وشك الغرق، بحيث إن الموجة الخفيفة التي أثارها الزورق رقم ٤ كادت تقذف بالجميع إلى الماء. وقد احتاج الأمر إلى كل براعة رئيس النوتية باركيز ليصل بالزورق رقم ١٢ في أمان إلى جانب الزورق المقلوب. وهنا حذر لايتوللر رفاقه بعدم التزاحم والتسابق، ومع ذلك فقد مال الزورق بعنف شديد عندما مال الجميع للوثوب.

واستطاعوا جميعًا، الواحد بعد الآخر، أن يثبوا إلى الزورقين بأمان. وقد بلغ من انشغال ذهن جاك ثاير للوصول بسلام إلى الزورق رقم ١٢ أنه لم يلحظْ وجود والدته في الزورق رقم ٤. ولم تستطع المسز ثاير من فرط البؤس والشعور بالبرد الشديد أن ترى ابنها. ولما جاء دور الكولونيل جراسي، زحف على يديه أولًا نحو الزورق رقم ١٢ مفضلًا آلام أصابعه على المخاطرة بالقفز. أما الخبَّاز جوجين الذي كان مستمرًّا في العوم بجوار الزورق المقلوب، فقد ترك يد مايتارد وسبح نحو الزورق رقم ٤، حيث رفع إليه وهو لا يزال مخمورًا بالويسكي.

وكان لايتوللر آخر من ترك الزورق المقلوب. فبعد أن انتقل عنه الجميع، حُمل هو جسدًا لا حياة فيه إلى الزورق رقم ١٢، ثم وثب بنفسه إليه، وتولى الإشراف عليه، وكانت الساعة قد بلغت السادسة والنصف صباحًا عندما وثب من القاع المقلوب، وراح يقود الزورق رقم ١٢ إلى الباخرة كارباتيا.

وفي الوقت نفسه كان الضابط الخامس لاو قد نفض يديه من البحث عن السابحين بين الحطام الطافي، فقد ظل ساعة من البحث الشاق حتى التقط أربعة سابحين فقط، وأخيرًا علم أنه وصل متأخرًا جدًّا بحيث لم يعد ثمة أمل في العثور على آخرين. ذلك أنه لم يكن في مقدور أي رجل أن يبقى أكثر من هذا في ماء بارد كالثلج. أما وقد بدا الفجر ينبلج والنجدة وشيكة الوصول، فقد قرر لاو العودة إلى الزوارق التي تركها مربوطًا بعضها ببعض ليقودها إلى الباخرة كارباتيا.

وأمر البحار إيفانز حين ازدادت سرعة الهواء:

- ارفع الشراع.

وكان البحارة في الزوارق الأخرى قد اعتبروا الأشرعة من العوائق التي لا داعي لها، وأن استخدام الشراع سوف يعوق عملية الإنقاذ، ومن ثم ألقى بعضهم بها قبل مغادرة التيتانيك، وتركها البعض في زوارق أخرى، وكان الواثبون إليها يسخطون عندما يتعثرون بها في الظلام، كما أنه لم يكن بينهم من يعرف كيف ينصبها.

أما مع الضابط لاو، فكان الأمر مختلفًا. وكان هناك كما شرح الأمر فيما بعد، قليل من البحارة الذين يحسنون تسيير زورق شراعي، وقليل

من الذين يحسنون تسيير زورق شراعي، يصلحون أن يكونوا بحارة، أما هو؛ فكان يجمع الميزتين. وقد أفادته الآن السنوات التي قضاها في سفن شراعية تجوب شواطئ أفريقيا الغربية؛ ذلك لأنه راح يقود الزورق بالشراع في مهارة، في حين كان الرذاذ على الجانبين يتألق في شمس البكور، وحيزوم الزورق يشق الماء بسرعة أربع عقد في الساعة.

ولكنه حين عاد إلى أسطوله الصغير، وجده قد تناثر عقده، فالزورقان ٤ و ٢ كانا يلتقطان السباحين من الزورق «ب»، والزورقان ١٠ و«د» كانا يتجهان نحو الباخرة كارباتيا. وكان يبدو على الزورق «د» أنه في حالة سيئة؛ إذ كانت المياه تكاد تصل إلى حافته، والمجاديف العاملة عليه قليلة. ومن ثم قال لاو لنفسه:

– حسنًا. لسوف أسرع إلى هذا الزورق وأتولى أمره.

ولما اقترب منه صاح هيو وولتر:

– إن لدينا كل ما نحتاج إليه.

ولكن لاو قذف إليه بحبل، وربط الزورق «د» إلى زورقه.

ثم إذا هو يلمح على بعد ميل ونصف ميل الزورق القماشي «أ» في أسوأ حال، ولا يكاد يتقدم خطوة عن موضعه. وكان ركاب الزورق قد عجزوا تمامًا عن إقامة جوانبه، وهكذا ظلت هذه الجوانب في مستوى الماء. وكان معظم الركَّاب الثلاثين الذين سبحوا إليه، قد سقطوا منه بعد أن خدر البرد أطرافهم. ومن ثم لم يبقَ عليه غير اثني عشر رجلًا وراكبة الدرجة الثالثة المسز روزا آبوت، كلهم واقفون، والمياه شبه المتجمدة تكاد تصل إلى ركبهم.

ووصل لاو إليهم في آخر لحظة، وحملهم جميعًا في الزورق رقم ١٤، ثم عاد وأطلق شراعه نحو الباخرة كارباتيا، وهو لا يزال يجر وراءه الزورق «د»، تاركًا في البحر الزورق «أ» مهجورًا أو خاليًا إلا من جثث ثلاثة رجال «وأطواق النجاة تغطى وجوههم»، وإلا من معطف فراء المستر نوريس ويليامز، وخاتم لراكب الدرجة الثالثة إدوارد لندل من مدينة هلسنبرج السويدية، وهو الراكب الذي لم يتذكر أحد أنه رآه في تلك الليلة.

وأخذت الزوارق، الواحد بعد الآخر، تزحف نحو الباخرة كارباتيا. وكانت الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والأربعين عندما شدت إليها الزورق رقم ١٣، وصعد لورنس بيزلي سلم الحبال إلى ممر السطح «س»، وكان يشعر بفيض يغمره من عرفان الجميل والمتعة والابتهاج وهو يضع قدميه على الأرضية الصلبة للسطح مرة أخرى، ووراءه مباشرة صعد الدكتور واشنطن دودج الذي حرص على إحضار طوق نجاته معه كتذكار.

ووصلت المسز دودج وابنها البالغ من العمر خمس سنوات، واشنطن الصغير، في الساعة الخامسة والربع مع الزورق رقم ٧. ورُفع الصبي الصغير في غرارة بريد، ووُضع على السطح وسرعان ما هرع إليه نادل يحمل القهوة، ولكن الصغير دودج أعلن أنه يفضل أن يأتي إليه بشراب الكاكاو. وانطلق النادل مسرعًا، وعاد بما أراد. والواقع أن عابرات المحيط الإنجليزية لم تكن مشهورة بحسن الخدمة فيها شهرة لا أساس لها.

ثم وصل الزورق رقم ٣ في الساعة السادسة، فصعد منه المستر والمسز سبيدون بملابسهما الناصعة، ومن ورائهما مباشرة صعد هنرى سليبر هاربر، والترجمان حامد حسن، والكلب البيكينيز سن -يات- سن. وسرعان ما أدرك هاربر وجود المستر أوجدن على السطح، فحياه بهذه الطريقة التقليدية المألوفة:

- لويس؟ كيف أمكنك أن تبدو هكذا شابًّا دائمًا!

ولم تحاول اليزابيث شوتز، التي أقبلت في نفس الزورق، الصعود على سلم الحبال، فرفعت إلى السطح على مقعد مربوط بالحبال. وقد سمعت صوت رجل فوق الباخرة يقول عندما شعرت بجذبة الحبال القوية عند رفعها:

- رفقًا يا رجال، فإنها من ذوات الوزن الخفيف.

ووصل بروس اسماي، على السطح في الساعة السادسة والنصف وهم يغمغم قائلًا: «إنني اسماي.. إنني اسماي». ثم وقف يرتعد بجوار السقالة ومستندًا بظهره إلى أحد جدران الباخرة، وعندئذ اقترب منه الدكتور ماجي برفق، وقال له:

- ألا تأتي إلى قاعة الاستقبال لتتناول بعض الحساء أو شيئًا من الشراب؟

- لا. إنني في الواقع لا أريد شيئًا.

- اذهب وتناول شيئًا.

- إذا تركتني وشأني هنا، سأكون أسعد حالًا.

غمغم اسماي بهذا، ثم إذا هو يغير رأيه، ويردف قائلًا:

- أتمنى لو أمكنك أن تمضي بي إلى إحدى الغرف، حيث أشعر بالسكينة والهدوء.

فقال الطبيب في إلحاح رقيق:

- أرجوك.. اذهب إلى قاعة الاستقبال، وتناول شيئًا ساخنًا.

- إنني أفضل ألا أفعل.

ويئس الدكتور ماجي، ولم يسعه إلا أن يقود برفق اسماي إلى مقصورته الخاصة. ولم يحاول اسماي قط أن يغادر المقصورة طوال الرحلة، كما أنه لم يأكل شيئًا غير السوائل، ولم يستقبل زائرًا قط «إلا جاك ثاير مرة واحدة». وقد ظل حتى نهاية الرحلة وهو تحت تأثير المسكنات. وكانت تلك بداية رغبة ذاتية لاعتزال الحياة العملية. وقد استقال من منصبه بشركة «هوايت ستار» في خلال عام، واشترى مزرعة كبيرة في غربي إيرلندا، وظل يحيا في عزلة حتى مات في عام ١٩٣٧.

ووصل أولوس إيلزيس في نحو الساعة السابعة إلى سطح الباخرة، وسرعان ما ألقيت بطانية دافئة على كتفيه المبتلتين المرتعدتين، ثم انطلق إلى قاعة الطعام حيث البراندي والقهوة. ورُفعت المسز شارلوت كولير وغيرها إلى السطح من الزورق رقم ١٤، بينما تخلف الضابط الخامس لاو ريثما يطوي الشراع ويعيد الصاري إلى مكانه؛ لأنه كان يحب أن يرى كل زورق على أحسن حال.

وهكذا وصلوا جميعًا، حمولة زورق بعد حمولة آخر، وكلما وصل واحد منها إلى جانب الباخرة، حملق الناجون فوق السطح ليبحثوا عن وجوه مألوفة لديهم. وكان بيلي كارتر واقفًا بجوار آل أوجدن باحثًا في اهتياج شديد عن زوجته وأبنائه. فلما أقبلت بقية الأسرة أخيرًا مع الزورق رقم ٤، انحنى المستر كارتر على السياج بقدر ما يستطيع وهتف قائلًا:

- أين ابني، أين ابني؟

ورفع صبي صغير في الزورق عن رأسه قبعة نسائية، وقال لأبيه:

- هأ نذا يا أبي.

وتقول الشائعات، أو الأساطير، إن جون جاكوب آستور نفسه هو الذي وضع القبعة النسائية على رأس الصبي البالغ عشر سنوات قائلًا للمعترضين:

- إنه الآن فتاة، ويستطيع أن يذهب في زورق.

وكان واشنطن دودج كذلك من الأشخاص الذين مروا بفترة عصبية مؤلمة في انتظار عائلاتهم. وذلك بسبب شقاوة ومكر الصغير دودج. إن دودج الكبير لم يستطع أن يرى زوجته وابنه وهما يصعدان إلى الباخرة، وكذلك لم تر المسز دودج زوجها على السطح. ولكن الطفل الماكر رآه، وأخفى هذه الحقيقة لنفسه ليجعلها مفاجأة في الوقت المناسب، وهكذا لم يخبر أمه، كما أخفى نفسه عن أبيه، وأخيرًا أفسد المفاجأة ذلك النادل المخلص لأسرة دودج دائمًا، وهو نادل قاعة الطعام الرئيس،

راي، إذ أسرع وجميع شمل الأسرة.

وازداد الازدحام على سطح الباخرة كارباتيا عندما تدفق ركابها من مقاصيرهم إلى السطح. وكان بعضهم قد عرف الأمر بطريقة عجيبة. فالمستر والمسز تشالز مارشال استيقظا على طرق باب مقصورتهما الفاخرة. فقال المستر مارشال:

- ما هذا؟

فسمع الرد التالي:

- إن ابنة أخيك تريد أن تراك يا سيدي.

ولكن المستر مارشال لم يحفل بالأمر كثيرًا. فقد كانت بنات أخيه الثلاث مبحرات في أول رحلة للباخرة التيتانيك. بل لقد أرسلن إليه في اليوم السابق برقية لاسلكية.. فكيف يمكن إذَنْ أن تكون واحدة منهن على الباخرة كارباتيا، وذكر النادل فيما بعد أن الزوجين -المستر والمسز مارشال- اجتمع شملهما مع المسز أ. دابلتون «وقد وصلت ابنتا الأخ الأخريان فيما بعد»، وأن ابنتهما إيفيلين اندفعت إلى السطح لتتفرج على ما يجري فيه.

وكان منظرًا عجيبًا: السهل المترامي من الثلوج المتراكمة الممتدة شمالًا وغربًا وجبال الجليد الضخمة، والكتل الجليدية الصغيرة الطافية أمامها كأنها جنود استكشاف أمام السهل الجليدي -هذا كله جعل للبحر منظرًا مثيرًا، أما الزوارق التي كانت تقترب نحو الباخرة من جميع الجهات فقد بدت شيئًا غير طبيعي في هذا المكان من وسط المحيط.

وكذلك كان منظر الركَّاب الذين راحوا يكافحون للصعود إلى الباخرة لا يقل غرابة وشذوذًا، وقد لاحظت المس سيو إيفارول سيدة لا ترتدي غير منشفة استحمام تركية حول خصرها، وعلى كتفيها وضعت فراء سهرة من النوع الفاخر، وكانت الملابس بوجه عام مختلفة الأشكال والألوان، ملابس سهرة أنيقة، وقمصان نوم مطرزة وثياب يابانية وطنية «كيمونو».. ومعاطف فراء.. ومطارف من الصوف العادي.. ومنامات.. وأحذية من المطاط.. وشباشب بيضاء مكسوة بالحرير.. ولكن التقاليد الشائعة في ذلك العصر كانت واضحة.. ذلك أن النساء كن حريصات على ارتداء القبعات، والرجال على ذلك النوع من القلنسوات الصوفية ذات الحافة المفردة.

وأعجب من هذا كله كان ذلك الصمت المخيم على كل شيء. إذ كان من العسير أن يسمع الإنسان كلمة ينطق بها أحد. وقد لاحظ الجميع هذه الظاهرة، وكان لكل واحد تعليله الخاص لها. فقد كان القس المحترم ب. م. أ هوكز يرى أن الفزع الرهيب عقد ألسنة الجميع. وفي رأي الكابتن روسترون أن الجميع كانوا جد مشغولين بما لديهم عن الحديث. ورأى لورانس بيزلي أنهم لم يكونوا مذهولين فزعًا، ولا مشغولين، وإنما كانوا ببساطة يواجهون شيئًا أعظم من أن يفهموه.

وبين الحين والآخر كان يحدث بعض الاضطراب الخفيف، فقد لاحظت المس بترسون طفلة صغيرة تُدعى إيميلي تجلس في ممر النزعة، وتبكي قائلة:

– أوه، ماما.. ماما.. إنني مريضة.. أوه، ماما.. ماما..

وبينما كان الزورق رقم ٣ يفرغ شحنته من الركَّاب، انتصبت سيدة مؤتزرة فقط بقميص نوم وكيمونو، جالسة فجأة في قاع الزورق، ثم صاحت مشيرة إلى سيدة كانت ترفع إلى الباخرة على مقعد رئيس النوتية:

– انظروا إلى هذه المرأة الفظيعة.. إنها فظيعة.. لقد داست على بطني.. هذه المخلوقة الفظيعة.

وفي قاعة الطعام بالدرجة الثالثة انهارت أعصاب سيدة إيطالية تمامًا –إذ راحت تبكي وتصرخ وتدق المائدة بقبضتيها، وظلت ممعنة في البكاء والصراخ هاتفة: «ابني... ابني». واستطاع «نادل» إيطالي أن يظفر منها بالمعلومات، فعلم أن لها طفلين مفقودين. ورغم أنهم عثروا بسرعة على أحدهما، إلا أنها رفعت في وجوههم إصبعين، واستأنفت الصراخ. وأخيرًا عثر على الآخر في المطبخ حيث وضع على منضدة الكي الدافئة لإنقاذه من البرد الشديد.

وفي الساعة الثالثة والربع، كانت الزوارق كلها قد وصلت فيما عدا الزورق رقم ١٢، وكان على مسافة بضع مئات من الياردات لا يكاد يتحرك من مكانه. وازدادت سرعة الهواء، واشتد هياج البحر. وكانت جوانبه المزدحمة تكاد تبدو في مستوى سطح الماء. ذلك أن الزورق كان مزدحمًا بخمسة وسبعين راكبًا. وراح المجتمعون فوق ظهر الباخرة كارباتيا يرقبون بأنفاس مكتومة تسيير الزورق بقيادة لايتوللر.

وكان الركَّاب داخل الزورق مكومين بعضهم فوق بعض، محاولين أن يحتفظوا بجفاف ملابسهم، مبتهلين إلى الله أن يعينهم على اجتياز

هذه المحنة. والإنسان في مثل هذه الظروف يلاحظ عادةً الأشياء البسيطة. فبينما كان الكولونيل جراسي يحاول عبثًا أن يبعث الحياة في جسد هامد بجواره، راح في الوقت نفسه يتساءل: لماذا كان ذلك الشخص يرتدي جوارب صوفية رمادية طويلة؟!

وبلغت الساعة الثامنة والدقيقة العشرين والزورق لا يزال على بعد مائتي ياردة فقط. وأدار روسترون -محاولًا تقديم المساعدة- مقدمة الباخرة نحو الزورق، فاختصر المسافة إلى مائة ياردة، وفيما كان لايتوللر يحاول أن يجتاز بالزورق مقدمة السفينة ليصل إلى جانبها البعيد عن الرياح، إذ بهبة ريح تضرب الموج، وإذا موجة ثم أخرى تكتسحان سطح الزورق، ولكنه أفلت من الثالثة ووصل بأمان إلى مرفأ الباخرة.

وفي الساعة الثامنة والنصف، شد الزورق رقم ١٢، وكان آخر زورق في ترتيب الوصول إلى الباخرة، وشعر الكولونيل جراسي بالرغبة في الركوع على أرضية سطح الباخرة وتقبيلها، وهو يخطو إليها من السقالة، وأحس هارولد برايد بذراعين قويتين تمتدان إليه وتمسكان به قبل أن يُغمى عليه. ورأى جاك ثاير أمه في انتظاره، فاندفع إلى ذراعيها، بينما قالت هي متلعثمة:

- أين والداك؟

فأجاب بهدوء:

- لا أدري يا أماه.

وفي الوقت نفسه كان روسترون يواجه مشكلة إيواء سبعمائة

راكب جديد وخمسة. وكان ميناء هاليفاكس أقرب الموانئ إليه. ولكن الثلوج كانت تكثر في هذا الطريق، وقد رأى أن ركاب التيتانيك شاهدوا وعانوا منها ما فيه الكفاية. وكانت جزائر الآزور، في رأيه، هي خير مكان يصل إليه. ولكنه لم يكن لديه من البطاطين والملابس والمؤن ما يكفي للوصول إلى هذا المكان البعيد. وكانت نيويورك أفضل من هذا أو ذاك، ولكن الوصول إليها سيكلف شركة كوناردر نفقات باهظة. وأخيرًا هبط إلى مقصورة الدكتور ماجي الذي كان مشغولًا بفحص بروس اسماي. ولكن اسماي كان في حالة انهيار، ومن ثم ترك الأمر كله للربَّان روسترون، الذي قرر الإبحار إلى نيويورك.

وهنا اتصلت بهم الباخرة أولمبيك. فلماذا لا يحول إليها الناجين من التيتانيك؟ ولكن روسترون رأى أن هذه الفكرة مزعجة منفرة، رأى أنه لا يستطيع أن يحتمل رؤية هؤلاء الناس ينقلون من مركب إلى آخر مرة أخرى في عرض البحر. فالباخرة أولمبيك كانت أخت الباخرة تيتانيك، ولا شك أن منظرها سيبدو في نظر الناجين كشبح رهيب. وقرر أن يتخذ الجانب الأسلم، فهبط مرة أخرى إلى اسماي في مقصورة الدكتور ماجي، وعرض عليه الفكرة، فما كان من اسماي إلا أن ارتجف لها.

وهكذا استقر الأمر على نيويورك، وقد رأى أنه كلما أسرع بالإبحار إليها، كان ذلك أفضل، وكانت الباخرة كاليفورنيان قد اقتربت من مسرح الحادث، حيث راح ربانها الكابتن لورد ينظر إلى الباخرة كارباتيا بمنظاره المقرب ويرى علمها الخاص منكسًا إلى نصف ساريتها.

وطلب روسترون منه -لاسلكيًّا- أن يواصل البحث عما قد يكون في البحر من ركاب التيتانيك، ثم رفع إلى السطح من زوارق النجاة التابعة للتيتانيك أكبر عدد ممكن، فوضع في السطح الأمامي ستة، ووضع على مطارح كارباتيا سبعة، وترك الباقي في البحر.

وقبل أن يبدأ في رحلة العودة، لم يستطع أن يقاوم الرغبة في إلقاء نظرة أخيرة حوله. وكان رجلًا دقيقًا منظمًا. ومن ثم لم يشأ أن يجعل أيسر فرصة تفلت منه. حقًّا لقد ترك الباخرة كاليفورنيان لتواصل البحث، ولكن إذا كان هناك أي أمل في إنقاذ أي راكب آخر، فليكن هذا على يد الباخرة كارباتيا.

وفيما هو يبحر بالباخرة، خطر له أن من المناسب إقامة صلاة قصيرة، فهبط إلى اسماي وسأله عما إذا كان لديه أي اعتراض؟ فرد اسماي عليه كالمعتاد أنه موافق سلفًا على كل ما يتراءى للربَّان أن يفعله.

وهكذا أرسل روسترون للأب المحترم أندرسون -أحد أتباع المذهب الأسقفي بالباخرة -واجتمع ركاب التيتانيك وكارباتيا معًا في قاعة الجلوس الكبرى، وهناك أدوا صلاة الشكر على النجاة، وترحموا على المفقودين.

وفي أثناء قيامهم بالصلاة، كانت الباخرة كارباتيا تبحر ببطء فوق قبر الباخرة تيتانيك، وكان ثمة آثار قليلة متخلفة عن الباخرة الغارقة؛ رقع من الفلين الأحمر المصفر، وبعض المقاعد، وعدد كبير من الدعائم البيضاء، ووسائد وسجاجيد.. وأطواق نجاة.. وزوارق مهجورة، وجثة واحدة.

وفي الساعة الثامنة والدقيقة الخمسين اقتنع الربَّان روسترون بأنه لا يمكن أن يكون ثمة إنسان قد تبقى على قيد الحياة في الماء. ومن ثم صلصل جرس «أقسى سرعة»، وحوَّل الباخرة في اتجاه نيويورك.

وكانت المدينة عندئذ في حالة اهتياج شديد، فعندما وصلت الأنباء الأولى في الساعة الواحدة والدقيقة العشرين بعد منتصف الليل، لم يعرف أحد ماذا يقول أو يفعل؛ ذلك أن البرقية كانت موجزة وغامضة، مجرد إشارة من راس ريس تقول إن الباخرة تيتانيك أرسلت في الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة والعشرين -بالتوقيت المحلي- إشارة استغاثة؛ لأنها اصطدمت بجبل ثلج عائم وتريد نجدة عاجلة.

ثم وردت إشارة أخرى أن الباخرة تغرق من المقدمة، وأن النساء والأطفال يوضعون في زوارق النجاة، ثم صمت تام.

ووصلت هذه الأنباء في آخر لحظة؛ لكي تظهر في طبعات صحف الصباح، ومن ثم لم يكن هناك أي وقت يكفي للتأكد مما حدث، وإنما كان الوقت كافيًا للتفكير في كيفية نشر النبأ، لقد بدت القصة عجيبة مثيرة، ولكنها واقعية، ومن ثم راح المحررون في صحيفة الهيرالد يضعون العناوين للصفحة الأولى:

«الباخرة الجديدة تيتانيك تصطدم بجبل ثلج عائم وتستغيث».

«البواخر تسرع لنجدتها».

ولكن صحيفة «التايمز» فقط هي التي قررت المبادرة إلى السبق. فقد أكد الصمت الذي أعقب الإشارات اللاسلكية الأولى لرئيس

التحرير المسؤول كارت فان آندا أن الباخرة غرقت، ومن ثم نشر هذا النبأ المثير في طبعات الصباح الباكر، فذكر أن التيتانيك تغرق، وأن النساء ركبن زوارق النجاة، ثم نشر في الطبعات التالية أنها غرقت تمامًا.

وفي الساعة الثانية صباحًا كان رجال الصحف يقتحمون مكاتب شركة «هوايت ستار» في شارع برود واي رقم ٩. وهناك خفف نائب المدير فيليب فرانكلين من وقع الأنباء قائلًا: «إنه حتى على فرض اصطدام التيتانيك بجبل ثلج عائم، ففي مقدورها أن تطفو إلى ما لا نهاية. إننا نضع كل ثقتنا في التيتانيك، ونؤمن تمامًا أنها غير قابلة للغرق».

إلا أنه في الوقت نفسه كان يرسل في لهفة شديدة البرقيات اللاسلكية إلى الكابتن سميث -ربَّان التيتانيك- يقول فيها: «إننا ننتظر في لهفة شديدة المعلومات والوضع المحتمل للركاب».

وتدفق مع الضحى أصدقاء وأقارب ركاب التيتانيك على مكاتب الشركة، منهم: المسز ينيامين جوجنهايم وشقيقها دي ويت سليجمان ووالد المسز آستور (.هـ. فورس، و ج. ب مورجان الابن)، ومئات آخرون لم يعرفهم أحد، فقراء وأغنياء. ولكنهم جميعًا تلقوا نفس الابتسامات المطمئنة، والعبارات التي تقول: «لا داعي للقلق.. إن التيتانيك غير قابلة للغرق، ويمكنها على كل حال أن تظل طافية يومين أو ثلاثة.. هذا عدا وجود زوارق نجاة كافية للجميع بكل تأكيد».

وأيدت الصحف هذه الأقوال المطمئنة، فنشرت صحف المساء في صفحتها الأولى هذه العناوين المثيرة:

«نجاة الجميع بعد اصطدام التيتانيك».

وتحدثت المقالة عن نجاة جميع ركاب التيتانيك بعد أن نقلوا إلى الباخرتين «باريزيان» و«كارباتيا»، وعن الباخرة تيتانيك التي راحت الباخرة فيرجينيان تجرها إلى ميناء هاليفاكس.

حتى دوائر الأعمال بدت واثقة من الموقف، فعندما ما وردت الأنباء الأولى ارتفعت نسبة التأمين على شحنة الباخرة تيتانيك إلى ٥٠٪، ثم إلى ٦٠٪، ولكن عندما أخذت موجة التفاؤل تزداد، هبطت هذه النسبة في بورصة لندن إلى ٥٠٪ مرة أخرى، ثم إلى ٤٥٪، ثم إلى ٣٠٪ وأخيرًا إلى ٢٥٪.

وفي الوقت نفسه ارتفعت أسهم ماركوني إلى السماء. فارتفعت في يومين من خمسة وخمسين بنطًا إلى ٢٢٥. ولم يكن هذا بالأمر البسيط لأسهم كانت قبل عام توزع دولارين أرباحًا. أما أسهم «أ. م. م» –وهي المؤسسة المتحدة التي تشرف على إدارة خط شركة «هوايت ستار»– فقد استردت مكانتها بعد الهزة العنيفة التي أصابتها في الصباح.

ومع ذلك فقد بدأت الشائعات تنتشر، لا عن طريق الجهات الرسمية المسؤولة، وإنما عن طريق هواة اللاسلكي الذين أرهفوا آذانهم لالتقاط الإشارات المزعجة على الخط الأطلنطي التي لم تكن موجهة إليهم، ثم نشرها بين الناس على نحو ما. ففي أثناء فترة ما بعد الظهر سمع أحد ضباط شركة كوناردر من صديق له في المدينة أن التيتانيك غرقت تمامًا. وأبرق أحد رجال الأعمال في نيويورك إلى صديق له في

مونتريال بنفس الخبر، وسمع فرانكلين بهذا أيضًا. ولكن بدا له أنه لا يستطيع الاعتماد على مصدر هذه الأنباء، ومن ثم قرر أن يلتزم الصمت.

وفي الساعة السادسة والربع هاجت الدنيا وماجت عندما وصلت أخيرًا إشارة من الباخرة أولمبيك تؤكد أن التيتانيك غرقت في الساعة الثانية والدقيقة العشرين صباحًا، وأن الباخرة كارباتيا التقطت كل الذين كانوا في زوارق النجاة، وأنها منطلقة في الطريق إلى نيويورك بستمائة وخمسة وسبعين ناجيًا. وقد تأخرت هذه الإشارة في مركز الاستقبال والإرسال الرئيس بضع ساعات. ولم يعرف أحد السبب، ولكن لم يقم أي دليل على الزعم القائل بأن الدوائر المالية في «وول ستريت» قد تعمدت هذا التأخير، حتى تتفادى بعض الكوارث في الأوراق المالية الخاصة بالتأمين البحري.

وكان فرانكلين يعد نفسه لمواجهة الجماهير بالحقيقة عندما أعلنت الساعة السابعة في مكتب شركة «هوايت ستار»، وأدرك أحد المخبرين الصحفيين ما يشيع في الجو من اكتئاب، فغامر واقتحم مكتب المدير الخاص وتبعه آخرون. وهنا قال فرانكلين متلعثمًا:

– أيها السادة، يؤسفني القول بأن التيتانيك غرقت في الساعة الثانية والدقيقة العشرين هذا الصباح.

وكان هذا كل ما أراد أن يقول في أول الأمر، ولكن المخبرين الصحفيين أخذوا ينتزعون منه المزيد من المعلومات شيئًا فشيئًا. وفي الساعة الثانية وردت إشارة من الباخرة أولمبيك تقول: «نسينا أن نقول إن جميع البحارة نجوا»، ثم وردت إشارة أخرى في الساعة الثامنة والربع

تقول: «من المحتمل أن يكون عدد من الركَّاب مفقودين». وفي الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والأربعين وردت إشارة ثالثة تقول : «نخشى أن يكون عدد المفقودين كبيرًا». ولم يستطع فرانكلين في الساعة التاسعة أن يواجه الرأي العام بالنبأ الأخير: «عدد المفقودين رهيب!»؛ لأن تعويض الباخرة تيتانيك كان ممكنًا، ولكن «كان من المستحيل تعويض المفقودين».

وفي الساعة العاشرة والنصف، وصل فنست آستور، ودخل مكتب فرانكلين مباشرة. ولما غادره بعد قليل، كان يبكي. وهنا استنتج أحد المخبرين الصحفيين الحقيقة بالتخمين، واتصل تليفونيًّا بوالد المسز آستور. و. هـ. فورس وأخبره بها. ورد السيد العجوز في فزع قائلًا:

– أوه يا إلهي.. لا تقل هذا. من أين جئت بهذا النبأ؟ إنه غير صحيح.. ولا يمكن أن يكون صحيحًا.

ولم يستطع أحد الاتصال بالمسز ألفريد هيس ابنة المستر والمسز ستروس؛ لأنها في ساعة مبكرة من الظهر استقلت قطارًا خاصًّا أعدته شركة «هوايت ستار» لاستقبال التيتانيك المعطوبة في ميناء هاليفاكس، كما زعمت الأنباء الأولى. وفي الساعة الثامنة مساء كان القطار يشق طريقه في المناطق الريفية، في حين جلست المسز هيس في مركبة الطعام تتحدث مع المخبرين الصحفيين. وكانت هي السيدة الوحيدة في القطار. ومن ثم كانت الرحلة مليئة بالمرح.

وفيما هي تبدأ تناول ثمرة من ثمار الموالح «جريب فروت»، إذا بالقطار يبطئ السير، ثم يتوقف، ثم يعود القهقرى، ولم يتوقف بعد ذلك حتى وصل إلى ميناء بوسطن، وهناك علمت المسز هيس أنه «حدث

تغيير في الخطة، وأن ركاب التيتانيك يحملون إلى نيويورك مباشرة».

وهكذا استقلت قطار الليل المزود بمركبات النوم، وعادت إلى نيويورك حيث استقبلها عند البوابة شقيقها في بكور الصباح، وأخبرها أن «الأمور تبدو أسوأ ما يكون».

وكانت القائمة الأولى بأسماء الناجين قد وصلت عندئذ، فعادت الجموع تقتحم مكاتب شركة «هوايت ستار»، وأقبلت المسز فرتنك فار كارسون والمسز و. هـ. مارفين معًا لتستفسرا عن الابن والابنة اللذين كانا في طريق العودة من شهر العسل. وأطلقت أم العروس، المسز فار كارسون صيحة ابتهاج خفيفة عندما لمحت اسم ابنتها في القائمة «المسز دانييل مارتين»، ولكنها استطاعت أن تكتمها في اللحظة الأخيرة، حين لم تجد اسم «المستر مارتين» في القائمة.

وتعلقت المسز بن جاجنهايم بحبال الأمل في أن بعض زوارق النجاة قد تكون مفقودة، وراحت تبكي قائلة: «ولعله يهيم الآن في الزورق على غير هدى!».

ولعله كان كذلك، فما كان أحد يدري. نعم، لم يكن في مقدور أحد أن يظفر بأي معلومات من الباخرة كارباتيا؛ لأن الربَّان روسترون كان يقصر جهوده اللاسلكية على الاتصالات الرسمية والرسائل الخاصة المرسلة من الناجين إلى أهليهم، وهكذا أخذت الصحف تصنع لنفسها «القصص»، فتحدثت الإيفننج ورلد عن «الضباب، وصفارات التيتانيك المدوية، والاصطدام الهائل الذي كان له دوي الزلزال»، وراحت صحيفة الهيرالد تصف كيف تمزقت الباخرة إربًا، وكيف غاصت في

الظلام وقد انهارت تمامًا عند الاصطدام.

ولما بدأ معين الخيال ينضب، شرعت الصحف تحمل على صمت باخرة الإنقاذ. فأرعدت صحيفة الإيفننج ميل قائلة:

«غضب المراقبين لصمت الكارباتيا».

وقالت صحيفة «الورلد» وهي تلوي شفتيها:

«كارباتيا لا تفشي أسرار عدد الضحايا في التيتانيك».

وهكذا انقضى يوم الثلاثاء، وجاء يوم الأربعاء، ثم يوم الخميس، ومع ذلك فلا أحد يعلم شيئًا على وجه اليقين، ودخلت الصحف الأسبوعية في المعركة الآن. فنشرت مجلة «هاربرز ويكلي» أوصافًا تفصيلية عن الكبراء بين ركاب التيتانيك، وكان بينهم هنري سليبر هاربر أحد أفراد أسرة المجلة ومالكها. ثم أيدت مسألة الضباب والصدمة الرهيبة، ثم علقت في شيء من الحيرة: «أما ما حدث بعد ذلك، فكله تخمين». إلا أنها أكدت لقرائها أن عمليات الإنقاذ اتبعت المبدأ القائل: «النساء والأطفال أولًا»، وهو «المبدأ الذي يدين به كل الأشخاص المهذبين الذين يركبون البحار». وفي العدد التالي استطاعت المجلة أن تحول موقفًا حرجًا إلى سبق صحفي عندما نشرت حديثًا خاصًّا مع هنري سليبر هاربر بعد أن نجا هو وترجمانه وكلبه البكنيز.

وانتهت فترة الانتظار والترقب في مساء يوم الخميس. فبينما كانت الباخرة كارباتيا تمخر العباب بجوار تمثال الحرية، أخذ عشرة آلاف شخص يرقبونها من فوق مخزن التمثال الكهربي، وبينما هي تقترب من

الرصيف رقم ٥٤، كان ثمة ثلاثون ألفًا واقفين في مدخل الميناء تحت المطر. ولكن روسترون ظل متزمتًا في موقفه إلى النهاية مع المخبرين الصحفيين، فلم يسمح لهم بالصعود إليها عند الحجر الصحي، وهكذا أخذت الزوارق على مختلف أنواعها تجري حولها ممتلئة بالصحفيين، وهي تشق طريقها في نهر الشمال، وكانت أسئلة رجال الصحافة تنهال عليها من أبواق تكبير الصوت.

وفي الساعة الثامنة والدقيقة السابعة والثلاثين، وصلت الباخرة إلى الرصيف، وبدأت في إنزال زوارق النجاة الخاصة بالباخرة التيتانيك؛ لكي تستطيع أن تشغل الجموع المنتظرة عنها قليلًا. ومضت الزوارق إلى رصيف شركة «هوايت ستار» حيث هجم عليها هواة جمع التذكارات وأخذوا كل ما يمكن أخذه منها أثناء الليل. وفي اليوم التالي بدأ الرجال العمل على إزالة اسم (التيتانيك) من جانب كل زورق.

وألقت الباخرة كارباتيا مراسيها، وشدت إلى الرصيف في الساعة التاسعة والدقيقة الخامسة والثلاثين، ثم وضعت السلالم وبدأ أول فوج من الناجين في الهبوط، ثم حمل ذلك كيس من القماش البني لحمل مختلف الأشياء، وكانت جوانبه منبعجة «مساحة كل جانب نحو ١٢ بوصة مربعة» إلى إدارة الجمارك حيث ختم بالحرف «ج». ويقول رجال الجمارك إن هذا الكيس كان المتاع الوحيد الذي نجا من الباخرة تيتانيك، ولكن صاحبه صمويل جولدنبرج أنكر هذا مدعيًا أنه اشتراه على ظهر الباخرة كارباتيا. وقال إنه كان يحتوي فقط على ملابسه

التي خلعها بعد نجاته في الباخرة تيتانيك. وبعض الأشياء القليلة التي اشتراها وهو في الباخرة المنقذة: منامة، ومعطف، وبنطلون، وجلباب، ومعطف مطر، وشبشب، وسجادتان، وقميص، وياقتان، وأدوات زينة، وحذاء له وآخر لزوجته.

وبيَّن وصول الباخرة كارباتيا حقيقة أشخاص الناجين، ولكنها لم تكشف عما حدث؛ لأن الناجين أضافوا مبالغاتهم وأساطيرهم الخاصة إلى الأساطير الخيالية التي كان الناس يتناقلونها على الشاطئ. وكانت رحلة العودة المؤلمة أقسى مما في مقدور بعضهم الاحتمال. كان بعضهم قد انغمر ببهجة النجاة والعودة، أما الأثرياء جدًّا فقد وجدوا أنفسهم يزيدون القصص إثارة. وأما الذين آثروا الإيجاز فقد عمد رجال الصحافة إلى مط هذا الإيجاز بألوان الإثارة، وقد دهش بعض هؤلاء، وخجل بعضهم الآخر.

ونشرت الصحف بعض أحاديث مندوبيها مع الناجين. راكب الدرجة الثانية أميلبوبور ثالوبي، مثلًا، ظل راكبًا كعكة من الثلج مدة ساعات... والآنسة ماري يونج رأت جبل ثلج عائمًا قبل الحادث بساعة، وأن البحارين ويليام، وويليام فرنش شاهدا ستة رجال يُقتلون بالرصاص كالكلاب. والمالي الفلاديلفي روبرت. و. دانييل تولى أمر الاتصالات اللاسلكية على الباخرة كارباتيا أثناء رحلة العودة. وكانت جميع الأدلة ضد هذه الأقاصيص، ولكن الرأي العام كان أشد انفعالًا من أن يهتم بالحقيقة.

وكان الخيال أحيانًا يحلق إلى السماء؛ فقد نشرت صحيفة نيويورك

صن في التاسع عشر من شهر أبريل قصة على لسان راكب الدرجة الأولى جورج برايتون، قال فيها:

– كان القمر بازغًا، وكان عدد منا يستمتعون باستنشاق الهواء المنعش وهم يتنزهون على السطح. وكان الربَّان سميث على مركز المراقبة عندما انطلقت صيحة من أحد الرقباء تعلن عن وجود جبل ثلج عائم أمام الباخرة. ولعل ارتفاع هذا الجبل حين رأيته كان ثلاثمائة قدم. وكان يبعد، على الأرجح، مائتي ياردة، وفي مواجهة الباخرة مباشرة. وصاح الربَّان سميث ببعض الأوامر، فاندفع عدد منا، نحن المتنزهين، إلى مقدمة الباخرة. فلما رأينا أننا لن نستطيع أن نتجنب الاصطدام بها، اندفعنا إلى المؤخرة، ثم حدثت الصدمة، واستبد الفزع بالركَّاب. وقد وقع الحادث في نحو الساعة العاشرة والنصف مساء. وحوالي منتصف الليل، كما أعتقد، سمعنا انفجار المرجل الأول، ثم إذا بالربَّان سميث يشعر لأول مرة، كما أظن، بالقلق.

ونشرت إحدى الصحف. بعد حديث مندوبها مع جوناس بريجز، أحد بحارة الكارباتيا، قصة الكلب النيوفوندلاندي الأسود الجميل «ريجيل» الذي وثب من سطح الباخرة الغارقة تيتانيك، وراح يقود زورق نجاة إلى الباخرة كارباتيا، وكأن نباحه البهيج يقول للكابتن روسترون إنه في الطريق إليه..

وكانت بعض الأفكار الخاصة تجثم بعنف على أذهان البعض. فمثلًا تحدث الرقيب ريجنالدلي –وقد بدا له أنه مضى عليه قرن منذ

تلك اللحظة الرهيبة التي شاهد فيها زميله فليت جبل الثلج- عن غمام في الأفق، وتذكر قول فليت له:

- لو استطعنا أن نرى من خلال هذا الغمام لكنا سعداء الحظ.

ولكن فليت لا يذكر قط أنه قال هذا.

وشرح راكب بالدرجة الأولى، في حديث صحفي له، سبب وجوده في الزورق رقم ٧، وهو أول زورق غادر الباخرة.

«كانت السيدات جميعًا، من جهة، مصممات تمامًا على عدم ركوب الزوارق، ما لم يركب الرجال أولًا. لقد خشين أن يواجهن قسوة البحار بمفردهن. وكان الأمر يحتاج إلى شجاعة بالغة لركوب هذه الزوارق الخفيفة التي كانت تنزلها المطارح إلى الماء. ولم يقبل غير القليل من الرجال أن يغامروا بركوبها، وأخيرًا اندفع ضابط ورائي صائحًا.

- إنك ضخم الجسم، وتستطيع أن تعمل على مجداف. اقفز إلى هذا الزورق، وإلا فلن نستطيع إغراء السيدات بالركوب.

وأُرغمت على أن أفعل هذا، رغم اعترافي بأن الباخرة كانت عندئذ تبدو أكثر أمانًا من ذلك الزورق الصغير».

وأخيرًا بدت القصة الحقيقية في الظهور تدريجيًّا، إلا أن كثيرًا من هذه الحكايات الشائعة التي انتشرت في الأيام الأولى ظلت تتردد منذ ذلك الحين -السيدة التي رفضت أن تتخلى عن كلبها الكبير الأصيل، وفرقة الموسيقى التي كانت تعزف: «إنني أقرب إلى الله منك»، وانتحار

الكابتن سميث والضابط الأول مردوخ، والتجاء المسز براون إلى المسدس للسيطرة على الزورق رقم ٦.

ولكن الأساطير هي عادة جزء من أحداث ضخمة، فإذا كانت من العوامل التي تساعد على تخليد بطولات التضحية والفداء، فإنها عندئذ تؤدي الهدف منها، ولكن لم يكن ثمة حاجة يومذاك إلى هذه الأساطير لمضاعفة تأثير ذلك الحادث في النفس؛ لأن الناس كانوا مذهولين عندئذ من فرط قسوة المأساة. فقد نكست الأعلام في كل مكان. وأغلق مسرحا ماكي وهاريس أبوابهما. وأجلت شركة ملاحية فرنسية حفلة كانت تنوي إقامتها على الباخرة الجديدة «فرانس»، وكان الحزن عميقًا في ميناء ساوثامبتون، حيث كان يقيم كثير من البحارة. ومما يذكر أن عشرين أسرة في شارع واحد ارتدت ملابس الحداد. وأجلت مدينة مونتريال عرضًا عسكريًّا. وتبادل الملك جورج والرئيس تافت برقيات التعزية، واشترك معهما في ذلك قيصر روسيا. وألغت شركة ج. س. باتش حفلتها السنوية، وأجل ج. ب. مورجان حفل افتتاح مصحة جديدة كان قد أقامها في إكس ليبان.

وحتى السجل الاجتماعي اضطرب أمره. ففي ذلك العهد كانت الباخرة التي يسافر عليها الناس تعتبر مقياسًا هامًّا لتحديد مكانتهم الاجتماعية، وكان السجل حريصًا على تعقب هذا الأمر. ومن ثم خلفت المأساة مشكلة غير متوقعة. فإذا قيل إن العائلات التي سافرت على الباخرة تيتانيك نالت حقها الاجتماعي، فلن يكون هذا القول صحيحًا. وإذا قيل إنها وصلت على الباخرة كارباتيا، فهذا صحيح،

ولكنه غير صحيح اجتماعيًّا. فكيف يمكن معالجة هذا الأمر المحير؟ لقد استطاع السجل، في حالة الذين فقدوا، أن يتفادى هذه المشكلة. فقد ذُكر أمام اسم كل منهم هذه الكلمات «مات غرقًا في ١٥ أبريل عام ١٩١٢»، أما بشأن الناجين، فقد حرص السجل على أن يكتب هذه الكلمات أمام كل اسم «وصل على الباخرتين تيتان -كارباث في ١٨ من أبريل عام ١٩١٢»، وكانت هذه الشرطة بين الكلمتين ترمز لأعظم كارثة في التاريخ.

أما الذي أزعج الناس بوجه خاص، فلم تكن المأساة نفسها، بل ولا إمكان تجنبها، وإنما عنصر القضاء والقدر فيها. فلو أن التيتانيك اهتمت بأي إشارة من إشارات التحذير التي تلقتها عن جبال الثلج العائمة في يوم الأحد ذاك، ولو أن حالة الجليد كانت طبيعية.. ولو كان البحر مهتاجًا أو القمر بازغًا.. ولو أنها رأت جبل الثلج قبل ربع دقيقة أو بعد دقيقة من الرؤية الفعلية، ولو أنها صدمت الجبل الثلجي في أي مكان آخر، ولو أن حواجز أقسامها المانعة للماء كانت ترتفع مسافة سطح آخر، ولو أنها كانت تحمل من زوارق النجاة ما يكفي جميع الركَّاب والبحارة، ولو أن الباخرة كاليفورنيان وصلت إليها فورًا: لو أن واحدًا فقط من أي احتمال من هذه الاحتمالات قد حدث، لكان من الممكن إنقاذ جميع من عليها، ولكن هذه الاحتمالات كلها كانت ضدها، فحدثت هذه المأساة الشبيهة بالمآسي الإغريقية القديمة.

كانت هذه الأفكار لم تتبلور بعد، والباخرة كارباتيا متجهة نحو

نيويورك في الصباح المشمس من اليوم الخامس عشر من شهر أبريل. وكان الناجون عندئذ لا يزالون متهالكين من فرط الإرهاق على مقاعد الأسطح، أو يحتسون القهوة في قاعة الطعام، أو يتساءلون في ذهول عما سوف يرتدونه.

وقام ركاب كارباتيا بواجباتهم في شهامة، فراحوا يبحثون عن فرش الأسنان الزائدة لديهم ويقدمونها، ويعيرون ملابسهم ويخيطون الأسمقة[1] للأطفال من البطاطين التي جلبوها معهم في زوارق النجاة، وجعل أحد تُجَّار الخمور، وكان في طريقه إلى البرتغال، من نفسه ملاكًا حارسًا للتجار الثلاثة الناجين، وحملت المسز لويس أرجون قدحي قهوة إلى سيدتين في سترات ومطارف زاهية الألوان كانتا تجلسان بمفردهما في أحد الأركان، ولكنهما قالتا لها:

- ابتعدي عنا، لقد رأينا أزواجنا يغرقون.

ولكن الحياة لم تلبث أن بدأت من جديد بالنسبة لبعض الناجين. فأرسل لورانس بيزلي إشارة لاسلكية تنبئ بأنه بخير. ولكن هذا الإحساس احتاج إلى وقت أطول ليخامر الآخرين، فقد ظل الكولونيل جراسي راقدًا تحت كومة من البطاطين فوق أريكة بقاعة الطعام ريثما تجف ملابسه في فرن الخبز. وظل بروس اسماي جالسًا في مقصورة طبيب الباخرة، يرتعد رغم حقن المسكنات التي أعطيت له. وأفاق هارولد برايد أيضًا وهو راقد في مقصورة فاخرة لأحد الركَّاب، ليشعر بيد سيدة تنحني عليه، وهي تمسح على شعره وتدلك وجهه.

(١) جمع سمق: معربة عن «Smocks»، وهو نوع من القمصان.

وكان جاك ثاير في مقصورة أخرى قريبة. وكان ثمة رجل شفيق قد أعاره منامة وسريرًا. وقد أخذ ثاير يأوي إلى هذا الفراش، كما فعل تمامًا قبل ذلك بعشر ساعات فقط، فدخل بين الأغطية الناعمة المنعشة، وتذكر أن كأس البراندي التي شربها منذ لحظات كانت أول كأس خمر يشربها في حياته. لا شك أنه بدأ يبلغ مبلغ الرجال.

وهناك في القاعة، كانت محركات الباخرة كارباتيا ترسل زفيفها الرتيب السريع المهدئ للأعصاب. وهناك، في أعلى، كانت الرياح تصفر بين الساريات والأدقال. وإلى الأمام كانت نيويورك، والوطن في فيلادلفيا. وإلى الوراء كانت أشعة الشمس تنعكس على الدعامة ذات الخطوط البيضاء والحمراء التي انفصلت من صالون الحلاقة بالباخرة تيتانيك، وراحت تطفو على الأمواج، ولكن جاك ثاير لم يكن يعرف أو يهتم.... لقد أدى البراندي مهمته معه، فإذا هو مستغرق في النوم.

* * *

حقائق عن الباخرة تيتانيك

قال الخبَّاز تشارلز بيرجز عن خبرة ودراية:

- لن يكون هناك باخرة مثلها قط.

وكان قد رأى في السنوات الثلاث والأربعين التي أمضاها في البحر جميع أنواع البواخر الكبرى -الأولمبيك.. والماجستيك.. والموريتانيا وغيرها. ولعله الآن- وهو يعمل طاهيًا مساعدًا في مطبخ الباخرة كوين إليزابث- آخر عمال الباخرة تيتانيك مستمرًّا في العمل.

ويقول في معرض الذكريات:

- نعم، إنها مثل الأولمبيك، ولكن أفخم كثيرًا. انظر مثلًا إلى قاعة الطعام. إنه لا يوجد حتى سجادة في قاعة طعام الأولمبيك، أما في التيتانيك فإن الأقدام كانت تغوص في سجادة قاعتها إلى الركب.. ثم الأثاثات؛ لقد كانت ثقيلة بحيث لا يستطيع الإنسان أن يحمل شيئًا منها -وتلويح الجدران..

ويعود قائلًا:

- من الممكن أن يصنعوا بواخر أكبر وأسرع، ولكن المهم هو الجهد والعناية اللذان بُذلا فيها. كانت باخرة جميلة.. مدهشة.

وكانت ذكريات بيرجز نموذجية، ذلك أن التيتانيك كانت قد تركت سحرها في الذين صنعوها وقادوها. وقد بلغ من تأثير هذا السحر أن الأساطير عنها كانت تزداد مع مرور الزمن. ومن ثم فإن كثيرًا من الناجين لا يزالون يصرون على أنها كانت ضعف الأولمبيك في الحجم. ولكن الحقيقة هي أنهما كانتا متماثلتين في الحجم تقريبًا، إذ كانت التيتانيك أكبر بحمولة ألف وأربعة أطنان فقط. ويتذكر آخرون ما كان فيها من ملاعب الجولف، وساحات التنس وقطيع الأبقار الخاصة بإنتاج اللبن، وغير ذلك من اللمسات الخفيفة التي تجاوزت حتى ما كان معروفًا عن ولع شركة هوايت ستار بالأبهة والفخامة.

والواقع أن التيتانيك كانت فاخرة حقًّا، وبلا حاجة إلى هذه التهاويل. فقد كان وزنها ٤٦,٣٢٨ طنًا.. وحمولتها ٦٦ ألف طن، وأبعادها: ٨٨٢,٥ قدم في الطول، ٩٢,٥ قدم في العرض، وارتفاعها من خط الماء إلى سطح الزوارق كان ٦٠,٥ قدم، أو ١٧٥ قدمًا من القاع إلى قمم مداخنها الأربع الضخمة. وعلى الجملة كانت بارتفاع أحد عشر طابقًا منزليًّا، وفي طول ثماني عمارات تقريبًا.

ولما كانت التيتانيك ثلاثية الرفاصات، فقد كانت لها مجموعتان من المحركات المتناوبة قوة كل واحدة منها أربعة سلندرات لدفع الرفاصين الجانبيين، بينما كان يدفع الرفاص الأوسط محرك توربيني

«دوار». وكان هذا التركيب يزودها بقوة خمسين ألف حصان، إلا أنها كانت تستطيع بسهولة أن تزيد هذه القوة إلى خمسة وخمسين، أما أقصى سرعتها فكانت تتراوح بين ٢٤ إلى ٢٥ عقدة في الساعة.

ولكن لعل أهم شيء فيها كان طريقة إنشاء أقسامها المانعة للماء، كانت مزدوجة القاع ومقسمة إلى ستة عشر قسمًا مانعًا للماء، وكان يفصل هذه الأقسام خمسة عشر حاجزًا مانعًا للماء تمتد من أقصى الباخرة إلى أقصاها. ولكن العجب أن هذه الحواجز لم تكن تصل إلى الارتفاع المناسب. فالحاجزان الأولان، وآخر خمسة حواجز، كانت لا ترتفع إلا إلى السطح «د». أما الثمانية الوسطى فلم تكن تتجاوز السطح «أ»، ومع ذلك كان في مقدورها أن تبقى طافية رغم امتلاء أي قسمين من أقسامها بالماء. ولما لم يكن أحد يتصور أن أي اصطدام ما كان ليصيب أكثر من قسمين بأي حال. فقد قيل عنها إنها «غير قابلة للغرق».

وأُنزلت إلى البحر هذه الباخرة «غير القابلة للغرق» المسماة تيتانيك من حوض شركة هارلاند وولف لبناء السفن بميناء بلفاست في اليوم الحادي والثلاثين من شهر مايو عام ١٩١١. وانقضت الأشهر العشرة التالية في تأثيثها وإعدادها. وأتمت جميع التجارب التي أجريت عليها في أول أبريل عام ١٩١٢ ووصلت إلى ساوثمبتون في الثالث من أبريل عام ١٩١٢. وبعد أسبوع أبحرت في الطريق إلى نيويورك. وفيما يلي سجل بالأحداث الرئيسة التي جرت عليها في أول رحلة لها:

١٠ من أبريل عام ١٩١٢ –الساعة ١٢ ظهرًا:	غادرت ميناء ساوثمبتون وتفادت بمعجزة الاصطدام بعابرة المحيط الأمريكية المسماة «نيويورك».
في الساعة السابعة مساء:	توقفت في شيربورج لاستقبال ركاب.
في الساعة التاسعة مساء:	غادرت شيربورج إلى مدينة كوينز تاون.
١١ من أبريل عام ١٩١٢ – الساعة الثانية عشرة والنصف مساء:	توقفت في كوينز تاون لاستقبال الركَّاب والبريد. غادرها أحد الوقَّادين.
في الساعة الثانية مساء:	غادرت كوينز تاون إلى نيويورك تحمل ١٣١٦ راكبًا و ٨٩١ بحارًا.
١٤ من أبريل عام ١٩١٢ – الساعة التاسعة صباحًا:	أرسلت الباخرة كاردنيا إشارة عن وجود جبال ثلج طافية في خط العرض ٤٢ شمالًا وخط الطول ٤٩ إلى ٥١ غربًا.
في الساعة الواحدة والدقيقة ٤٢ بعد الظهر:	أرسلت «البالتيك» إشارة عن وجود جبال ثلج طافية عند خط العرض ١٧ و ٤١ شمالًا وخط الطول ٤٩ إلى ٥٢ غربًا.

في الساعة الواحدة والدقيقة ٤٥ بعد الظهر :	أرسلت الباخرة «أمريكا» إشارة عن وجود جبال ثلج طافية عند خط العرض ٤١,١٧ شمالًا وخط الطول ٥٠,٨ غربًا.
الساعة السابعة مساء:	درجة الحرارة ٤٣ فهرنهايت.
الساعة السابعة والنصف مساء:	درجة الحراة ٣٩ فهرنهايت.
الساعة السابعة والنصف مساء:	أرسلت الباخرة كاليفورنيان إشارة عن وجود جبال ثلج طافية عند خط العرض ٤١,٣ شمالًا وخط الطول ٥٠,٩ غربًا.
الساعة التاسعة مساء:	درجة الحرارة ٣٣ فهرنهايت.
الساعة التاسعة والنصف مساء:	الضابط الثاني لايتوللر يحذر البحارة وغرفة الآلات بأن الماء النقي قد يتجمد، ويطلب من برج المراقبة الأعلى أن يراقب جبال الثلج الطافية.
في التاسعة والدقيقة والأربعين مساء:	أرسلت الباخرة مازيبا إشارة عن وجود جبال ثلج طافية في خط العرض ٤٢ إلى ٤١,٢٥ شمالًا وخط الطول ٤٩ إلى ٥٠,٣٠ غربًا.

في الساعة العاشرة مساء:	درجة الحرارة ٣٢ فهرنهايت.
في العاشرة والنصف:	هبطت درجة حرارة البحر إلى ٣١ فهرنهايت.
في الساعة الحادية عشرة مساء:	أرسلت الباخرة كاليفورنيان إشارة عن وجود جبال ثلج طافية، ولكنها انقطعت عن الإرسال قبل تحديد المكان.
في الساعة الحادية عشرة والدقيقة الأربعين مساء:	اصطدام مع جبل ثلج عائم في خط العرض من ٤٦ , ٤١ شمالًا وخط الطول ١٤ , ٥٠ غربًا.
في الساعة الثانية عشرة وخمس دقائق:	صدرت الأوامر برفع الأغطية عن زوارق النجاة والسيطرة على البحارة والركَّاب.
١٥ من أبريل ١٩١٢ –الساعة الثانية عشرة والربع صباحًا:	أول إشارة استغاثة.
في الساعة ٤٥ , ٢٢ صباحًا:	إطلاق أول صاروخ
في الساعة ٤٠ , ١ صباحًا:	إنزال أول زورق نجاة رقم ٧.
في الساعة ٠٥ , ٢ صباحًا:	إنزال آخر زورق نجاة رقم (د).
في الساعة ١٠ , ٢ صباحًا :	إرسال آخر إشارة استغاثة.
في الساعة ١٨ , ٢ صباحًا :	خفوت الأضواء.
في الساعة ٢٠ , ٢ صباحًا :	الباخرة تغرق تمامًا.

في الساعة ٣,٣٠ صباحًا :	زوارق النجاة تشاهد صواريخ الباخرة كارباتيا.
في الساعة ٤,١٠ صباحًا :	كارباتيا تلتقط أول زورق نجاة رقم ٢.
في الساعة ٨,٣٠ صباحًا :	التقاط آخر زورق نجاة رقم ١٢.
في الساعة ٨,٥٠ صباحًا :	تتجه الكارباتيا نحو نيويورك، ومعها ٧٠٥ من الناجين.

ولنكتفِ بهذا القدر من الحقائق الأساسية. أما فيما عدا هذا، فإن الكثير لا يزال محاطًا بالغموض والخفاء. ولعله لا يوجد شيء يضارع التيتانيك في عدد الأسئلة التي بقيت بشأنها بلا جواب. فمثلًا:

كم عدد الذين فقدوا؟ تقول بعض المصادر إنهم ١٦٣٥ شخصًا. وتقول التحريات الأمريكية إنهم ١٥١٧، وتقول الغرفة الصناعية الإنجليزية إنهم ١٥٠٣.. والتحريات الإنجليزية ١٤٩٠.. ويبدو أن رقم غرفة الصناعات الإنجليزية هو الأصح، بعد أن يحذف منه الوقَّاد ج. كوني الذي غادرها في كوينز تاون. كيف غادرها مختلف من كان عليها؟ كل سيدة ناجية تقريبًا أجابت عند سؤالها قائلة بحزم: «في آخر زورق نجاة»، والواضح أن جميع السيدات لم يركبن زورقًا واحدًا. ولكن سؤال السيدات في هذا الشأن كان كسؤالهن عن أعمارهن، أي إن الإنسان لا يوجه هذا السؤال ببساطة.

وبعد الغربلة الدقيقة للأقوال التي أدليت أمام لجان التحقيق الإنجليزية والأمريكية تبينت بوضوح الطريقة التي غادر الركَّاب بها

الباخرة، وحتى هذه الحالة لم تخلُ من الأدلة المتناقضة. فكان كل شاهد أمام لجنة التحقيق الإنجليزية يجيب عن سؤال يوجه إليه عن عدد الذين ركبوا في الزورق معه. وقد أمكن بهذه الطريقة الوصول إلى معدلات جد قريبة من الحقيقة، وكانت النتائج كما يلي:

	عدد الذين ركبوا الزوارق بناء على المعدلات القائمة على أقوال الناجين	عدد الذين ركبوا الزوارق بناء على أرقام الذين نجوا فعلا
بحارة	١٠٧	١٣٩
ركاب من الرجال	٤٣	١١٩
ركاب من النساء والأطفال	٧٠٤	٣٩٣
المجموع	٨٥٤	٦٥١

وعلى الجملة كانت نسبة الغرق سبعين في المائة زيادة في عدد الرجال، وخمسة وأربعين في المائة نقصًا في عدد السيدات، بين الذين ركبوا الزارق، وذلك حسب تقدير أكثر الناجين تحريًا للحقائق. يضاف إلى هذا أن الزوارق غادرت الباخرة وهي أقل ٢٥٪ من العدد المقدر لها.

في أي أوقات وقعت الأحداث المختلفة؟ الجميع اتفقوا على أن الباخرة تيتانيك اصطدمت بجبل الثلج العائم في الساعة الحادية عشرة والدقيقة الأربعين مساء، وأنها غرقت في الساعة الثانية والدقيقة العشرين صباحًا، ولكن اختلفت الأقوال بعد ذلك في كل شيء تقريبًا

حدث بين الاصطدام والغرق. والأوقات التي وردت في هذا الكتاب قائمة على التقديرات الأمينة للأشخاص الذين كان لهم دور في هذه الأحداث، ولكن هذه التقديرات مع هذا كانت أبعد عن الثبوت بصفة قاطعة. لقد حدثت عوامل كثيرة أدت إلى هذه الاختلافات. ولنضرب بذلك مثلًا مسز لويز م. أوجدن إحدى راكبات الباخرة كارباتيا. ففي وقت ما – عندما كانت تساعد الناجين من التيتانيك على الاستقرار في كارباتيا– توقفت برهة لتسأل زوجها عن الوقت، ورد زوجها أن ساعته متوقفة، ولكنها قدرت الوقت بالساعة الرابعة والنصف مساء. ومع ذلك كان الوقت في الحقيقة الساعة التاسعة والنصف صباحًا. وتعليل هذا أنهما كانا منشغلين جدًّا بالعمل، بحيث لم يشعرا بمرور الوقت.

ماذا قال الناس على اختلافهم؟ ليس في هذا الكتاب عبارات حوار مؤلفة من الخيال. إن كل كلمة حوار وردت فيه سجلت تمامًا كما نطقها الذين تذكروها. ولكنَّ هناك مجالًا للخطأ طبعًا. فنفس عبارات الحوار كانت تذكر باختلافات بسيطة. فمثلًا كان هناك أربعة نصوص عن المحادثة التي تبادلها الكابتن روستروون مع الضابط الرابع بوكسهول أثناء اقتراب الزورق رقم ٢ من الباخرة كارباتيا. إن المعنى واحد في النصوص الأربعة، ولكن التعبير كان مختلفًا بعض الشيء.

ماذا عزفت الفرقة الموسيقية؟ تقول الحكايات، طبعًا، إن الفرقة غرقت وهي تعزف مقطوعة «إننا أقرب إلى الله». ولا يزال كثير من

الناجين يصرون حتى اليوم على هذا، وليس هناك ما يبرر الشك في صدقهم. ويدعي البعض أن الفرقة لم تعزف غير «الرجتيم». ويقول أحدهم إنه يتذكر اللحظات الأخيرة للفرقة، ويؤكد أنها لم تكن تعزف شيئًا. ولكن يمكن الاعتماد -في هذا التيه من الأدلة المتناقضة- على أقوال عامل اللاسلكي هارولد برايد، لقد كان مدربًا على قوة الملاحظة ودقيقًا في تصرفاته، وظل على ظهر الباخرة إلى آخر لحظة. وهو يذكر بوضوح، وسطح الزوارق يزداد غوصًا، أن الفرقة كانت تعزف المقطوعة الأسقفية «الخريف».

هل ركب أحد الرجال زورق نجاة متنكرًا في هيئة سيدة؟ عندما كانت مادة هذا الكتاب تجمع، ذُكرت أسماء أربعة من ركاب الدرجة الأولى على أنهم ذلك الرجل المشهور الذي نجا متنكرًا في هيئة امرأة. ولكن لم يقم أي دليل على أن واحدًا منهم هو ذلك الرجل، بينما هناك أدلة عديدة تثبت العكس. وعلى سبيل المثال، ظهر من التحقيق أن أحد هؤلاء الأربعة كان هدفًا لحقد أحد رجال الصحافة؛ لأنه دفعه بعيدًا عندما أراد أن يجري بعض الأحاديث مع الناجين. وآخر من هؤلاء الأربعة كان ضحية مهاترات سياسية بسبب مركزه السياسي الكبير. والثالث كان ضحية تقولات الوسط الاجتماعي؛ لأنه غادر الباخرة قبل زوجته. وفي سبيل البحث عن شخصية كبيرة تكون موضع هذه التهمة الشائنة غفل الجميع عن أمر راكب الدرجة الثالثة دانييل باكلي الذي اعترف بصراحة أنه هو الذي وضع مطرف سيدة على رأسه. لقد كان مجرد غلام إيرلندي فقير خائف. ولم يكن أحد يهتم بأمره.

إن الإجابة عن هذا الألغاز الخاصة بالتيتانيك لن تُعرف قط على وجه اليقين. وخير ما يمكن عمله هو موازنة الأدلة في دقة للوصول إلى نتائج سليمة. إن بعضهم لا يزالون يرفضون هذا، وربما كانوا على صواب؛ لأن الرجل المتهور فقط هو الذي ينصب من نفسه فيصلًا نهائيًّا في كل ما حدث في تلك الليلة العجيبة التي غرقت فيها التيتانيك.

* * *

تقريرات

والواقع أن هذا الكتاب وضع عن آخر ليلة في حياة مدينة صغيرة، ذلك أن التيتانيك كانت -كمدينة صغيرة- بكبر حجمها وعدد ركابها. وكان من المستحيل تسجيل كل ما حدث، بل إن تنسيق جزء من الصورة كان يحتاج إلى جهود عشرات من الناس.

وكان ثمة عدد كبير هناك، وقد أمكن معرفة أماكن ٥٣ من الناجين، وقد تجاوب عدد كبير منهم في هذا الشأن. وكانوا خليطًا من الأغنياء والفقراء، رُكَّابًا وملَّاحين، ولكن بدا أنهم جميعًا يشتركون في صفتين عامتين: الأولى، أنهم كانوا يبدون في حالة طيبة جدًّا، وكأنما يلوح أنهم وقد خرجوا من هذه المحنة سالمين، أصبح من السهل عليهم احتمال كل شيء آخر، فتقدموا في العمر وسكينة النفس تغمرهم. والثانية أنهم كانوا واسعي أفق التفكير إلى حد عجيب. وكأنما وقد رأوا الإنسان في أعظم مواقف الإيثار والتضحية، قد قرروا احتقار كل أثر من آثار الأنانية في أنفسهم.

ولم يكن ثمة شيء يبدو مُرْهِقًا في رأيهم. فقد تطوع عدد منهم بكل ما لديهم من جهود وإمكانيات للمعاونة على وضع هذا الكتاب، وفي تزويدي بأفضل ما يمكن من الشعور بصورة ما حدث في تلك الليلة.

فمثلًا تذكر المسز نويل ماكفي «الكونتيسة روزيس سابقًا» كيف أنها شعرت فجأة –وهي تتناول العشاء مع أصدقاء لها بعد الحادث بعام– بإحساس رهيب من البرد والفزع الشديد اللذين شعرت بهما عند وقوع حادث التيتانيك، ولم تدر السر في هذا برهة. ثم أدركت أن فرقة المطعم الموسيقية كانت تعزف مقطوعة «حكايات هوفمان» وهي آخر قطعة عزفتها موسيقى الباخرة بعد العشاء في مساء يوم الأحد الرهيب ذاك، وتضيف إلى هذا الإحساس العجيب، المسز جورج داربي «إليزابث ناي سابقًا» تجربة مماثلة عندما تذكر كيف حدث أنها شعرت بمثل هذا الشعور حين اشتد البرد في بكور مساء يوم الأحد. وذلك لأنها كانت مجتمعة مع بعض ركاب الدرجة الثانية في مساء الأحد ذاك، بقاعة الطعام يرتلون الدعاء «للذين يواجهون الموت في البحار».

والمسز كاترين ماننج «كاتي جلناي سابقًا» تقدم صورة حية عن روح المرح والانطلاق التي كانت تشيع بين شباب الدرجة الثالثة أثناء إقامتهم حفلة بهيجة في سطح المؤخرة في الليلة الأخيرة. وقد حدث عندئذ أن جرى فأر عبر القاعة، فانبرى بعض الغلمان لمطاردته، وقد أخذت الفتيات يصرخن في اهتياج. ثم اجتمع شمل المحتفلين مرة أخرى، وإن عيني المسز ماننج الجميلتين لتتألقان وهي تذكر موسيقى القِرَب، والضحك، والفكاهات التي أحاطت بها، باعتبارها غادة إيرلندية جميلة في طريقها إلى أمريكا.

والواقع أن معظم الناجين قدموا لمحات ذات طابع مثير من الحياة على ظهر الباخرة. وإنك لتشعر بهذا عندما تسمع المسز ج. ج

ماكولي «وهي نفسها المسز ألبرت كالدويل سابقًا» حين تتذكر ضجة الرحيل من ساوثا مبتون وعندما تتحدث المسز فيكتور بيركنز «المسز أندرسون سابقًا» عن حقائب السفر الضخمة الست عشرة التي كانت مع آل ريرسون.. وعندما يتذكر المستر سبنسر سيلفرتون عشاءه اللطيف مع تجار آخرين في مساء يوم الأحد ذاك، وعندما تصف مارجريت تشارنزنباك، «مرجريت فروليكر سابقًا» عشاء أكثر هدوءًا في مقصورة والديها الفاخرة، وكانت تعاني دوار البحر، وكان تلك أول مرة تحاول أن تتناول فيها الطعام مرة أخرى على الباخرة، وكان لذكريات البحارة هذا الطابع المثير أيضًا، وإنك لتشعر به حين تسمع الوقَّاد جورج كيمينسن يصف روح الزمالة الخشنة في غرف المراجل، وعندما تتحدث المدلكة مود سلوكومب عن محاولتها اليائسة لنشر روح النظام الكامل في الحمام التركي، ويبدو أنه كان في كل ركن منه بقايا من الشطائر وزجاجات بيرة فارغة. وقد فسرت الأمر بقولها باسمة:

«لقد كان صانعو الباخرة من أهالي بلفاست».

وعلى أي حال، كان الجو الذي يصوره هؤلاء الناس يتفق على نحو ما مع الحقائق والأحداث التي يصفونها. وإني لأقدر مساعداتهم لي كل التقدير.

وهناك ناجون آخرون يستحقون كل شكري للطريقة التي حاولوا بها جاهدين أن يستعيدوا تمامًا كل أفكارهم ومشاعرهم أثناء غرق الباخرة. فقد راح جاك ريرسون يفتش في أعماق ذهنه ليتذكر مشاعره وهو واقف في جانب من الباخرة، حين كان والده يبذل جهده ليسمح

لهم بالركوب في الزورق رقم ٤. هل شعر عندئذ أن حياته كانت معلقة في الميزان؟ لا، إنه لم يفكر في هذا كثيرًا؛ لأنه كان عندئذ مجرد غلام قوي البدن في الثالثة عشرة من عمره.

وسرد ركاب الدرجة الثالثة: حنة كنكايد «جوبلوم سابقًا»، وسليبر ويكر «يزبك سابقًا»، وجاس كوهين، أقاصيص أشد إثارة وتشويقًا. وكانوا، بوجه خاص، من أكثر الذين عاونوا على تصوير الجو الذي خيم على ركاب الدرجة الثالثة، وكان هذا جانبًا طال إغفاله في القصة.

قدم البحارة أيضًا تفصيلات كثيرة خارج نطاق تجاربهم الشخصية، وكان الإحساس العميق الذي ينم عليه صوت الخبَّاز تشارلز بيرجز كلما تحدث عن التيتانيك يدل على مدى الزهو البالغ الذي كان يشعر به جميع العاملين عليها. وكانت الرقة البالغة في تصرفات وأحاديث النُدُل جيمس رويتر، و ف. دفت راى، وليوجيمس هايلاند تدل على مدى ما كان ينعم به الركَّاب من خدمة ممتازة. وكان دقة رجال مثل رئيس النوتية جورج توماس، و، والبحار أ. باو، والخباز والتر بلفورد، والميكانيكي والتر هيرست تؤكد ما كان يزهو به الوقَّاد كيمينس من أن طاقم الباخرة كان خلاصة «ساوثا مبتون».

إلى هؤلاء وإلى آخرين كثيرين من الناجين، مثل المسز جاكس فانريل، والمسز أ. س. ويليامز، وهارى جايز، وهيربرت بيتمان، أقدم أعمق الشكر، لا للمعلومات التي زودوني بها فحسب، وإنما لما بذلوه من جهدهم ووقتهم.

وكذلك كان أقارب ركاب الباخرة تيتانيك متعاونين أيضًا. وإن

خطابًا واحدًا أمكن الحصول عليه من أحد أبناء هؤلاء الناجين يبين مدى هذا التعاون. إنه كان خطابًا موجهًا للناجي نفسه بعد الحادث بفترة وجيزة. لقد حذفت جميع الأسماء، ولكن تقديم هذا الخطاب بالذات، يدل على مبلغ الشجاعة والصدق اللذين يتحديان الاتهام الوارد في الخطاب:

عزيزي...

إن أمامي الآن معلومات تقرر أنك حاولت اقتحام زورق من زوارق النجاة، فلما أمرك الميجور بات بالرجوع، تسللت من الجموع واختفيت، ثم شوهدت بعد لحظات وأنت تغادر مقصورتك الفاخرة مرتديًا ملابس سيدة، وقد عُرف أن هذه الملابس كانت من الملابس التي سبق أن ارتدتها زوجتك أثناء الرحلة.

إنني لا أفهم كيف يمكنك أن ترفع رأسك وتدعي أنك رجل بين الرجال وأنت تعلم أن كل نفس تتنفسه يقول إن هذا كذب. إذا استمر ضميرك يؤنبك بعد قراءة هذا فيمكنك أن تأتي إليَّ. فليس هناك ما هو أصدق من القول المأثور القديم: «الاعتراف تطهير للروح».

المخلص

وعدا التطوع بتقديم مثل هذه الرسائل، فإن كثيرًا من هؤلاء الأقارب قدموا أيضًا معلومات مثيرة. وأخص بالشكر ابنة الكابتن سميث، المسز م ر. كوك، لما قدمته من ذكريات جذابة عن أبيها الباسل، وكذلك أشكر المسز سيلفيا لايتوللر لتكرمها بالكتابة إلي عن زوجها المتوفى، الكوماندر تشارلز لايتوللر الذي قام بعمل مجيد في عام ١٩٤٠ عندما

اشترك بسفينته الخاصة في معركة دنكرك. والمسز ألفريد هيس لإتاحتها لي فرصة الحصول على أوراق أسرة المستر والمسز إيزيدور ستروس.. والمسز سنتيا فليكر على نسخة الخطاب المكتوب بيد والدها، وهيو وولتر راكب الباخرة كارباتيا، والمستر فريد ج. كروسبي وابنه جون للمعاونة في الحصول على معلومات خاصة بالكابتن إدوارد جينورد كرسبي.. والمسز فكتور ميناهان للتفاصيل المشوقة عن الدكتور والمسز ويليام ميناهان وابنتهما ديزي.

وقد اعتمدت على ما نُشر في الصحف، في الحالات التي لم أجد فيها ناجين أو أقارب لأتثبت منها. وكذلك ساعدتني طبعًا المحاضر الرسمية لتحقيقات مجلس الشيوخ الأمريكي ولجان التحقيق الإنجليزية، وهي محاضر تضم آلاف الصفحات من أقوال الشهود المثيرة. وإن ذكريات جاك ثاير الخاصة التي نشرها تعتبر تسجيلًا مشوقًا صريحًا. وكذلك أيضًا الحديث الخاص المطبوع الذي ألقاه الدكتور واشنطن دودج في نادي «الكومنولث» بسان فرانسيسكو. ويحتوي كتاب لورنس بيزلي «غرق الباخرة التيتانيك» الذي نشرته دار «هويون ميفلين» في عام ١٩١٢ على وصف أخاذ للأحداث يستحق ما يبذل فيه من وقت لقراءته. والمعلومات التي وردت في كتاب أرشيبولد جراسي «الحقيقة عن الباخرة تيتانيك» –الناشر، «متشيل كينرلي عام ١٩١٣» لا تقدر بثمن فيما يختص بركاب زوارق النجاة. وكان الكولونيل جراسي يعتبر كضابط مباحث لا يهدأ له قرار؛ ذلك أن كتاب الكوماندر لايتوللر «التيتانيك وبواخر أخرى» الذي نشره «أيفور بكولسون وواطسن عام

١٩٣٥»، يصور هذا المزيج من المرح والشجاعة الذي كان يتمتع به الكولونيل جراسي. ويعتبر كتاب بوللوك «بطل التيتانيك: صانع السفن توماس أندروز» الذي نشرته دار نورمان رمنجتون عام ١٩١٣» مجهودًا قائمًا على الحب، وقد جمع فيه تفاصيل الساعات الأخيرة في حياة ذلك الرجل العجيب.

وكذلك كانت تظهر في الصحف والمجلات بين الحين والآخر مقالات وقصص كثيرة كتبها الناجون عن الحادث، ولعل الذكرى السنوية له هي فرصة رائعة لمحرري هذه الصحف والمجلات المحلية. ومن هذه النماذج القصة التي كتبها جاك ثاير في صحيفة إيفننج بوليتان بفيلادلفيا في ١٤ من أبريل عام ١٩٣٢. والحديث الصحفي الذي أدلى به الوقَّاد لويس ميكلسون في مجلة سيدار رابيدز المسماة «الجازيت»، وذلك في ١٥ من مايو سنة ١٩٥٥، والوصف المشوق الأخَّاذ الذي قدمته المسز رينيه هاريس في ٢٣ من أبريل عام ١٩٣٢ المنشور بمجلة «ليبرتي».

أما ما نشر في الصحف المعاصرة، فلم يكن مرضيًا إلى هذا الحد. حقًّا إن صحيفة النيويورك تايمز قامت بمجهود رائع، ولكن معظم صحف نيويورك لم تكن دقيقة في نشر الحقائق. وكان ما نشر في الصحف المحلية حيث يقيم الناجون أفضل من هذه الوجهة. ونذكر على سبيل المثال صحف ميلووكي فيما نشرته عن آل كروسبي وآل ميناهان، وصحف سان فرانسيسكو فيما نشرته عن آل دودوج، وصحيفة سيدار بيدز فيما نشرته عن آل دوجلاس، وفي الخارج، كانت صحيفة

التايمز اللندنية دقيقة وإن كانت مملة، ولعل أشدها إثارة وتشويقًا هي صحف بلفاست حيث صُنعت التيتانيك، وصحف ساوثمبتون حيث عاش كثير من بحارتها. وكانتا مدينتين من مدن الملاحة البحرية، ومن ثم كانت تغطية الأحداث البحرية فيهما رائعًا.

وكان معظم ما نُشر في المجلات المعاصرة المشهورة مثل هاربرز وسفير، واللستريتد لندن نيوز قصصًا معادة مجددة، ولكن كان يُنشر بين الحين والآخر مقال رائع مثل وصف هنري سليبر هاربر الذي نشر بمجلة هاربر في ٢٧ من أبريل عام ١٩١٢، أو القصة اللطيفة التي نشرتها المسز شارلوت كوللبير في مجلة نصف شهرية في ٢٦ من مايو عام ١٩١٢، واستطاعت صحف الفنون الصناعية في ذلك العهد أن تظفر بمحصول أفضل. فالعدد الخاص الذي أصدرته مجلة «شيب- بيلدر» في عام ١٩١٢ قدم حقائق كاملة عن بناء التيتانيك، وقد نشرت تفاصيل مماثلة في عدد مجلة «أنجنيرنج» الصادر في ٢٦ من مايو عام ١٩١١، وفي عدد مجلة «سيانتفيك أمريكان» الصادر في أول يولية عام ١٩١١.

وكذلك كان ركَّاب باخرة الإنقاذ «كارباتيا» كرماء متعاونين مثل الناجين من التيتانيك. فكان المستر روبرت ثوام كريمًا جدًّا وهو يساعد في جمع التفاصيل عن تلك السرعة الرهيبة التي انطلقت بها الباخرة كارباتيا إلى مسرح الحادث في تلك الليلة. وقدم المستر ر. بيرنيز مساعدة كبيرة في تذكره لأسماء مختلف الضباط على الباخرة كارباتيا. وقدمت المسز لويز م. أوجدن كنزًا من التفاصيل، ومما ضاعف قيمتها أنها كانت من أوائل الذين صعدوا إلى السطح.

وقدمت المسز دياجو سواريز «الآنسة إيفلين مارسال سابقًا» صورة قلمية واضحة لمنظر زوارق النجاة التابعة للتيتانيك وهي تقترب من الباخرة كارباتيا.

لقد نُشر الشيء الكثير عن الباخرة كارباتيا. ولكن كتاب الكابتن سير آثر هـ. روستون «العودة إلى الوطن من البحر» الذي نشرته دار مكميليان عام ١٩٣١، يحتوي على تفاصيل رائعة. وكذلك كانت لشهادته التي أدلى بها أمام لجان التحقيق الأمريكية والإنجليزية قيمتها الكبيرة. ويمكن أن نُضفي هذه القيمة نفسها على شهادة عامل اللاسلكي هارولد توماس كوتام.

وبالإضافة إلى الأشخاص الذين كانوا على الباخرة التيتانيك وكارباتيا، فهناك أشخاص آخرون قدموا معونتهم القيمة في إعداد هذا الكتاب. فقد ساعدني الكابتن تشارلز فيكتور جروفز كثيرًا في جمع تفاصيل القصة عن موقف الباخرة كاليفورنيان التي كان يعمل عليها برتبة ضابط ثالث. وكذلك تشارلز ويتنر الذي كان يعمل يومذاك مديرًا لمطعم ريتز كارلتون على الباخرة «أمريكا» قد زودني بمعلومات قيمة عن كيفية قيام المشرفين على المطاعم الفرنسية في عابرات المحيطات بأعمالهم. وقد أفادت هذه المعلومات، بصفة خاصة، لا سيما حين ظهر أن واحدًا فقط من عمال المطعم الفرنسي هو الذي نجا من الباخرة تيتانيك. وقدمت لنا شركة هار لاند. وولف صورًا رائعة عن الجوانب الداخلية للتيتانيك. وقدمت شركة لويد آخر قائمة طعام في التيتانيك، وشركة ماركوني زودتنا بمعلومات على جانب كبير من الأهمية عن

طريقة تركيب وتشغيل أجهزة الإرسال والاستقبال اللاسلكي في ذلك العهد. وتعتبر هيلين هرناندیز المنتمية لشركة فوكس للقرن العشرين منبعًا ذهبيًّا لكثير من المعلومات المفيدة.

وأخيرًا أجد أن الذين هم أقرب الناس إليّ جديرون بعبارات خاصة من الشكر، فقد اقترح عليَّ المستر رالف هويتيني اتخاذ مناهج كثيرة مثمرة، وقدم إليّ المستر هارولد داو بحوثًا هامة. وحلت الآنسة فيرجينيا مارثين ألغازًا كثيرة من العبارات المكتوبة، وكتبت على الآلة الكاتبة رزمًا من الأوراق الفولسكاب المكتوبة بخط اليد. وقامت والدتي بعمليات التبويب والتصنيف والفحص والتصحيح بهذه الروح النبيلة التي لا يلمسها الإنسان إلا في الأم.

* * *